من آثار الشيخ العلامة
محمد الأكحل شرفاء

إصدارات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف

1440هـ-2019م

جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

1440هـ/ 2019م

السداسي الأول 2019

ردمك: 1-10-561-9931-978 **ISBN**

المؤسسة الوطنية للمنشورات الإسلامية "العصر"

1 نهج محمد عليلات-القبة-الجزائر العاصمة 16006.

asr.algerie@live.fr

تصدير

السيد وزير الشؤون الدينية والأوقاف الأستاذ الدكتور محمد عيسى

سعد العالم في عصوره السابقة بفترة ذهبية كانت فيه حضارة الإسلام سائدة؛ حيث ازدهرت العلوم والمعارف؛ وانتشر نور العقل الواعي بين الناس؛ وسادت قيم هذه الحضارة فاستظلت بها البشرية فترة غير قصيرة من الزمن؛ دامت ألف سنة أو تزيد.

في ظل هذه الحضارة كانت الكلمة العليا للسان الضاد؛ حيث كانت لغة القرآن اللغة العالمية؛ ولغة العلم والمدنية؛ بها تنتج المعرفة؛ وتمارس التقنية؛ ويدّون الطب وتشرح حقائق الفلك والنجوم؛ وتبسط معادلات الهندسة والرياضيات وتحلل اختبارات الكيمياء وعلوم الأحياء؛ وبواسطة هذه اللغة نعم الناس بمنجزات العقل المسلم الراشد.

وكان العلماء محور هذه الحضارة؛ وأساسها؛ وجنودها وحراسها. سخّروا حياتهم وفكرهم لتقديم النفع للناس عن طريق منجزات العقل والتجارب؛ وهم موقنون أنهم في محراب العبادة لله؛ يتوسلون إليه بأفضل الأعمال وأشرف القربات.

حينها كانت الأمة كلها؛ من المجتمع والدولة؛ والحاكم والمحكوم، يعرف الكل للعالم قدره؛ ويجلّه ويبوئه منزلة الرأس من الجسد في ميدان الحياة العامة؛ فهو الفيصل والحكم؛ وإليه المفزع إذا الليل ادلهمّ.

وليس عجيبا أن نجد عناية القرآن باللغةً بهذه النخبة؛ وأن تستجيب الأمة لتعاليم القرآن بتبجيل العلم وأهله؛ وتجسيدا للمقام الذي رفعهم إليه الحق في قوله:

﴿**يرفعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ**﴾ [المجادلة:11]

وكفى العلماء شرفا أن كانوا الهداة في دياجي الجهل؛ والشموس في ميادين الفضل؛ والحداة في متاهات السبل؛ والأساة عند اشتداد العلل.

أولم يرفعهم الحق إلى مقام الشهادة على وحدانيته مع ملائكته المقربين؛ فقال في محكم كتابه المبين: ﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [آل عمران: 18]

أولم يجعلهم المرجع للناس عند حدوث الإشكال؛ وتعسر القضايا والحاجة إلى السؤال؟ فأمر بالتزام ما يدلون به من جواب؛ وجعل رأيهم فيها عين الصواب.

فقال عز من قائل: ﴿**فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾ [الأنبياء: 07].

وقد فصّل معلّم البشرية محمد صلى الله عليه وسلّم فضل العلم وما ينال صاحبه من وفير الأجر والمقام؛ ما يجعل الناس يتسابقون للارتقاء إلى مكانته بكل عزم واهتمام؛ فقال عليه الصلاة والسلام: «من سلَكَ طريقا يطلبُ فيهِ علما سلَك الله بهِ طريقا من طرقِ الجنّةِ وإنَّ الملائِكةَ لتضعُ أجنحتَها رضًى لطالبِ العلمِ وإنَّ العالِمَ ليستغفرُ لَه في السَّماواتِ ومن في الأرضِ والحيتانُ في جوفِ الماءِ وإنَّ فضلَ العالِمِ على العابدِ كفضلِ القمرِ

ليلةَ البدرِ على سائرِ الكواكبِ وإنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياءِ لم يورِّثوا ولا درهمًا»[1].

واستجابة لتعاليم القرآن وهدي نبي الرحمان كانت أمة الإسلام مثلا في الاحتفاء بعلمائها الأعلام؛ يوقرهم العوام ويقربهم الحكّام؛ بل ويتقربون إليهم بكل حفاوة واحترام؛ لأنهم العين الساهرة على صلاح الأمة؛ واستقامة سيرها إن جنّ الظلام.

إن العلماء ربّان الأمة المرابط في غرفة القيادة، والقوة الدافعة نحو التقدم والريادة، وهم ذخيرة الوطن، وعماده وحصنه يوم المحن، ومصدر ثروته، التي تمده بالطاقة لإعلاء صرح حضارته، ورسم لوح سعادته.

وتحفظ سجلات التاريخ أن العلماء ظلوا على مر العصور حصن الدفاع الأول عن الأمة عند نزول البلاء، ومعتمدها في استنهاض الأجيال عند تكالب الأعداء.

وتقديرا لهذا الموقع الرائد؛ وإعدادًا لهذا الفريق القائد؛ حرص الإسلام أيما حرص على توقير العلماء، وأولاهم بالغ الأهمية والتقدير؛ حتى يتولوا مهمتهم في تقرير المصير.

يقول الإمام الآجري – رحمه الله- مبينا فضل العلماء: "إن الله –عز وجل- وتقدّست أسماؤه، اختصّ من خلقه من أحب، فهداهم للإيمان، ثم اختصّ من سائر المؤمنين من أحب، فتفضّل عليهم، فعلّمهم الكتاب والحكمة وفقههم في الدين، وعلمهم التأويل وفضّلهم على سائر المؤمنين،

(1) أخرجه أبو داود في السنن، وابن حبان في الصحيح.

وذلك في كل زمان وأوان، رفعهم بالعلم وزينهم بالحلمِ، بهم يعرف الحلال من الحرام، والحق من الباطل، والضار من النافع، والحسن من القبيح".

إنّ الاحتفاء بجهود العلماء سمة من سمات المجتمعات المتحضرة؛ إذ تستمر به مسيرة العلم وتقوى قافلة الإبداع في شتى ميادين الفكر والمعرفة؛ ليشكل ذلك دافعاً إلى مزيد من العمل والعطاء.

والحقّ أن الأمّة التي تكرّم روادها من العلماء والعظماء؛ أمةُ تستحقُّ الحياة بشرف، وتتبوأ مواطئ نجوم السماء.

والجزائر ليست بدعا من الأمم في هذا المضمار؛ بل قد سبقت كثيرا من الأمم والأقطار؛ وخطّت أسطرا من نور؛ بيد العلماء؛ ورسمت لوحات من نار بدماء الشهداء؛ فعقدت العزم على تكريم هؤلاء وهؤلاء؛ واختطت لها سبيلا للاحتفاء بأعلام الفكر ورجال الوطنية؛ بما لهم من دين على الأجيال؛ تكريماً لأشخاصهم؛ وتخليدًا لآثارهم؛ وتعريفا بجهودهم؛ ووفاء لتضحياتهم، وضمانا لتواصل جيل الآباء والأبناء؛ وتلك أسمى تجليات العرفان والوفاء.

ومن هؤلاء الأعلام الشيخ محمّد الأكحل شرفاء، الذي نبت على الأصالة والصفاء في دوحة العلماء الخصيبة المعطاء، وانفتح عقله على معاني التديّن الصحيح في أسرة شريفة كريمة، عاشت بالقرآن وللقرآن، فانعكس ذلك في شخصه الكريم؛ دماثة أخلاق، وصفاء جنان، وعذوبة لسان، ومنطق بيان.. ثم صقلت ملتقيات الفكري الإسلامي مواهبه، وفجرت جمعية القيم جوانب العظمة في شخصيته، ورسخ نادي الترقّي الوطنية في روحه ووجدانه، وتعاونت مختلف مساجد الجزائر في تفتيق نبوغه وإبراز عبقريته،

وغرست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الوسطية والاعتدال في منهجه، فاكتمل بذلك البنيان.

إنّ الشيخ محمد الأكحل شرفاء قامة سامقة من علماء الأمة ودعاتها الربانيين، سعى بإخلاص في إصلاح الخلل، ورأب الصدع، واجتهد في الدعوة إلى تقوية أواصر الأخوة الإسلامية، وإحياء التضامن الإسلامي؛ ودرء ما أحاط بالمسلمين من مفاسد، حوّلت علاقاتهم إلى تطاحن وتحاسد؛ وغشيتهم فتن الفرقة والتعصب للمذاهب؛ فجعلتهم طعما سائغا لكل راغب.

كما حاول الشيخ أن يبدد اليأس والقنوط، ويعمق الرجاء في نفوس الأجيال بتجاوز هذه الحال التي آلت إليها أمتنا من الفرقة والتشتت، والوهن والتردي.

ولم يأل جهدًا في كشف زيف الدعوات الهدامة؛ التي تكتسي لباس النصح والخير؛ وتضمر الكيد والسوء؛ ومن أشهرها دعوات القوميات والعنصريات، وهجر اللغة العربية الفصحى، والتعصب المذهبي الممقوت؛ كل ذلك كان زناد أورثت بين الأشقاء نار العداوة والبغضاء.

وقد بذل الشيخ تلك الجهود؛ إيمانًا منه أنه لا يخلد المرء بين الناس مجرد ما حوى من علوم؛ بقدر ما يخلده ما نفع الناس به من تلك العلوم؛ وتلك سمة هذا الصنف من العلماء العالمين.

لقد أنجبت الجزائر عبر تاريخها قوافل مباركة من العلماء العالمين؛ أمثال الشيخ محمد الأكحل شرفاء؛ وهم بآثارهم خالدون؛ وبجهودهم حاضرون، وسيظلون بعلمهم بين الناس أحياء، يلهجون بذكرهم ويغدقون عليهم الثناء

والدعاء؛ ويجتهدون في اقتناء آثارهم، وترسم خطاهم، علمًا وعملاً، ودعوة ومنهاجًا، تشبها بالكرام وإن لم يكونوا مثلهم، فذلك أمارة الفلاح.

لقد وقف الشيخ محمد الأكحل شرفاء؛ وأمثاله من العلماء الشرفاء علمهم لخدمة الأمة والوطن؛ بل وخدمة الإنسانية جمعاء. وبذلك جسّدوا جوهر رسالة العلم التي اختصرها دعاء المصطفى الحبيب: "اللهمّ إني أسألُك علما نافعا".

وأجلى صور العلم النافع أن يكون تبصرة للعاقل، وتذكيرا للغافل، وتعليما للجاهل؛ حتى يغدو من أهل البصيرة والألباب.

وفي ذلك تتفاوت المراتب بين الناس بالنفع والأثر؛ لا بالعناوين والألقاب ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾ [الزمر: 19].

وتحقيقا لهذه المقاصد كان سعي الوزارة لتخليد آثار هذا العالم المجاهد؛ بجمع تراثه المتناثر هنا وهناك؛ من محاضرات وأحاديث في مختلف المناسبات.

ونحسب ذلك ترجمانا للوفاء لهذه الجهود؛ والعرفان بجميل الآباء والجدود.

ونريدها أن تكون سنة نسعى لتعميمها مع سائر الأعلام. وأنعم بها سنّة حميدة تحفظ تاريخنا الجليل، وتجدد العزم لمواصلة هذا المسعى النبيل؛ والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

توطئة

سيف الحق شرفاء

نجل الشيخ محمد الأكحل شرفاء

لقد غمرني شعور عميق وهو مزيج من الفخر والاعتزاز والتأثر والخجل والحرج، حينما شرفني السيد معالي وزير الشؤون الدينية والأوقاف، الأستاذ الدكتور محمد عيسى الموقر، وطلب مني أن أكتب كلمة أسهم بها في تقديم محتوى هذا الكتاب الذي يتضمن قسطا وافرا من آثار العلامة الشيخ محمد الأكحل شرفاء طيب الله ثراه وأكرم نزله ومثواه.

وكيف لا يغمرني مثل هذا الشعور والشيخ شرفاء ليس في نظري ذالك الشخص الذي يمكن حصر فكره وأعماله وآثاره في بضعة سطور حتى وإن اقتصر الأمر على محتوى هذا الكتاب الذي هو غيض من فيض. فبعفوية مطلقة سألت نفسي: ماذا عساني أكتب بكل موضوعية ودون اندفاع عاطفي في هذا الرجل الذي أطلق عليه لقب "روح ابن باديس" وهو طالب يزاول دراسته بجامع الزيتونة والذي وصفه نظراؤه بالقامة العلمية والموسوعة الفقهية والأدبية واللغوية والقمة الأخلاقية، والذي عاش على غرار أسلافه للإسلام والعربية والجزائر؟ كيف ذلك وهو الذي كان بالنسبة لي الوالد والمربي والأستاذ والمرشد والرفيق والصديق قبل أن يكون علما من أبرز أعلام الجزائر والأمة الإسلامية المصلحين الذين قضوا حياتهم كلها دعاة إلى

الله مخلصين، مدافعين عن مقومات الأمة وثوابتها لا مغيرين ولا مبدلين مبتغين رضا المولى جل وعلا؟

وعلى ذكر آثار الشيخ شرفاء، قد يتساءل القارئ في أول وهلة عن السبب الذي حال دون إقدامه -رحمه الله- على طبعها ونشرها. فالسؤال وجيه إن طرح والجواب عنه بسيط. وقبل ذلك، لابد من التذكير أولا أن الفقيد قد عرفته المساجد بدروسه والمجلات والجرائد بمقالاته داخل الوطن وخارجه، قبل استقلال الوطن العزيز وبعده وعلى رأسها جريدة البصائر (لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) التي كان في عهدها الجديد نائبا لرئيسها ثم رئيسا شرفيا لها إلى غاية وفاته.كما عرفته الإذاعة والتلفزة بأحاديثه والمؤسسات الجامعية والنوادي العلمية بمحاضراته وأبرزها نادي الترقي بالعاصمة التي خصصها لتفسير القرآن الكريم والتي استغرقت 32 سنة.كذلك عرفته المؤتمرات الفكرية الوطنية والدولية بمساهماته العلمية، وأذكر منها على سبيل المثال: المحاضرات التي ألقاها في إطار ملتقيات الفكر الإسلامي التي انعقدت بمختلف ولايات الوطن، والدروس الحسنية بالمغرب الشقيق، وتلك التي ألقاها بالحرمين الشريفين (مكة المكرمة والمدينة المنورة) وفي المنتديات العلمية بأوربا وأمريكا وهي المحاضرات التي شرف بها الجزائر أيما تشريف. ناهيك عن المخطوطات التي لم يكشف عنها بعد والتي تعتزم أسرته طبعها، وسوف يجد القارئ الكريم في هذا الكتاب شيئا منها.

أما السبب الرئيس في عدم نشر كل هذه الآثار، فهو يعود إلى كون انتماء الشيخ شرفاء إلى ذلك الرعيل من العلماء والمفكرين الذين لم يتفرغوا لتأليف الكتب؛ فقد انشغلوا بالدعوة والإرشاد وتربية النشء وتعليم الأجيال

وإعداد الأبطال وإيقاظ الضمائر للذود عن الإسلام والعربية والجزائر. ولما اقتنع الفقيد في السنوات الأخيرة من عمره بضرورة التأليف، واستعد له استعدادا كاملا، وبدأ يجمع ويرتب مخطوطاته ويطبع البعض منها، داهمه المرض وأقعده.

ولقد تأسف كثيرا لعدم تمكنه من تحقيق مشروعه بل أمنيته إلى أن بادرت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وبخاصة رئيسها الشيخ الموقر الدكتور عبد الرزاق قسوم، الذي أجدد له خالص شكري

وعرفاني بطبع كتاب يحتوي على مجموعة من مقالاته المنشورة في جريدة البصائر ويحمل عنوان "توجيهات من القرآن والسنة" (قبل وفاة الراحل ببضعة أشهر)؛ فأثلج صدره وأبهج نفسه وأشعره بالراحة والطمأنينة.

وتلت هذه المبادرة الطيبة، التفاتة كريمة من معالي السيد وزير الشؤون الدينية والأوقاف الأستاذ الدكتور محمد عيسى الموقر، بمناسبة إحياء الذكرى السنوية الأولى لوفاة المغفور له بإذن الله، التي نظمت فعالياتها تحت رعايته السامية وبإشرافه الشخصي، حيث أصدر المركز الثقافي الإسلامي بهذه المناسبة بتوجيه من معاليه، كتابا بعنوان "محمد الأكحل شرفاء، من أعلام الإصلاح في الجزائر"، تضمن هو الآخر مقالات للفقيد تهدف في مجملها،كما ذكر محرر مقدمة الكتاب الدكتور عمر بافولولو المحترم: "إلى زرع العقيدة الصحيحة ونشر الأخلاق الحميدة وترسيخ الهوية الوطنية العميقة وتأصيل القيم الحضارية الأصيلة". ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله. ومن ثمة فإني انتهزها فرصة لأتوجه ثانية إلى معاليه بأسمى آيات الشكر والعرفان على

التفاتته الطيبة هذه وعلى كل ما يبذله من جهد وما يقوم به من عمل على رأس قطاعه، وفي فضاءات أخرى عديدة؛ خدمة للدين والوطن، وتمجيدا للعلم والعلماء، وحفاظا على الهوية الوطنية، ودفاعا عن المرجعية الدينية الوطنية، ومقدسات الأمة.

كيف لا ومعاليه يبادر مرة أخرى، تخليدا لذاكرة الفقيد، وإبرازا لأعماله، وحفاظا على آثاره، بطبع هذا الكتاب الذي يحمل عنوان :"من آثار الشيخ العلامة محمد الأكحل شرفاء". والذي يتضمن (كسابقه) مقالات نشرت في جريدة البصائر، ونصوصا لم تكن قد ظهرت من قبل في جريدة أو كتاب، وشهادات للمرحوم حول بعض الشخصيات الوطنية التاريخية العملاقة.

وسوف يدرك القارئ الكريم عند تصفحه لهذا المنتوج الفكري والتمعن في عناوينه أن الفقيد هو ذلك الداعية إلى الله والمفكر الكبير الذي تدبر كتاب الله طول حياته عملا بقوله تعالى: ﴿**كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾ [ص:29] وقوله عز وجل: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾ [محمد: 24]. وسوف يدرك القارئ أيضا أن الشيخ شرفاء الذي قضى بياضه وسواده مع القرآن الكريم مفسرا له ومستلهما منه الحجة والبيان والذي خاطب العقول والقلوب بلسان عربي مبين وأسلوب بليغ، قد أعطى للإسلام تفسيره الحقيقي وأبرز إعجازه العلمي بما يسمح بمواكبة العصر آتيا بالحلول للمشكلات التي تعاني منها البشرية اليوم مؤكدا في كل مرة أن القرآن الذي وصفه الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس -رحمه الله- بكتاب الدهر ومعجزة الله الخالدة، هو

الخلاص في هذه الأرض من الأزمات التي تكاد تعصف بالمجتمعات في عالمنا هذا الذي انعدمت فيه القيم والأخلاق والذي يطغى فيه القوي على الضعيف وتهضم فيه الحقوق وتتكاثر وتتفاقم فيه الفتن والحروب وتعم فيه الرداءة والجهالة والرذيلة بما يضع الإنسانية برمتها في خطر ويجعلها أمام مصير مجهول. ومن ثمة سوف يلاحظ القارئ أن الحل في نظر الفقيد لمواجهة تحديات العصر، بل العصور، إنما يكمن في العودة إلى كتاب الله وسنة رسوله والتحلي بقيم الدين والتمسك بالعلم اليقين وإتباع منهج عملي قويم وتصور إيماني صحيح تنبثق منه الأقوال والأفعال بعيدا عن كل تحريف أو تزييف.

وكما أسلفت سوف يجد القارئ الكريم أيضا في هذا الكتاب، شهادات للفقد حول بعض الشخصيات التي تركت بصماتها في تاريخ الأمة و أثرت على مجراه. ويجدر التوضيح في هذا الصدد أن كتابات الشيخ شرفاء رحمه الله كأقواله، انصبت كلها في الدعوة إلى الله ولم يكتب عن الشخصيات إلا نادرا، وإن فعل فالغرض منه ليس إلا خدمة منه للدين والوطن.

لذا فقد اقتصرت شهاداته القليلة على علماء ومشايخ أجلاء تأثر وتعلق بهم وسار على نهجهم. أذكر منهم على سبيل المثال: أستاذه وقدوته الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس، وخليفته الشيخ الإمام البشير الإبراهيمي، والشيخ العلامة الفضيل الورتيلاني -رحمهم الله-.

ختاما، أعرب مرة أخرى لمعالي السيد وزير الشؤون الدينية والأوقاف المحترم عن خالص شكري وفائق تقديري، ولمصالحه الموقرة وبخاصة الدكتور عمر بافولولو عظيم امتناني على هذا الإنجاز العلمي. آملا أن يجد فيه

القارئ الكريم ما ينفعه في الدنيا والآخرة. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

كلمة السيد سيف الحق شرفاء نجل العلامة الشيخ محمد الأكحل شرفاء – رحمه الله– بمناسبة صدور الكتاب الأول لأعمال الشيخ بعنوان: "الشيخ محمد الأكحل شرفاء من أعلام الإصلاح في الجزائر" في الذكرى الأولى لوفاته

دار الإمام، سيدي عبد الرحمن الثعالبي، الجزائر العاصمة، 2016/02/13م.

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين.

- معالي وزير الشؤون الدينية والأوقاف، الدكتور محمد عيسى الموقر،

- أصحاب المعالي والسعادة،

- السيد والي ولاية الجزائر المحترم،

- السادة والسيدات مسؤولوا وإطارات الدولة والجماعات المحلية كل باسمه ولقبه وحفظا لصفته،

- سماحة الشيخ الدكتور عبد الرزاق قسوم، رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين المحترم،

- السيد مدير مخبر مشكلات الحضارة والتاريخ، جامعة الجزائر02، الدكتور الأخضر شريط الفاضل،

- أصحاب السماحة والفضيلة العلماء والمشايخ والأساتذة الأجلاء،

- السادة والسيدات ممثلوا وسائل الإعلام المكتوبة والمسموعة المحترمون،

- سيداتي سادتي الحضور الأفاضل،

السلام عليكم جميعا ورحمة الله وبركاته

أود أن أعرب لكم (بداية) عن اعتزاز أسرة المغفور له بإذن الله العلامة الشيخ محمد الأكحل شرفاء وافتخارها بكم جميعا، وفي مقدمتها الوالدة الكريمة التي أبت إلاَّ أن تكون حاضرة اليوم معكم وبينكم في هذا الملتقى الطيب الذي تم تنظيمه بمبادرة طيبة من معالي السيد وزير الشؤون الدينية والأوقاف الدكتور محمد عيسى المحترم؛ وذلك حرصا منه على تكريم الفقيد في الذكرى السنوية الأولى لوفاته.

ونيابة عن كل أفراد الأسرة وأصالة عن نفسي، أتوجه إلى معالي السيد الوزير بأسمى عبارات الشكر والعرفان على مبادرته هذه وعلى رعايته السامية لهذا الملتقى وإشرافه الشخصي عليه.

وإن دلت هذه المبادرة على شيء، فإنّما تدل على نبل مشاعره وعظيم أخلاقه وحسن وفائه وإخلاصه وصدق دعمه للعلم والعلماء الذين يربطون حاضرها بمستقبلها، وذلك دفاعا منه وحفاظا على الهوية الإسلامية لوطننا العزيز. ولا غرابة في ذلك حيث يأتي من نبعه الأصيل.

ويسعدني أيضا أن أتوجه بخالص الشكر والامتنان إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين على إسهامها في إنجاح هذا الملتقى وبخاصة إلى رئيسها المحترم سماحة الشيخ الدكتور عبد الرزاق قسوم، على حضوره الشخصي

معنا تعبيرا منه عن حبه واحترامه للفقيد وإخلاصه ووفائه له وكذا تقديرا لأعماله وحفاظا على آثاره وتراثه. فجزاه الله عنّا خيرا ومدّه بعونه وتوفيقه لمواصلة جهوده من أجل الحفاظ على الجمعية ورسالتها النبيلة.

كما أسدي كذلك شكري الجزيل إلى الدكتور الأخضر شريط، رئيس مخبر مشكلات الحضارة والتاريخ بجامعة الجزائر02 ومن معه من أساتذة ودكاترة ومفكرين كل باسمه، على إسهامهم في إحياء هذه الذكرى وإبراز فكر الفقيد وجعله في متناول طلبتنا الأعزاء، سائلا لهم المولى جلّ وعلا كلّ النجاح والتوفيق.

ولكم مني أيضا سيداتي سادتي الحضور الأفاضل، خالص شكري على تلبيتكم الدعوة تكريما لهذا العالم الجليل والمفكر والمصلح والداعية الإسلامي الرصين والوطني الأصيل في الذكرى الأولى لرحيله.

أيها الحضور الموقر:

إن الحديث عن الوالد الشيخ محمد الأكحل شرفاء قد يطول. لذا سأقتصر في كلمتي المتواضعة هذه على التذكير في عجالة بأهم مراحل حياته وعلى بعض من مواقفه، مبرزا في ذات الوقت بكل موضوعية وصدق وأمانة جوانب هامة من فكره وفلسفته ومن ثمة المبادئ والقيم الدينية والوطنية التي ارتكز عليها كفاحه.

وأعتقد أن الخاص والعام يعرف أن الفقيد هو سليل أسرة دين وعلم وشرف.

وأبرز أعضاء هذه الأسرة -طيب الله ثراهم- هم: جدّه العلامة الشيخ محمد السعيد فضلاء البهلولي، ووالده الشيخ الشريف بن شريف، وعمّه الشيخ محمد السعيد فضلاء البهلولي، ووالده الشيخ الشريف بن شريف شرفاء، وعمّه الشيخ محمد السعيد شرفاء، ووالدته التي حرصت وسهرت على تحفيظه القرآن الكريم وحفَّظته فعلا أجزاء كبيرة منه قبل أن يحفظه كلية على يد مشايخ آخرين بمسقط رأسه، اجتهدوا في تلقينه أيضا دروسا في العربية والفقه وعلوم الدين.

لقد ترعرع الراحل في محيط علمي ديني وتشبع منذ نعومة أظافره بأفكار إسلامية أصلية وتخلّق بأخلاق الإسلام وتدرب على الجدية والانضباط والعصامية. ويمكن القول أن هذا الوسط الذي نشأ فيه قد هيأه ووجهه منذ صغره ليصبح جنديا ربانيا مهمته نشر الدعوة الإسلامية الصحيحة والتضحية في سبيل الله والوطن.

إنّه الإعداد الذي تدعّم عندما التحق بالجامع الأخضر بقسنطينة حيث احتضنه الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس -رحمه الله-، فتتلمذ على يده إلى غاية وفاته سنة 1940م، ثم على يد الشيخ مبارك الميلي رحمه الله، لينظمّ فيما بعد، أي بداية السنة الدراسية 1947-1948م، إلى جامع الزيتونة العتيق بتونس الشقيقة؛ اشتياقا منه لمزيد من التحصيل العلمية والمعرفي.

قام الفقيد (موازاة مع الدراسة) بأنشطة مكثفة ضمن جمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين التي كان يرأسها الشيخ عبد الرحمن شيبان -رحمه الله-، مدافعا عن الجزائر وثوابتها ومقوماتها ومن ثمة عن عزتها وكرامتها وحريتها.

وفي إطار هذه الأنشطة المتميزة كالخطب التي كان يلقيها في مناسبات عدّة والمقالات التي كان يكتبها في الصحف التونسية، أذكر على سبيل المثال واقعة حيث ألقى الراحل بمناسبة تأبينية الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس -رحمه الله- التي نظمتها الجمعية المذكورة، خلال صائفة 1948م، وبحضور رجالات علم وأقطاب من الحركة الوطنية الجزائرية وجمهور غفير، ألقى كلمة أعجبت الحضور لما حملت من أفكار نيرة ولما تميزت به من بلاغة لغوية وكذا لما اتسمت به من حماسة وحيوية فياضة، فأطلق عليه لقب "روح ابن باديس".

باشر الفقيد العمل الدعوي موازاة مع العمل في حقل التربية والتعليم بعد تخرجه مباشرة من جامع الزيتونة؛ حيث كلفته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بإدارة مدارس تابعة لها عبر مناطق عديدة من الوطن الحبيب. وبقي -رحمه الله- وفيا لهذه الجمعية ولرسالتها ومدافعا عنها طول حياته. وشاء القدر أن يلتحق بالرفيق الأعلى وهو نائب أول لرئيسها ثم رئيس شرفي لها.

وعلى ذكر رسالة جمعية العلماء الملخّصة في شعارها "الإسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا"، كرس الفقيد حياته كلها مع إخوانه في الكفاح، لإعطاء هذا الشعار محتوى ملموسا على أرض الواقع في ظروف صعبة عصيبة أثناء الاستعمار وخلال عقود كاملة بعد الاستقلال.

نعم لقد خدم الشيخ محمد الأكحل شرفاء الإسلام بكل ما أوتي من قوة وموهبة وكفاءة وجرأة. لقد عاش مع القرآن وللقرآن منذ نعومة أظافره. هذه حقيقة لا يختلف فيها اثنان. لقد عاش فعلا مع القرآن وللقرآن الذي

وصفه الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس -رحمه الله- بكتاب الدهر ومعجزته الخالدة، وفسّره عقودا كاملة. وأذكر في هذا المضمار وعلى سبيل المثال، دروس التفسير الأسبوعية التي ألقاها دون انقطاع، بنادي الترقي بالعاصمة مدّة 32 سنة. فكان يعتمد في تفسيره لآيات الله، منهجية علمية محكمة اقتداء بأستاذه الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس -طيب الله ثراه-.

ويعجبني جدا وصف الشيخ الدكتور عبد الرزاق قسوم للفقيد لما لهذا الوصف من دلالة وبلاغة لغوية إذ جاء في وصفه أن "الشيخ شرفاء هو أحد علماء الجزائر والأمة الإسلامية الذين يربطون القرآن بالبرهان ويستلهمون من القرآن أسلوب البيان الذي يعالج القلوب والعقول".

وفي السياق ذاته وحول القرآن الكريم، أحبذ أن أذكِّر مثلما فعلت في مناسبات سابقة، بفقرة من مقال كتبه الفقيد ونشر في جريدة البصائر والوارد في كتاب له أنجز بفضل جهود من جمعية العلماء بعنوان: "توجيهات من القرآن والسنة". لقد جاء في هذا المقال ما يعكس نظرة الفقيد للقرآن الكريم، إذ كتب ما يلي: "وهل عرفت الأرض مجتمعا قام بكتاب وناضل بكتاب وأنشأ حضارة بكتاب وانتصر وانتشر بكتاب وهان أمره وانحصر دوره العالمي عندما أعرض عن الكتاب؟"

ولعلكم تدركون معي سيداتي سادتي الأفاضل جمال هذه الكلمات ومدلولها التي تعكس صلابة عقيدة الفقيد وقوة إيمانه وعمق فكره وصواب تحليله وبعد نظره ومغزى نضاله. النضال الذي تمثل أولا وأساسا في تبليغ هداية القرآن ونشر تعاليم الإسلام اعتمادا على الحجة والبيان من أجل فهمه فهما صحيحا دون تشويه أو تحريف أو تزييف بمعنى تعاليم الإسلام

الوسطي المعتدل. وفي ذلك قول الله تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا**﴾ [البقرة: 143].

وكان الراحل -رحمه الله- يقول ويكتب هذا الكلام، وهو يتألم لما آلت إليه الأمة الإسلامية من تدهور وتقهقر وأزمات وانقسامات وفتن وعقم فكري وتلاعب بالدين من قبل أناس لا يفقهون فيه ولا تمت أعمالهم وأفكارهم بصلة إلى الإسلام.

نعم كان يتألم للانحراف الذي أصاب الفكر الإسلامي والمشاكل الكثيرة التي تعيق تطوره وتلقي به في دوامة التزمت والانغلاق والانكماش والتطرف الأعمى. لقد كان الفقيد في شبابه وكهولته وشيخوخته ذلك المصلح الكبير الذي حارب كل أشكال الشعوذة والجهل والتجهيل والجمود حيث جعل من الإصلاح قاعدة لنضاله وغاية لكفاحه. وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿**إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**﴾ [هود: 88].

أيها الحضور الكريم:

كان المغفور له (بإذن الله تعالى) يؤدي مهمته بلسان عربي فصيح وقلم متين. فكان يعتقد اعتقادا راسخا أنّه لا يمكن فهم القرآن على الوجه الصحيح والدقيق إلا إذا قرئ بنصه كما أنزله الله. ومن ثمَّ فإنّ معرفة اللّغة ضرورة لا مناص منها. ويؤكد أنّ هذا ما يمكن استخلاصه من مدلول توجيه رسول الله ﷺ عندما أعلن «أن العروبة ليست لأحدكم من أب وأم وإنّما هي اللسان، فمن تكلم العربية فهو عربي».

وكما يعرف الخاص والعام يعد الراحل من المدافعين المستميتين عن العربية باعتبارها أولا: "اللغة التي حملت وحي الله. ثانيا: اللغة العالمية الشريفة التي حملت لواء العلم والمعرفة عبر القرون والأزمة". فكان يتألم كثيرا للمؤامرات التي أحيكت ضدها. لكن حبّه الشديد لها وإيمانه القوي بقدسيتها جعلته يعتقد اعتقادا راسخا أن العربية لا يمكن لأي كان مهما كان وأينما كان أن يقزمها أو يهينها أو يتنكر لها لأنها لغة القرآن الكريم.

أيها الحضور الكريم:

كان الشيخ محمد الأكحل شرفاء يتألق أيضا في استعمال اللغة الأمازيغية في مجال الدعوة والإرشاد.

وبهذا الخصوص حدثني -رحمه الله- ذات يوم عن واقعة ذكرها في إحدى مقالاته، أنّ الشيخ الإمام البشير الإبراهيمي -طيب الله ثراه- قد كلفه وذلك نزولا عند رغبة الجمهور الحاضر في مهرجان شعبي نظم خلال سنة 1949م بقرية إغيل النصر بدائرة أقبو، بحضور ثلة من المشايخ في مقدمتهم الشيخ سعيد صالحي والشيخ عبد الرحمن شيبان والشيخ علي شنتير -رحمهم الله-، كلفه الشيخ الإمام بشرح باللغة الأمازيغية (بالقبائلية تحديدا)، الدرس الذي ألقاه بهذه المناسبة والذي كان موضوعه تفسير الآية القرآنية الكريمة ﴿**قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ**﴾ [الأنعام: 135].

فتألق الفقيد -طيب الله ثراه- وتأثر الحضور وارتاح الشيخ الإمام -رحمه الله-، فشكر وقال بالحرف الواحد: "ما كنت أظن أن معاني الدرس تحملها القبائلية هكذا".

أيها الحضور الموقر:

لقد تبلور فكر الفقيد بفضل احتكاكه بالعلماء منذ صغره فأعجب وتأثر وتعلق بهم وسار على نهجهم. أذكر من بينهم ثلاثة -طيب الله ثراهم- وهم:

الأول: هو بطبيعة الحال أستاذه الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس الذي كان مرجعه وقدوته في العمل والجهاد والاجتهاد. فكان يعتبره -رحمة الله عليه- "رسالة إسلامية خالدة متجددة تجسمت في رجل اختارته العناية الإلهية ليذكر الناس بعصر النبوة والخلافة الراشدة".

ثانيا: وتعلق الفقيد أيضا بالشيخ الإمام محمد البشير الإبراهيمي الذي كانت تربطه به علاقة وطيدة حميمية، لقد كتب عنه الكثير، وكتب من ضمن ما كتب واصفا إياه بأحد الرجال العظماء الذين رحلوا وتركوا بصماتهم في حياته، ويضيف -رحمه الله- ما يلي: "غادرنا الشيخ الرئيس في ظرف كنا في أشد الحاجة إلى قيادته الجادة الهادفة الرصينة التي نعمنا في ظلها. عهدا مازلنا نذكره ونشكره، عهدا شهد للمد الإسلامي ازدهارا وللثقافة الإسلامية انتصارا وللغة القرآن انتشارا".

ثالثا: الشيخ الفضيل الورثلاني -رحمه الله- فلقد وصفه في مقال من مقالاته بذلك "الرجل الذي كان له الفضل الأول في زرع بذور اليقظة الإسلامية في كل أرض حل بها".

- إضافة إلى هاته الشخصيات العملاقة الثلاث التي ذكرتها، كانت أيضا تربطه ومنذ زمن طويل، علاقة وثيقة حميمية بالشيخ عبد الرحمن شيبان -طيب الله ثراه-. فكان بالنسبة له الأخ والصديق والرفيق النصوح.

لقد تميزت هذه العلاقة بالمحبة والاحترام المتبادل والتطابق في الأفكار والانسجام في منهجية العمل. فلقد وصف الوالد الشيخ شيبان بذلك العالم والرجل الفذ، الذي بذل جهودا معتبرة في خدمة العلم، وأشاد بوفائه للخط الذي مضت عليه جمعية العلماء، انطلاقا من رئاسته لجمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين إلى توليه التدريس بمعهد عبد الحميد بن باديس، إلى نشاطه المكثف بعد الاستقلال لإلحاق المعلمين الأحرار التابعين للجمعية بسلك التعليم العام، إلى توليه منصب وزير الشؤون الدينية، إلى إعادة النشاط لجمعية العلماء وتولي قيادتها في عهدها الجديد بحكمة وتبصر.

أيها الحضور الكريم:

من لا يتذكر مقولة الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس -رحمه الله- "لمن أعيش؟ أعيش للإسلام والجزائر".

كذلك كان الشأن بالنسبة لمحمد الأكحل شرفاء، عاش للجزائر كما عاش للإسلام وضحى من أجلها وعانى ويلات الاستعمار الغاشم الذي أقلقه عمله الدؤوب ونضاله المتميز حيث كان يستعمل منبر الدعوة إلى الله لتحرير عقول الجزائريين وإيقاظ ضمائرهم. وبهذا الخصوص، ذكرنا الأستاذ الدكتور مولود عويمر الذي أجدد له بالمناسبة شكري الجزيل، ذكرنا في مقال له، نشرته مجلة الإرشاد، لسان حال جمعية الإرشاد والإصلاح، بما كتبه الوالد -رحمه الله- عام 1948م، بمعنى ثلاثة سنوات (03) بعد الانتفاضة الشعبية التي شارك فيها والمجازر التي تلتها والتي ارتكبها المستعمر بل المستدمر الفرنسي في ماي 1945م في حق الشعب الجزائري الأبي وستة (06) سنوات قبل اندلاع ثورة أول نوفمبر 1954م المجيدة. كتب المغفور له بإذن

الله تعالى ما يلي: "معروف لدى كل عاقل أن الشعوب الضعيفة المغلوبة على أمرها والتي لا حول ولا قوة مادية لها للدفاع عن كيانها ومطاردة الأجنبي القوي من محق الاستعمار وإجلائه من أراضيها بصفة تامة نهائية وهي ما يسمونه بالتكتل الشعبي. ويمكن ذلك بفضل التضحية والنضال ومواصلة الجهاد حتى اكتساح النظام الاستعماري وتحرير الوطن من بين أظافره تحريرا تاما شاملا". إلى آخر ما كتب.

أشاطر الدكتور عويمر تعقيبه على هذا المقال الذي حرره الشيخ شرفاء وسنه لم تتجاوز 23 سنة. حيث نص تعقيب الدكتور على ما يلي:"يبرز الشيخ شرفاء جرأته في مواجهة الاستعمار والدعوة إلى توحيد الصفوف لطرده من البلاد. لقد كان ثوريا في شبابه يدعو إلى توحيد صفوف الأحزاب والجمعيات الجزائرية؛ لأنّ الوحدة هي التي تصنع القوة وتقدر على تحرير الوطن من المحتلين".

نعم كان شرفاء يناضل من أجل بناء الوحدة الوطنية، ويدعو إلى جمع الطاقات الخيرة لإعادة بناء الذات الوطنية للشعب الجزائري معتقدا اعتقادا راسخا أنّه شرط أساسي لا مفر من توفيره لتحقيق الهدف الأسمى ألا وهو تحرير الوطن من المستعمر وتخليصه من همجيته وظلمه وعدوانه.

أيها الحضور الكريم:

نعم لقد أحب الشيخ محمد الأكحل شرفاء وطنه وخدمه قبل الاستقلال وبعده. فبالنسبة للفترة ما قبل الاستقلال، فلقد كون أجيالا وأعد أبطالا. فتحدى الاستعمار، وعانى مثل كثير من إخوانه من ويله حيث تعرض إلى مضايقات ومحاكمات بالجزائر وفرنسا وكذا إلى مطاردات خاصة

بمدينة القليعة التي غادرها سرا عام 1957م بعد أن أبلغ أن الجيش الفرنسي على وشك اعتقاله وربما اغتياله.

وبعد الاستقلال واصل رسالته الدعوية والتربوية والتكوينية إسهاما منه في تأسيس الشخصية الجزائرية بوعي إسلامي صحيح يربط ماضيها بحاضرها وحاضرها بمستقبلها.

لقد طاف الفقيد العالم لا للنزهة والراحة، وإنّما لتشريف الجزائر بإلقاء دروس ومحاضرات أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر تلك التي ألقاها بالحرمين الشريفين وتلك التي ألقاها في إطار الدروس الحسنية بالمغرب الشقيق سنين عديدة والتي نالت إعجاب نظرائه من العالم العربي والإسلامي.

أيها السادة والسيدات الأفاضل:

إن الحديث عن الفقيد، كما قلت آنفا قد يطول. لذا حاولت أن أحصر كلامي عنه في بعض النقاط تهم حياته ونضاله وفكره وفلسفته بحيث أن دقائق معدودة لا تكفي للتطرق إلى الجوانب الأخرى الخاصة به، كعصاميته وأخلاقه واستقامته ورزانته وتواضعه وكذلك صلابة مواقفه عندما يتعلق الأمر بالمبادئ التي تؤمن بها.

وعلى ذكر مواقف الفقيد أريد (مرة أخرى) أيها السادة والسيدات أن أذكر بموقفه إزاء قضية فلسطين المسلوبة وبخاصة القدس الشريف القبلة الأولى للمسلمين التي قال بشأنها: "إن الله لا ولن يرضى عنهم (أي المسلمين) إلاّ إذا استردوها محررين مطهرين. وقبل ذلك فلا وجود ولا سيادة ولا استقلال ولا راحة ولا عزة للمسلمين أينما كانوا". ويتجلى من

خلال هذا الموقف أن القضية الفلسطينية بالنسبة للفقيد قضية مقدسة. كما أنها ليست فحسب قضية أرض وطين بل هي كذلك بل أساسا قضية عقيدة ودين.

أيها الحضور الموقر:

إنّ الشيخ محمد الأكحل شرفاء كان ذلك الرجل الذي قاوم (اقتداء بأستاذه الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس) عوامل الاحتلال والظلم والانسلاخ والجهل والتخلف والانحطاط، وناضل من أجل إقامة مجتمع مسلم يجمع بين الأصالة والتفتح على العموم والمعرفة واللغات باعتبارها مفتاحا للتحصيل العلمي، فكان يعد الأجيال ويدفعها إلى اقتحام العلوم الحديثة التي سمحت للعالم الغربي من احتلال الرتب الأولى وفرض سيطرته وهيمنته على باقي العالم وبالدرجة الأولى على العالم العربي والإسلامي، ممّا أدى بالمسلمين إلى التقهقر والتخلف والشقاق، ومن ثمة إلى المذلة وفقدان العزة والكرامة.

سيداتي سادتي الأفاضل:

لقد قام الشيخ محمد الأكحل شرفاء بأعمال جليلة حيث عرفته المساجد بدروسه، وعرفته النوادي ومؤسسات جامعية بمحضراته، والإذاعة وشاشات التلفزة بأحاديثه، والصحف والمجلات بمقالاته، والملتقيات الإسلامية الوطنية والدولية بإسهاماته الفكرية، ناهيك عن مخطوطاته التي تنتظر النشر والطبع.

قد يسألني أحدكم عن هذه المخطوطات وعن أسباب عدم طبعها وإصدارها. فالجواب بسيط للغاية حيث أن الشيخ شرفاء ينتمي إلى ذلك

الرعيل من العلماء والمفكرين الذي اهتموا بإعداد الأجيال وتكوينهم وإيقاظ وعيهم وتحرير عقولهم ولم يهتموا بإنتاج كتب رغم وجود مادة فكرية علمية هائلة. ناهيك عن المرض المزمن الذي داهمه والذي حال في الأعوام الأخيرة من حياته، دون القيام بأي عمل من هذا القبيل رغم تقبله للفكرة واستعداده لتجسيدها.

وبهذا الخصوص وكما أسلفت الذكر بادرت جمعية العلماء وهي مشكورة، بجمع عدد من مقالات الفقيد صدرت في جريدة البصائر في طبعتها الجديدة ونشرتها في كتاب عنوانه:"توجيهات من القرآن والسنة".

وسبق كذلك وأن طبع له في سنة 1963م كتيب بعنوان "أحاديث في الدعوة الإسلامية"، حين كان أمينا عاما لجمعية القيم الإسلامية، التي شارك في تأسيسها رفقة علماء ومشايخ بارزين من الحركة الإسلامية كالشيخ الهاشمي التيجاني رئيس الجمعية والشيخ أحمد سحنون والشيخ العرباوي والشيخ عبد اللطيف سلطاني -رحمهم الله-.

وحفاظا على هذا التراث أو الإنتاج الفكري، ستسعى أسرة الفقيد (إن شاء الله) إلى جمع ما تبقى منه، لأن الكثير منه قد ضاع كتسجيلات تفسير القرآن الكريم بنادي الترقي الذي استغرق 32 سنة، بغية ترتيبه وطبعه ثم نشره(بحول الله) وذلك حتى تستفيد منه الأجيال الحالية واللاحقة.

ختاما ونيابة عن أسرة الفقيد أجدد شكري الجزيل لمعالي وزير الشؤون الدينية والأوقاف الدكتور محمد عيسى الموقر على مبادرته الطيبة. كما أعرب له عن عرفاننا وامتنانا لالتفاتته الكريمة المتمثلة في إنجاز وطبع من لدن مصالحه الموقرة وبخاصة مديرية النشاط الثقافي والملتقيات وذلك تحت

إشرافه الشخصي ورعايته السامية، كتابا قيما حول الفقيد بعنوان "الشيخ محمد الأكحل شرفاء من أعلام الإصلاح في الجزائر". إنّها الالتفاتة التي زادتها فخرا واعتزازا بمعاليه وثقة وأملا فيه. جزاه الله عنا خيرا وأبقاه ذخرا لوطننا العزيز وذعرا حصينا لديننا الحنيف.

وأشكركم أنتم كذلك إخواني أخواتي الحضور الأفاضل على كرم إصغائكم ومرّة أخرى على حضوركم الكريم. وما هذا الحضور إلاّ تعبير على وفائكم وتقديركم للفقيد ومن خلاله لأعلام هذا الوطن الحبيب، حيث هم ذاكرتنا ومنارتنا ومصدر عزتنا.

رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه وحشره مع الأبرار والصديقين وحسن أولئك رفيقا.

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

والسلام عليكم ورحمة الله.

التَّربية والتَّكوين

تكوين الإطار الديني

إنّ تكوين الإطار الدّيني مهمّة كبيرة يجب أن نوفر لها كلّ الوسائل الضرورية كي ندفعها إلى الأمام؛ لأنّ بلدنا المسلم العربي في إسلامه بأمسّ الحاجة إلى هذا الإطار الذي يجب أن يتوفّر فيه عنوان لا يستغنى عنهما:

الأوّل: هو الثّقافة الإسلاميّة الصّحيحة المستمدة من أصولها الرّاسخة: الكتاب والسنة والإنتاج الفكري المستمدّ منهما قديما وحديثا.

الثاني: الإيمان بهذه الثّقافة والاعتزاز بها، وذلك هو الضمان لنشرها وبذل أقصى الجهد لبعثها، والثّقة بأنّها كفؤة لاحتلال مكانتها من الثّقافات العالمية المعاصرة.

ولبلوغ هذا الهدف فإنّ علينا إعداد خطة عاجلة للأمد القريب، وأخرى لاحقة لما نستقبل من آفاق المستقبل، وانطلاقا من هذه الفكرة شرعت في النّظر في ما أعد من خطّة للعمل التكويني في مجالي المواد الشّرعية واللّغوية بالنسبة لسنتي... لتكوين الإطارات الدّينية أو بالأحرى تخريج الدّعاة إلى دين الله الخطة التي قسمت الطلبة إلى ثلاث فئات:

الأولى: أئمّة الصّلوات الخمس.

الثانية: الأئمّة الخطباء.

الثالثة: الأئمّة الممتازين.

وانتهت إلى النّظرة الآتية:

ــ إن المنهج من حيث المادة التي وضعت فيه دسم؛ أي إذا نظرت إلى عدد الآيات والنّصوص وجدنا حشدا مكتظّا، لو فرز وصنّف إلى فئات حسب الموضوعات المراد تقديمها للطّلاب لجاء بالخير الكثير، إلاّ أنّ القضية في المنهج التّربوي ليست في حشد النّصوص فقط، ولكن في التّأليف والتّصنيف من جهة، ومحاولة الوصول إلى أحسن طرق التّدريس من جهة أخرى، وهذا شيء لا بد من التّخطيط له كما ذكر للفترات المتلاحقة، التي يجب أن نتابعها بما يجب من الملاحظة والتّقويم حتى نضمن لعمليتنا التّربوية تطوّرا مستمرّا نحو الأفضل.

فعملية التّصدّي للتّفسير إذن أخطر ما يقوم به المدّرس على الإطلاق؛ لأنّ الكيان العقيدي والفكري للثّقافة والعلوم الإسلاميّة جميعا نابع من أصل واحد هو القرآن الكريم، وكلّ ما جاء خارج هذا الأصل فهو دخيل وطفيلي، على الفكر الإسلامي أن يطرده من حظيرته، كعضو غريب وإذا تأكّد بناء المنهج التربوي على التّثقيف القرآني المتين فإنّ لنا -عندئذ- أن نعتمد على سلامة هذا البناء وصحّته اطمئنانا إلى عمق جذوره ورسوخ قواعده.

كيف ندرّس التّفسير؟

من خلال التّجارب المتلاحقة في هذا المجال ـ-دراسة وتدريسًا- فإنّ علينا أن نستخلص منهجا للتّدريس القرآني يستفيد من الطّرائق التّربوية الحديثة، من حيث العرض والتّوصيل، ويحافظ في الوقت ذاته على الهدف

الأصيل؛ وهو تزويد الطّالب بالقدر الضّروري من المعرفة التي تمكّنه من القيام بواجبه كإمام وواعظ ومرشد، وإنّي أقترح بناء على ما ذكرت النّظام الآتي:

1. يكتب المدرّس البسملة على السبورة، ويضع أسفلها التاريخ الهجري.

2. ثم يضع للدّرس عنوانا، يكتب أسفله النّص القرآني المراد تدريسه ويسجل عقبه مرجع الآية ورقمها.

3. يقرأ الآية أو الآيات الكريمة قراءة جامعة؛ وأعني بذلك صحّة التّلاوة وسلامة الأداء، وجمال الإيقاع.

4. يدعو من الطلاّب من يراه صالح للقدوة في هذا المجال للتلاوة تباعا.

5. يمهّد الأستاذ للدّرس، يذكر سبب نزول إن كان ذلك مفيدا، وكانت له قصّة أو حديث، أو أسئلة حول الموضوع السّابق المدروس إن كانت له علاقة بالدّرس الحالي، أو بحديث موجز عن موضوع الدّرس الجديد لتهيئة الأذهان له.

6. يعود إلى التلاوة مع إبراز الكلمات التي يجب شرحها، توضيحا للمعنى العام إلاّ أنّ عليه ألاّ يفصلها عن باقي الجملة، وإنّما يجب عرضها في نطاق الآية ككل مثل قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاَّتَّبَعُوكَ﴾ [التوبة: 42]، فيقول مثلا: ما العَرَضُ القريب؟ وما السّفر القاصد؟

ومثل قوله تعالى بعد ذلك: ولكن بعدت عليهم الشفة، وإنّ الإجابات التي يتلقّاها عليه أن يصحّح أخطاءها فورا.

7. ثمّ يشرع في تصنيف الآية أو الآيات إلى المحاور التي تشتمل عليها، إن كان لها أغراض متعدّدة وإذا كان لها غرض، فإنّ عليه أن يحدّد طريقة الوصول إليه؛ بتحريك الطلاّب للتأمّل في المضمون؛ بغية التّميز بين الرّئيسي والثّانوي من الفكرة الواردة في النّص.

8. عليه أن يدلّ الطلاّب على طريقة القرآن في استشارة ما لدى الإنسان من طاقات عقلية، ومن نزعات شعورية حتى يكون عمل الإنسان كلاّ متكاملا يجتمع فيه العقل والقلب معًا، وإنّ أي آية من كتاب الله نتأملها تستمدنا بعين الفيض من المدد العقلي والشّعوري جميعا.

9. إنّ الوصول إلى استخلاص النّتائج من الدّرس يجب أن يعتمد طريقتي العرض والاستجواب معا، فعلى الأستاذ أن يدلي بما لديه من معلومات في تفسير الدّرس، غير أنّه لا يتمادى في ذلك إلى الحد الذي يصبح فيه الطلاّب مجرّد مستمعين كجمهور في إحدى حلقات الوعظ؛ بل عليه عندما يفسّر مدلولا أن يختبر فورا مدى بلوغ ما قدّمه إلى إفهام طلاّبه وذلك بتقديم أسئلة والاستماع إلى أجوبة أكثر عدد ممكن من الطلاّب، وإذا تبيّن قعودا من البعض عن الإجابة، فإنّ عليه أن يحرّكهم لذلك بتوجيه الأسئلة إليهم.

10. يختم الدّرس بخلاصة تبين مجمل المعنى.

11. يعقب على الدّرس بتعريف الطلاّب بالأسلوب المعتمد في تصوير المعاني وعرضها.

12. يدعى للطلاّب إلى بقاء أسئلة على الأستاذ استيضاحا كما لم يتبين لهم من عناصر الدّرس.

13. يحدّد لهم واجب كتابي حول الدّرس (مرّتين في كل شهر).

كتب معتمدة:

-تفسير السّراج المنير للخطيب الشّربيني.

- تفسير الحافظ بن كثير.

- تفسير البيضاوي.

للمطالعة الحديثة:

- مجالس التذكير.

- تفسير المنار.

- في ظلال القرآن.

بناء على ما ذكرت فإنّي سأحاول -إن شاء الله- تقديم أسلوب ارتأيت صلاحه في هذا المجال، والله المستعان.

المراد بالتّفسير:

إنّ التّفسير يعني محاولة العقل البشري فهم النّصوص القرآنية الكريمة التي نزل بها الوحي على قلب رسول الله ﷺ وهو هنا -أي التفسير- جهد

بشري قابل للصّواب والخطأ معا؛ ولذا احتاج إلى عمليّة المراجعة والمقابلة والتّنقيح بين وقت وآخر، حتى يضمن الإنسان لنفسه أسلم فهم وأقومه وحتى ينجو من الخلل والزّلل في شرح كلام الله تعالى، وعليه فإنّ المفسّر عليه أن يقرأ مفهوم السّلف والخلف معا لكتاب الله في العديد من التّفاسير، ثم يجعل من عقله مصفاةً لما يقرأ، حتى إذا نطق بالتّفسير كان ذلك بعد تمحيص واقعنا وعن فهم سليم وذوق قويم، ومعرفة أسرار اللّغة العربيّة والحرس على أبلغ أساليبها، لا محيص عنه لمن يتصدّى لتفسير كلام الله تعالى علما بأنّ هذا الكلام معجز بلفظه المبين كما هو معجز بمعانيه الفريدة وأغراضه البعيدة.

الحديث الشّريف:

منزلة الحديث الشريف هي الثانية -بعد كتاب الله- ووظيفته تبيّن ما اشتمل عليه الكتاب من مدلولات لا تصل إليها عقول النّاس...أو تختلف فيها، وهو هنا -أي الحديث- الجهة الأمينة التي تطمئنّ إليها القلوب، وتقتنع بها العقول؛ لأنّها معصومة من الزّيغ والزّلل شرط أن يصحّ الحديث، أي أن نكتب صرورة من السيد آخر الرسل ﷺبذلك وضع علماؤنا علما قائما بذاته الصحوة مصطلح الحديث ليرجع في تقييم الحديث.

نتّبع الطريقة ذاتها التي اقترحت لتدريس القرآن الكريم.

الفقه: إنّ الفقه في دين الله هو الخير كلّه للفرد والمجتمع، وإنّما أوتي المسلمون في كلّ ما لحقهم من هزائم من هذه النّاحية، وعلينا أن نعيد للفقه الإسلامي مكانته القياديّة في توجيه الفكر نحو الغاية المثلى؛ وهي بناء أمّة

إسلامية على قواعد الإيمان والعلم القائم عليه، عملا بقوله ﷻ: ﴿**يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**﴾ [المجادلة: 11]، وبناء عليه فإنّ علينا أن نتسلّح بالعلم الديني أوّلا من مصادره الأصلية، التي هي كتاب الله تعالى وما صح عن رسول الله ﷺ وما وصل إلينا من الفهوم الصّحيحة المستنبطة من الكتاب والفقه، ثم استنتج من كلّ ذلك ما وصلت إليه العقول المعاصرة الأمينة، التي لم تشبها شائبة من التّدليس والتّلبيس والتّدنيس الذي علق ببعض العقليات المشبوهة المتأثّرة بالفكر والمنساقة، وراء التّيار الانحرافي الذي كاد يهزّ ثقة جيل الثّلاثينات في التّراث العلمي والأدبي والحضاري للثقافة الإسلامية عموما لولا أن كتب الله لهذه الثّقافة التي عصمها الله بكتابه العزيز من ورود الشّبهات والأباطيل وإعادة حقيقتها للنّاس جلية، وأرغم المنحرفين على مراجعة أخطائهم وإعلان توبتهم، والاعتراف بثبوت أنكروا من قبل، هكذا جعل الله للقرآن ولغته من يدفعون عنها إلى أن يرث الله الأرض وما عليها وهو خير الوارثين.

طريقة دراسة الفقه: على المدرّس أن يتّبع في التّدريس الطّريقة ذاتها التي اقترحت في التّفسير؛ أي طريقة الإلقاء والنّقاش معا حتى يضمن الآتي:

أولا: تزويد الطّالب بما يجب أن يعرف عن شريعة الله من حقائق، يتلقّاها من الأستاذ ويتابعها في الكتب المعتمدة لدراسة المادة.

2ـ أن يشارك في محاولة الوصول إلى تلك المعارف؛ بواسطة الحوار الذي يرافق الدّرس في جميع مراحله، والنّتائج التي يتوصّل إليها في ختام الدّرس يجب أن تحصل بمجهود يشترك لكلّ من الأستاذ وطلاّبه.

3 ـ يتابع الدّرس بعمليّات تدريبيّة، تتمثّل في تطبيقات وعروض يقوم بها الطلاّب تحت إشراف أساتذتهم تتخلّلها مناقشة وتحليلات قصد تقيمها ودعم ايجابيّاتها وطرح سلبياتها.

أمّا خطوات الدّرس في مادة الفقه فهي ذاتها الخطوات التي اقترحت في التفسير، وفي الحديث.

الكتب المعمدة:

ـ للسّنة الأولى: رسالة أبي زيد القيرواني.

ـ للسنة الثانية: أقرب المسالك.

للمطالعة:

ـ روح الدّين الإسلامي: عبد الفتاح طبارة.

ـ شبهات الإسلام: محمد قطب.

ـ منهج التربية الإسلامية:

ـ الإنسان بين المادية والإسلامي:

ـ الإسلام ومشاكل الحضارة: سيد قطب.

ـ أحاديث في الدعوة الإسلامية: محمد الأكحل شرفاء.

وفي هذا المجال وجب تعريف الطلاّب بأنّ المنهج الإسلامي يتّسم بالجديّة الفاعلة فإذا قال إليه قل: فإنّ الجملة تتضمن أيضا الأمر بالفعل لأنّ القول إنما استهدف تبيلغ مضمونه، والقول إذا لم يقترن بالفعل كان دعاة لسخط الله وغضبه ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (2) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (3)**﴾ [الصف: 2-3]

الطّريق العملي: لابد لوضع هذه المنهجية موضع التّنفيذ أن نرتّب الآيات الكريمة التي جاءت لإقامة العقيدة ترتيبا منهجيّا يتدرّج من الملموس إلى المحسوس ومن المشاهد إلى المستنبط؛ أي أن نبدأ بالنّظر إلى الإنسان وما يحيطه من عوالم الشّهادة والحسّ، ثم تندرّج بالطّالب إلى عوالم التّأمّل ذوات الأبعاد الشّاسعة والآفاق العليا وإننا إذا اعتمدنا هذا المنهج سنجد كتاب الله معنا، يأخذبأيدينا في طريق البحث السّليم إلى ما نرجو من أطيب النّتائج وأقوم الأفكار.

﴿**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (9)**﴾ [الإسراء: 9]

لهذا لزم التّخلّي عن أسلوب الخوض في الذّات الإلهية واتباع المنطق الجدلي التّقليدي في هذا العلم؛ لأنّه لا يصل بالدّارس إلى نتائج حاسمة تمكّنه من نشر العقيدة بين الناس وخصوصا الجمهور كما، أنّه لن يتمكّن

بتلك الطريقة من البحث، من اقناع المنطق المعاصر عند أهل الفكر، وأنّ أمثل طريقة لبلوغ الهدف تتمثّل في النّهج القرآني كما أسلفت؛ لأنّ هذا النّهج يعمد عرض المشاهد في الإنسان، والكون من شأن التّأمّل السّليم في المعروض القرآني منها أن يحرّك في الإنسان طاقته العقليّة والشّعور معا، وبذلك يصبح كيانه جميعا منها علاج النّهج متلائما.

علم التّوحيد: هذا العلم إذا قدّمناه لطلاّبنا بأسلوب جديد، يعتمد المنهج السّلفي، وذلك بعرض آيات الله في الكون والحياة، بلوغا إلى إثبات وحدانية الله تعالى، وإقرار الإيمان بربوبيّته وحاكمته في العمل والقلب معا، وهو ما يجب أن يسمى علم العقيدة، شمولا كلّ جوانب الرّبانية التي تناولها علم التّوحيد أو الكلام، كما عرف بين مواد الدّراسات الإسلاميّة.

واعتمدنا على النّهج القرآني في العرض والاستدلال، يقتضينا تخصيص الدّراسة لآيات العقيدة المتوفّرة في القرآن المكّي خاصة، باعتبار العقيدة في الإسلام هي المرتكز الذي بنيت عليه كلّ الجوانب الأخرى من عبادات وشرائع وأخلاقا وسلوكا، فإذا صحّت العقيدة صحّ بالتّالي كلّ ما بين عليها لذلك كانت بين أركان الإسلام هي الركن الأول: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله»، قالوا: "لا إله إلا الله، تسلموا".

إعداد الإمام والواعظ

السّادة الإخوة الأساتذة

تحية من عند الله مباركة طيبة.

يسعدني لقاؤكم عبر هذه الصّفحات للنّظر فيما يعود بالخير – إن شاء الله– على عملنا في مجال "إعداد الإمام والواعظ" الذي يعهد إليه القيام بمسؤولية كبيرة في حقل التّوجيه الدّيني، وتفقيه المسلمين في دينهم؛ الذي هو أمانة الله الملقاة على أهل الذّكر من علمائهم سلفا وخلقا، وإن تمكّننا من إنجاز هذا البناء يوجب علينا بذل جهود مركّزة ومتواصلة نعتمد فيها على أنفسنا، بعد التّوكّل على الله ﷻ، هذه المجهودات يجب أن تنصبّ أوّلا على تعميق معرفتنا الفقهيّة واللّغوية والتّربوية؛ حتى نجد مادة زاخرة نغذّي بها هذه الفئات الشّابة، التي أقبلت على المعاهد تبتغي علما وتنشد فمها لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، كما تتطلّع إلى إتقان أحسن الأساليب لتبليغ ما وعت ونقل ما علمت إلى فهوم النّاس الذين يغشون بيوت الله للتّفقه والاهتداء.

إنّ الأيام الدراسية التي انعقدت بالمدرسة الوطنية بمفتاح صائفة العام الدراسي1402هـ-1982م، قد وضعت خطوطا عريضة للمنهج الدّراسي بمعاهدنا مبدئيّا، إذا طُبِّق ودُعِّم بمجهود مشترك من قبل الإخوة الأساتذة، أعطى بحول الله ما نرجوه من ثمار طيّبة في حقل إنشاء الإطار الدّيني الذي تتلهّف إليه بلادنا وتفتقده مؤسّساتنا الإسلاميّة في مجملها.

وتدعيما للخطّة المقرّرة المشار إليها أعددت لحضراتكم هذه المذكرّة الخاصة بتفسير كتاب الله تعالى أعظم المواد الدراسية شأنا على الإطلاق.

طريقة تدريس مادة التفسير:

نتبع في تدريس هذه المادة الرّئيسيّة الخطوات الآتية:

- كتابة التّاريخ الهجري فالنّصراني على السّبورة.

- البدء بالبسملة.

- عنوان الدّرس.

- كتابة الآية المحدّد تدريسها في الحصّة، أو مجموع الآيات على السّبورة بخطّ واضح إذا لم يتيسّر للأستاذ وضع كتاب بين أيدي الطلاّب، وإعداد الدّرس مسبقا في الكتاب، أو إذا لم يتيسر له إعداد النّص مطبوعا؛ لأنّ ذلك أجدى في الدّرس وأربح للوقت (إن صّح هذا التّعبير).

- يترك للطالب بعض الوقت "10د" للمطالعة الصّامتة تحضيرا لأذهانهم.

- يستهلّ الأستاذ درسه بتلاوة سليمة للآية أو للآيات، مراعيا القراءة وحسن الأداء وجمال الإيقاع، وهي صفات لا ينبغي أن تغيب عن ترتيل القرآن.

- يدعو الأستاذ الطلاّب إلى التّلاوة مبتدئا بمن يعلم أنّه الأحسن في التّرتيل، ومثنيا بمن يليه ومن يليه، إلى أربعة فخمسة من الطّلبة، وعلى الأستاذ عند تصحيح أخطاء التّلاوة ألاّ يقاطع القارئ قبل إتمام الآية، وأحسن أسلوب في تصحيح القراءة أن يطلب من الطّالب إعادة التّلاوة مع إبراز"اللفظة" التي وقع فيها الخطأ، وإذا لم ينجح هذا الأسلوب فيستحسن أن

يعيد الأستاذ قراءتها سليمة مع إبراز " اللفظ المقصود" سليما من الخطأ وتكرار النّطق به سليما.

-يعود الأستاذ إلى التّلاوة مع الشّرح وطرق الشّرح عديدة؛ ولعلّ أهمّها تلك التي تجعل الطّالب مشاركا في التّحليل وذلك بواسطة الاستجواب، وجَعْل الشّروح في قالب أسئلة يصحّح الأستاذ أجوبتها المخطئة.

أمّا فيما يتعلّق بنقاط الارتكاز في الشّرح فإنّ المقدمة التي تنقل الطّالب إلى جوّ الموضوع لا بدّ منها، فيستهلّ الأستاذ الدّرس بكلمات موجزة عن موضوع الدّرس، قد تكون سؤالا عن درس سابق إذا كانت له علاقة بالدّرس الجديد، وإذا لم تكن، فعليه أن يسأل عن مضمون الدّرس في قالب استجواب عن موضع له علاقة مباشرة أو متصلة به.

لنفرض مثلا أن الآيات المعروضة للتّفسير هي قوله تعالى: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (60)**﴾ [الأنفال: 60]

فإنّ التّقديم لهذا يمكن أن يكون سؤالا من الأستاذ لطلابه عن قضيّة الحرب والسّلام وموقف الإسلام منهما، هل هو مع السّلام أم مع الحرب؟ وأيّ سلام وأيّ حرب وعن طريق الرّد عن السؤال ينطلق الشّرح.

تناوله الشرح:

أوّلا: الجانب اللّغوي

ونعني به شرح الكلمات الصّعبة في قالب تعبيري؛ أي في نطاق الجملة حتى يفهم الطّالب اللفظة باعتبارها جزءا من جسم النّص لا كيانا مستقلاّ بذاتـــــــــه، لنضرب مثلا بقوله تعالى: ﴿**لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (42)**﴾ [التوبة: 42]

فإنّ الشّرح هنا يجب أن يرتكز على جملة: عرضا قريبا، وسفرا قاصدا، لا على عرضا وحدها، وقاصدا وحدها، وهكذا...

ثانيا: الفكر جمع فكرة ولا أقول الأفكار.

ففي هذا المجال يجب تقسيم النّص إلى وحدات حسب الأغراض الواردة فيه؛ وذلك بعد استنباط الفكرة العامّة التي تأتي نتيجة للنّقاش حول المقدّمة، ولكن هنا في مرحلة التّفسير للفكر توضَّح وتحدَّد كما وردت في النّص المعروض.

على الأستاذ بعد تحديد المحاور الأساسيّة للنّص، أو الفكرة الواردة فيه أن يستعمل طريقة الاستجواب، وأن يحاول تنشيط الخاملين وتشجيع النّاشطين والأخذ بيد من لهم مستوى وسط للّحاق بالأوائل؛ وذلك بتوزيع الأسئلة بشكل تربوي يعتمد فيه على خبرته وتجربته ومعرفته لمستويات طلاّبه، وعليه أن يتجنّب الاعتماد الكلّي على السّابقين وإهمال المتثاقلين؛ بغية مرور درسه دون اجتهاد؛ لأنّ ذلك مضرّ بجميعهم فيتكاسل المجتهد ظنّا منه أنّه ناجح لا محالة، فيأخذ محصوله في التّناقض حتى يفقد رصيده أخيرا، ويزداد الخامل خمولا ولا يجد حافزا جاهزا يدفعه إلى تحسين وضعه وتسير العملية سيرا متعثرا، ينتهي إلى نتائج سلبيّة لا تُسمنُ ولا تغني من جوع.

وبانتهاء يتناول محاور الدّرس بالشّرح نصل إلى مرحلة الاختبار؛ أي الأسئلة الإخباريّة حول الدرس، وهنا على الأستاذ أن يعدّد الأسئلة التي يلقيها عقب الدّرس بشكل تربوي ليعرف مدى استفادة الطلّاب منه وعليه أن يصحّح وينقّح، ثم تأتي مرحلة استجواب الطلاّب للأستاذ فيما يبدو لهم من مسائل تستحقّ التّوضيح أو من شرح لا يقتنعون به، ويمكن أن تعتبر هذه المرحلة في الدّرس مرحلة التّقويم والتّصحيح وأخير تأتي "الخلاصة" وهي تعني استخلاص كلّ ما تمّ عرضه أثناء الدّرس في سطور.

وكذلك على الأستاذ أن يحدّد مع طلاّبه الهدف العام المستفاد من موضوع الدّرس.

وختاما تعرض قضية الأسلوب، ولا بدّ من الاهتمام بهذا الجانب عند تناول كتاب الله تعالى؛ لأنّ المعلوم الأكيد أنّ القرآن الكريم معجز في لفظه وفي معناه، ولا يُعقل أن تمرّ أيّة دراسة له دون إبراز هذا الجانب المُشرق فيه، لا بدّ من تبيان ما في الآيات من صور بيانية تثبت أن هذا الكلام ليس من وضع بشر؛ لأنّنا عند تأمّل ذلك التّركيب العجيب، وذلك النّسق البديع، نقتنع عقليّا ونطمئنّ قلبيّا أنّه تنزيل من رب العالمين "لا يأتيه الباطن من بين يده ولا من خلفه".

أيّها الإخوة الأساتذة:

إذا اتبغ أن يخرج لنا إماما، وإنّي أدرك معكم ثقل الجهد الذي تبذلون، ولكنّه الجهد المبارك الذي يؤتيكم الله أجره مضاعفا إذا أدّيتموه على أفضل الطّرق وأحسن الأساليب؛ خدمة للدّين ولغته وإعزازا للحقّ وأهله وإسهاما في بناء المجتمع الذي أمرنا الله جميعا بالمشاركة في تأسيسه عندما قال:

﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (104)﴾ [آل عمران: 104]

ولعلم حضراتكم، أنبئكم بأنّ الكتاب القيّم الذي أصدرته وزارة الشؤون الدينية بمبادرة وجهد وزيرنا الأستاذ **عبد الرحمن شيبان**؛ وأعني به "مجالس التّذكير" الذي يحتوي على دروس التّفسير التي كان أستاذنا الإمام **عبد الحميد بن باديس** -رحمه الله-، يستهلّ بها كل أعداد مجلة الشهاب، بهذا العنوان: "مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، وحديث البشير النّذير، وذكر فإنّ الذكرى تنفع المؤمنين" هذا الكتاب تقرّر اعتماده للتّدريس في معاهد التّكوين، وقد ألّفت لجنة لترتيب أبوابه حسب محاورها الأساسيّة تباعا في مجالات: العقائد والعبادات والدعوة والتشريع والجهاد وللآيات العلمية، وقد عكفت اللّجنة بالمدرسة الوطنية بمفتاح طيلة عشرة أيّام في مفتتح العام الدراسي الحالي، وذلك برئاسة المفتش العام الرّئيسي للتّكوين، وعضويّة لجنة من أساتذة المدرسة لوضع ترتيب تربوي لدراسة الكتاب، وقدّمت نتائج أعمالها للجنة مركزيّة بالوزارة تشكّلت بأمر من السيد الوزير، وصادقت اللّجنة على الخطة بإجماع أعضائها.

أيّها الإخوة الأساتذة:

إنّ لي كلّ أمل في إيمانكم الصّادق وجهودكم المشكورة لدفع عجلة التّربية والتّعليم في معاهد التّكوين الإسلامي إلى الأمام في صراط مستقيم؛ بغية إعداد جيل من الأئمّة الصّالحين والدّعاة الملتزمين الذين تطمح إليهم جماهيرنا المسلمة المتعطّشة للفقه في الدّين والاهتداء إلى السّبل الموصلة إلى سعادة الدّارين، والله يقول الحقّ وهو يهدي السّبيل.

الخصائص التربوية في المنهج الإسلامي[1]

أيها الإخوة في دين الله.

تحية مباركة طيبة من عند الله

يجمعني وإيّاكم في هذه الحصّة حديث عن خصائص المجتمع الإسلامي المنشود الذي هو أمل كلّ مسلم صادق الإسلام أينما وجد... ثم إنّه الواجب الأكيد الذي لا يعفي الله منه أحدا؛ أن نفكّر جميعا ونجنّد كلّ ما رزقنا الله من طاقة لبناء هذا المجتمع، الذي هو في جوهره أمل الإنسانية الذي ظلت تحلم ببعثه من جديد منذ عرفته في صفته المشرقة، وفي سيرته المطهّرة قبل أربعة عشر قرنا من تاريخ البشريّة، وإنّ علاج كلّ الأدواء التي تشكو منها البشريّة إنما هو في المنهج الذي قام عليه ذلك المجتمع بقيادة رسول ﷺ وقد قال ربنا ﷻ: ﴿**وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (82)**﴾ [الإسراء: 82]، وعزّة المسلمين واستعادة مكانتهم التّاريخية متوقّفتان على إقامة الإسلام عقائد وشعائر وشرائع وأخلاق، ذلك ما أثبته التّاريخ وصدّقه الواقع وأكّدته الأحداث المتلاحقة عبر العصور والأجيال، وكلّ ذلك يفسّر عمليا قول عمر ﷺ: "نحن قوم أعزّنا الله بالإسلام فإذا طلبنا العز بغيره أذلنا الله"، وما قرّره الإمام مالك بن أنس – رحمه الله– عندما قال: "لا يصلح آخر هذه الأمة إلاّ بما صلح به أولها"، فما هي خصائص هذا المجتمع الذي أمرنا الله ﷻ بتكوينه عندما قال: ﴿**وَلْتَكُنْ**

(1) حديث تلفزيوني.

مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (104)﴾ [آل عمران: 104]

أوّل خصائصه: الربانية.

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (79)﴾ [آل عمران: 79].

وهي تعني الإيمان بالله ربّا للخلق، إليه يرجع الأمر كلّه ومنه يستمدّ المسلم نظام حياته، فلا يقول ولا يفعل إلاّ ما يحبّه ويرضاه، وبما أنّ سنّة الله اقتضت أن يتّصل بعباده بواسطة نبي مرسل يحمله الرّسالة مبشّرا ومنذرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، فإنّ اتّصال الإنسان بربّه والتزامه بمنهجه يقتضي الأخذ من مصدر واحد وهو النّبوّة؛ أي يتّخذ الرّسول ﷺ مثاله وقدوته في كلّ أطوار حياته إلى أن يلقى ربّه، فالرسول ﷺ كانت مهمّته قائمة على:

1- البلاغ، حيث أنّه بلغ الرّسالة، أدّى الأمانة ونصح الأمّة.

2- القدوة، حيث أعطى التّفسير العملي لكلّ ما جاء في الرّسالة من شعائر تعبّدية وشرائع تعامليّة وآداب سلوكية، ومن ثمة أمرنا الله سبحانه أن نتّخذه مثالا نترسم خطاه فقال ﷻ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (21)﴾ [الأحزاب: 21]

وبما أنّ رسول الله ﷺ عاش وذهب بعد استفاء أجله كما يعيش ويموت كلّ إنسان، فإنّ دعوته التي وُجِّهت إلى الإنسانية كلّها في كلّ أجيالها وأزمانها مستمرة؛ لأنّها كلمة الله الأخيرة إلى النّاس باعتبارها خاتمة الرّســـــالات الإلهية واستمرارها، إنّما يكون عندما يتحمّل كلّ جيل مسلم مسؤوليّة الالتزام بها، ونشرها بكلّ وسائل النّشر وتسخير كلّ الطاقات بشرية كانت أو مادية أو معنوية؛ لمدّها على أقطار الأرض، ولن تتم هذه المسؤولية الملقاة على عاتق كلّ مسلم إلاّ عندما "لا تكون في الأرض فتنة ويكون الدين كله لله".

إنّ رسول الله ﷺ قد حمّلنا جميعا هذه المسؤوليّة عندما كان يتوقّف أثناء خطابه الوداعي مرارا موجّه إلى الحاضرين وإلى الأجيال هذا النّداء: "فليبلّغ الحاضر منكم الغائب".

كيف نكون ربّانيين متمسّكين بمنهج الله في عصر كعصرنا، وفي ظروف يعيشها المسلمون حاليا إن تصوّري هو الآتي:

إنّ الإسلام قد وضع للحياة البشرية أصولا وقواعد أوجب إقامة كلّ بناء عليها، إذا أراد لهذا البناء صحّة وثباتا وصمودا في وجه الهزّات، وترك العقل البشري المستنير أن يكشف الحقائق ويغوص في مجالات الأمل والاستنباط، طموحا إلى بلوغ الآفاق البعيدة واهتداء إلى الحق، الذي جاء الإسلام لإثباته، والتزام المسلمين بالسّير على هذا الخطّ المستقيم ينتهي بهم حتما إلى المنزلة التي أعدّهم الله لها، وهي الرّيادة والقيادة.

أولا: باعتبار "شهداء على الناس".

ثانيا: لكونهم: "خير أمة أخرجت للّناس".

وقد أعدهم رسول ﷺ لذلك خير إعدادا، فعندما أرسل معاذ بن جبل ﷺ عنه إلى اليمن، جرى بينهما الحوار الآتي:

قال رسول الله: «يا معاذ بم تقضي بين النّاس؟ قال معاذ: بكتاب الله، قال الرّسول: فإن لم تجد؟. قال معاذ: فبسنّة رسول الله. قال الرّسول: فإن لم تجد؟ قال أعمل رأيي، قال الرّسول: الحمد الله الذي وفق رسول الله لما يحبّه الله ورسوله»[1].

هي خطوط واضحة مستقرّة، كلّ شيء يجب أن يؤخذ من الكتاب والسنّة منطوقـــــا ومفهوما، وحتى بالسنّة للاجتهاد وإعمال الرّأي فإنّه لا يصحّ أبدا أن يتعارض مع الكتاب والسنّة، فعندما تتصارع النّظريات وتتعارض الأدّلة فإن السّفينة لكي ينجو راكبوها من الغرق يجب أن تشدّ حبالها بإحكام إلى المرفأ الآمن، وهو آيات كتاب الله وأحاديث النّبوّة، من هذا المنطلق تحرّكت المسيرة من أيام رسول الله ﷺ وما توقّفت إلاّ عندما انحرف الخلف عن خطّ السّلف، وقد قال ﷻ: ﴿**فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (137) صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (138)**﴾ [البقرة: 137-138].

(1) أخرجه أبو داود في السنن، وأحمد في المسند، والدارمي في السنن بألفاظ متقاربة، ولفظه عند أبي داود: « كيف تقضي إذا عرض لك قضاء ؟ " ، قال : أقضي بكتاب الله ، قال : " فإن لم تجد في كتاب الله ؟ " ، قال : فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : " فإن لم تجد في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا في كتاب الله ؟ " قال : أجتهد رأيي ، ولا آلو فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدره ، وقال : " الحمد لله الذي وفق رسول ، رسول الله لما يرضي رسول الله».

ولئن كان النّص يعني أولئك الذين رفضوا دعوة الإسلام وأعرضوا عنها، فإنّ مدلول النّص شامل لكلّ من تخلّى عن الخطّ المستقيم، وأعرض عنه واختار لونا آخر غير الصّبغة الإسلامية التي ارتضاها الله للنّاس، الصبغة التي لا تزول ولا تحول؛ لأنّها صبغة الله التي لا صبغة أحسن منها ولا يرتضي لعباده غيرها.

إنّ العودة إلى الكتاب والسنّة والالتزام بهما؛ يعني الارتباط بالأسس السّليمة والاهتداء بالنّهج السّوي الذي يسلم من يسير عليه، ويغنم من يلتزم به ويهتدي من يسلكه، والالتزام بالقرآن والحديث يعني الاتصال المستمرّ بالله، وعندئذ يكون الإيمان مبصرا والاعتقاد سليما واليقين بناء، فالإيمان بالله يوضّح لنا الأمور، ويمدّنا بالطّاقة التي لا تنفذ والأمل الذي لا يخبو، والعزم الذي لا يتقهقر والتّمسّك بالنّهج الرّباني نسير أمنا منالطّريق ﴿**مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (11)**﴾ [التغابن: 11].

إنّ كل الانتصارات التي تمّت للجيل الأوّل من أمّة الإسلام، ما كانت لتصحّ لو وضعت على أيّ مقياس من تلك التي تعوّد النّاس أن يحللوا بها عوامل النصـــــــر وأسباب الهزيمة، إن الله ﷻ قال لرسوله ﷺ: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (65) الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (66)**﴾ [الأنفال: 65-66].

لم يفعل رسول الله والمؤمنون إلاّ ما أمرهم الله به، فلم يعتمدوا على أيّ جهة تمدّهم بالعون من أيّ نوع ولم يساعدهم أحد بمال أو رجال، ولو تمدهم أيّة دولة بعُدة وسلاح ومن يفعل معهم ذلك؟ إنّ العالم حولهم كلّه جاهلي فهم وحدهم كانوا يواجهون الجاهليّات العربيّة والرّومانية والفارسية، إلاّ أنّ التزامهم بنهج الله مكّنهم من النّصر من النصر وإنزال الهزيمة بالجاهليات مجتمعة في أقلّ من ربع قرن، إلاّ أنّ **هارون الرشيد** الخليفة العباسي رأى يوما سحابة حسبها عارضا ممطرا ببغداد، فلّما سمع رعدا مبشّرا بغيث بعيد، رفع بصره نحو السماء وهو يقول: "أمطري حيث شئت فسيأتيني خراجك" هناك عدة أسئلة تلح علينا حول ما حدث.

ما الذي جعل جيش الفتح الإسلامي تسقط أمامه الحواجز، كلّ الحواجز وتُدكّ الحصون والقلاع، وتتهاوى عروش الطّاغوت في كلّ مكان؟ أهو الإعداد المادي والحشد العسكري؟ أم التّفوّق العددي والخبرة الحربية والعراقة؟ أيصدّق المنطق العادي أنّ أولئك الأميّين الذين خرجوا من جزيرتهم المعزولة عن العالم في واد غير ذي زرع، وفي بلد فقير لم يستطع أهله مواجهة أفيال أبرهة، فلجؤوا إلى الجبال ينتظرون حدوث معجزة لمنع الطّاغية من هدم البيت العتيق، هؤلاء الأميّون قد تحوّلوا في ظرف جدّ قصير إلى جيش لا يقهر، كلّ جنوده يطلبون الموت كما يطلب غيرهم الحياة؟ جنود وُصفوا بأنّهم رهبان باللّيل وفرسان بالنهار، هزموا كسرى وحولوا بلده إلى جزء من دولة الإسلام، وقهروا جيش الرّوم في كلّ ساحة لقاء... ثم صاروا هكذا شُعلا مضيئة تسطع بالنّور الهادي إلى الحق، وإلى نار تحـــــــــرق الظّالمين وتطهّر الأرض من رجس الآثمين؟ استطاعوا ذلك لأنّهم غيّروا ما بأنفسهم فغير الله ما بهم؛ ولأنهّم جاهدوا في الله فهداهم إلى سبيل النجاح؛

مصداقا لقوله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (69)﴾ [العنكبوت: 69].

إنّ هذا الخط المستقيم يمكن أن يملكه الناس متى آمنوا وعملوا الصّالحات، وعند ذلك يجيء نصر الله والفتح، هذا وعد اللهولن يخلف الله وعده.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (55)﴾ [النور: 55].

وقد جرّبت شعوب الوطن الإسلامي فاعليّه الإسلام حين تعزّ به، ومثل الجزائر في ثورتها العارمة ليس ببعيد، إنّها عندما رفعت لواء الجهاد، والجهاد الإسلامي شكلا ومضمونا ووصلت به حقيقته الأبديّة التي لا تصحّ بدونها وهي في سبيل الله، ثم اندلعت هادرة تهتف: "الله أكبر" استجاب الله لها ومنحها النّصر ودحر جيوش البغي وأجلاهم عن البلاد، وأراح من شرّهم العباد، فما أشبه اللّيلة بالبارحة.

لنقرأ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (6) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (7) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (8) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (9) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (10) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (11) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (12) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (13) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (14)﴾ [الفجر: 6-13].

ذلك لأنّ سنّة الله هي أنّ من أجاب داعي الله كان الله معه نصرا وتوفيقا وهداية إلى سبل النجاح والفوز، تلك سنة الله في الأولين وسنته في الآخرين، ولن تجد لسنّة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

المصـالح المرسلـة[1]

إنّنا إذا نظرنا نظرة استقرائية إلى موارد الشّريعة الإسلامية الدّالة على مقاصدها من التّشريع، استبان لنا من كلّيات الدّلائل ومن الجزئيّات المستقرأة أنّ المقصد العام من التّشريع فيها هو حفظ نظام الأمّة واستدامة صلاحه بصلاح القائم عليه: وهو الإنسان، ويشمل صلاحه صلاح عقله، وصلاح عمله، وصلاح ما بين يديه من موجودات العالم الذي يعيش فيه.

وهذه نصوص من كتاب الله تثبت ذلك، قال الله تعالى حكاية عن رسوله شعيب عليه السلام وتنويها به: ﴿**قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (88)**﴾ [هود: 88].

من هنا نعلم أنّ إبلاغ الرّسالة يقتضي إرادة الإصلاح من الرّسول ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

وقال تعالى: ﴿**وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (142)**﴾ [الأعراف: 142].

(1) محاضرة ألقيت بأبي ظبي في 05 أفريل 1986م بمناسبة انعقاد المؤتمر الرّابع حول الفقه المالكي.

وقال: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4)﴾ [القصص: 4].

ومن هنا نعلم أنّ الصّفات التي ذمّ بها فرعون ودُمغ، كلّها من الفساد وأن ذلك مذموم ومرفوض، وأنّ بعثة موسى عليه السلام إنّما كانت لإنقاذ بني إسرائيل من فساد فرعون.

وإنّ المراد من الفساد هنا إنّما هو فساد العمل، والتعامل في الأرض، وقال حكاية عن شريعة شعيب في أهل مدين: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (85)﴾ [الأعراف: 85].

وقال في آية أخرى تخص قوم شعيب: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (85)﴾ [هود: 85]، وقال تعالى مخاطبا هذه الأمة: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (56)﴾ [الأعراف: 56].

وقال: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (205)﴾ [البقرة: 205]، وقال: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (22)﴾ [محمد: 22].

هذه براهين قاطعة من كتاب الله ﷻتدلّ على أنّ مقاصد الشّريعة هي الإصلاح وإزالة الفساد وذلك في تصاريف أعمال الناس.

أمّا المصلحة فهي كاسمها، وقد عرّفها الباحثون المحقّقون بأنها وصف للفعل الذي يحصل به الصلاح أي النفع منه دائما أو غالبا.

فعندما نقول "دائما" فإنّنا نشير إلى المصلحة الخاصة والمطردة، وعندما نقول "غالبا " فإنما نشير الى المصلحة الرّاجحة في غالب الأحوال.

وقد عرف عضد الدين الإيجي في شرحه لمختصر **ابن الحاجب** المصلحة بأنّها: "اللّذة ووسيلتها"، وعرّفها في كتابه المواقف بأنّها: "ملائمة الطّبع".

وعرّفها الشّاطبي في مواضع من كتابه التّعريف بما يتحصل منه بعد تهذيبه:

"بأنها ما يؤثر صلاحا أو منفعة للنّاس، عمومية أو خصوصية وملائمة قارة في النّفوس في قيام الحياة كما أنّ المصلحة قسمان:

مصلحة عامة وهي ما فيه صلاح عموم الأمة أو الجمهور، ولا التفات منه إلى أحوال الأفراد إلاّ من حيث أنّهم جزء من مجموع الأمّة.

ومصلحة خاصة وهي ما فيه نفع الآحاد باعتبار صدور الأفعال من آحادهم ليحصل بإصلاحهم صلاح المجتمع المركب منهم".

وللشّيخ محمد الطاهر بن عاشور في كتابه "مقاصد الشريعة" بحث قيم في الموضوع[1]

مفهوم المصالح المرسلة:

إنّ القول "بالمصالح المرسلة" يعتمد على أنّ الشّارع يدور في تشريعه على حفظ أمور خمسة وهي: الدّين، النّفس، والعقل، والنّسل، والمال، ولو استقرينا أوامر الشّرع ونواهيه لوجدناها لا تتعدّي هذه الأمور، ولو دقّقنا في معرفة ما حلّله الشّرع أو حرّمه لوجدنا علته كذلك، فإذا عرضت مسألة من المسائل لم يرد فيها نص، نظرنا فيما يترتّب على الأمر من المصالح والمضار، وقدّرنا ذلك كلّه، وأصدرنا حكمنا بحلّه أو بحرمته، وبهذه الرّؤية يتبيّن أنّ القائلين بالاستصلاح أو المصالح المرسلة، يعنون وزن ما يعرض من المسائل بميزان المصلحة العامّة، أو بأغراض الشارع العامة، أو بالقواعد الأساسية التي جاءت الشّريعة من أجل إرسائها، وهو ضرب من الرّأي أو مراعاة العدالة يدعو إلى نوع من الحرية في التشريع[2]

وفي هذا يقول الشّاطبي في الاعتصام: "إنّ القول بالمصالح المرسلة ليس متّفقا عليه، بل قد اختلف فيه أهل الأصول على أربعة أقوال: فذهب القاضي وطائفة من الأصوليين إلى ردّه، وأنّ المعنى لا يعتبر ما لم يستند إلى أصل صحيح، لكن بشرط قربه من معاني الأصول الثّابتة هذا ما حكى الإمام الجويني.

(1) الطاهر محمد بن عاشور، مقاصد الشريعة، ص 63.

(2) ضحى الاسلام، أحمد أمين، ص 156/ الغزالي، المستصفى، ج 1، ص 274.

وذهب الإمام الغزالي إلى أنّ المناسب إن وقع في رتبة التّحسين والتّزيين لا يعتبر حتى يشهد له أصل معيّن، وإن وقع في رتبة الضّروري فميله إلى قبوله لكن بشرط، قال: ولا يبعد أن يؤدى إليه اجتهاد مجتهد"[1]

هذا وقد انقسمت أقوال الفقهاء في القول بحجية المصالح المرسلة أو عدمها إلى اتّجاهات أربعة:

1- يرى الشّافعية ومن سار في خطّهم أن لا يؤخذ بالمصالح المرسلة التي لا يقوم لها شاهد من الشّارع معتبر؛ ذلك لأنّهم لا يعتمدون إلاّ على النّصوص والحمل عليها بالقياس، الذي يكون أساسه وجود ضابط ما بين الأصل والفرع؛ أي ما بين المنصوص عليه والملحق به، وقد ذهب إمام الحرمين إلى أنّ الشّافعي يأخذ أحيانا بالمصالح المرسلة شريطة أن تكون تلك المصالح شبيهة بالمصالح المعتبرة، كما أكّد السبكي هذا القول[2].

2- أمّا الحنفيّة ومن انتهج خطّهم ممّن يعتمدون الاستحسان مع القياس، فإنّهم مهما كان تركيزهم على الاستحسان فإنّه لا يخلو من اعتماد على المصالح المرسلة، علما بأنّهم -أي الأحناف- اعتمدوا أكثر من الشّافعية على المصالح، في استنباطهم فقد ذكر الشاطبي -كما سبق آنفا-رواية عن الإمام الجويني أنّ الشافعي ومعظم الحنفية ذهبوا إلى التّمسك بالمعنى الذي لم يستند إلى أصل صحيح، ولكن بشرط قربه من معاني الأصول الثّابتة.

(1) الشاطبي، الاعتصام، ج2، ص 112.

(2) التحرير وشرحه، ج3، ص 150.

3- وفريق مغال في الأخذ بالمصالح المرسلة إلى درجة أنّهم قدّموا المصلحة على النّص في معاملات النّاس واعتبروها مخصّصة له، كما اعتبروها مخصّصة للإجماع، وذهب هؤلاء إلى أنّ العلماء إذا اجمعوا على رأي بنصّ إن وجد مخالفا للمصلحة في بعض وجوهه قدّم اعتبار المصلحة واعتبر ذلك تخصيصا؛ لأنّ شرع الله قصدت فيه المصلحة ونصوصه وسائل مرشدة إليها، فإن تحقّقت هي من غير طريق هذه الوسائل، قدّم اعتبارها وإن ناقضتها؛ لأنّ المقاصد مقدّمة على الوسائل، وزعيم هذا الرأي هو الطوفي وهو فقيه حنبلي توفي سنة 716هـ[1].

وقد تبيّن رأيه في ذلك عندما أخذ يشرح حديث "لا ضرر ولا ضرار" فقال ممّا قال: "أعلم أنّ هذه الطّريقة التي قرّرناها مستفيدين لها من الحديث المذكور ليست هي القول بالمصالح المرسلة على ما ذهب إليه مالك، بل هي أبلغ من ذلك وهي التّعويل على النّصوص والاجتماع في العبادات، والمقدرات، وعلى اعتبار المصلحة في المعاملات وباقي الأحكام....

وإنّما اعتبرنا المصلحة في المعاملات دون العبادات وشبهها؛ لأنّ العبادات حقّ للشّارع خاص به، ولا يمكن معرفة حقّ كما وكيفا وزمانا ومكانا إلاّ من جهته، فيأتي به العبد على ما رسم له؛ ولأنّ غلام أحدنا لا يعدّ مطيعا خادما إلاّ إذا امتثل ما رسم له سيده، وفعل ما يعلم أنّه يرضيه فكذلك ها هنا؛ ولهذا لما تقيّدت الفلاسفة بعقولهم، ورفضوا الشّرائع اسخطوا الله ﷻ وضلّوا وأضلوا، وهذا بخلاف حقوق المكلّفين فإنّ أحكامهم

(1) رسالة الطّوفي في الموضوع، مجلة المنار، المجلد التّاسع.

سياسيّة شرعية، وضعت لمصالحهم وكانت هي المعتبرة وعلى تحصيصها المعول ثم أردف يقول:

"ولا يقال أنّ الشرع أعلم بمصالحهم، فلنأخذ من أدلّته؛ لأنّنا نقول: قد قرّرنا أنّ المصلحة من أدلّة الشّرع وهي أقواها، وأخصّها، فلنقدّمها في تحصيل المصالح، ثم إنّ هذا إنّما يقال في العبادات التي تخفي مصالحها عن مجارى العقول والعادات، أمّا مصلحة سياسة المكلفين في حقوقهم فهي معلومة لهم بحكم العادة والعقل، فإذا رأينا الشّرع متقاعدا –كذا–عن إفادتها علمنا أنّه أحلنا في تحصيلها على رعايتها"[1].

واسمحوا لي أن أسجّل تحفّظي على قول (**الطّوفي**) بتفضيل المصلحة على النّص في مجال المعاملات مطلقا، فإنّ ذلك لا يمكن أن يقبل من مسلم يعلم يقينا أنّ النص الإلهي قطعي الدّلالة ﴿**لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (42)**﴾ [فصلت: 42].

فلا يجوز إطلاقا أن يقّدم عليه رأى بشري، وملاحظة أخرى هي استعماله لعبارة: فإذا رأينا الشّرع متقاعدا، فالمتقاعد هو الذي انتهى إلى العجز المستلزم للقعود مسلّما مهمّته إلى الآخرين، وهذا لا يمكن أن يرد في حق شرع الله.

4-القسم المعتدل بين الفئات المذكورة يتقدّمهم الإمام **مالك** ﷺ عنه وأكثر المالكية، وقد اعتبروا المصالح المرسلة في غير موارد النّص المقطوع به، فقد أخذ المالكية بالمصلحة في المعاملات، واعتبروها أصلا شرعيّا مستقلاّ من

(1) تفسير المنار، الجزء السابع، ص 194.

غير استناد إلى ما عداه من الأدلّة الأخرى، فحيثما وجدت المصلحة أخذ بها، سواء شهد لها شاهد خاص من الشّرع بالاعتبار أم لم يكن لها شاهد بالاعتبار أو الإلغاء، وحتى إذا عارضت المصلحة نصوص ظنية قام التّعارض بينهما، وقد يرجح الأخذ بها ويخصّص النص أو يضعف سنده إن كان عاما، على أنّه إذا لم يكن هناك نصّ معارض أخذ بها".

هذا وللمالكية اجتهاد في محاولة فهم معاني المصلحة ومدلولاتها، وتابعوا البحث في ذلك بتوسع مع مراعاة مقاصد التّشريع وفي دائرة الاحتفاظ بمبدأ عدم التّناقض مع الأصول التّشريعية للإسلام، والمالكية في ذلك متبعون لا مبتدعون[1].

قيود مشترطة للعمل بالمصالح المرسلة:

إنّ الذين قالوا بالمصالح المرسلة لم يتركوا الأمر دون شروط مقيّدة لهذا العمل؛ وإنّما اشترطوا لذلك قيودا إذا نقص واحد منها بطل العمل بالمصالح المرسلة وهي كالآتي:

1- أن لا يكون للمصلحة المعمول بها دليل شرعي بحكم إلغائها.

2- أن يتحقّق وجود المصلحة في العمل بها، أما إذا كان من الأمور المتوهّمة فقط فلا يجوز الأخذ بها.

(1) مالك بأبي زهرة، ص 334-335.

3- أن تكون المصلحة عامة، أمّا اذا كانت مما ينتفع به شخص بعينه فقط فلا تعتبر ولا يصح العمل بها.

4- أن تكون مما تقبله القويمة، أما ما يرفضه المنطق السّليم فلا يمكن اعتباره مصلحة يعمل بها.

واتّبعوا ذلك شرط أن يكون في العمل بها رفع حرج، فلو لم يؤخذ بالمصلحة في موضعها لوقع الناس في حرج في حين يقول الله تعالى: ﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾ [الحج: 78]"[1]

الرد على القائلين بأن المصالح المرسلة من قبيل البدع:

وللإمام الشّاطبي في "الاعتصام" بحث موفّق ناقش فيه قضيّة المصالح المرسلة مبيّنا حجيّتها بأدلّة قوية يحسن أن نذكر بها، فنفى أوّلا أن تكون المصالح المرسلة من قبيل البدع المنهي عنها شرعا، وردّ حجة القائلين بأنّ المصالح المرسلة يرجع معناها إلى اعتبار المناسب الذي لا يشهد له أصل معين، فليس له على هذا شاهد شرعي على الخصوص ولا كونه قياسا بحيث إذا عرض على العقول تلقته بالقبول، وهذا بعينه موجود في البدع المستحسنة، فإنّها راجعة إلى أمور في الدّين مصلحيّة –وفي زعم واضعيها– في الشّرع على الخصوص، وإذا ثبت هذا فإن كان اعتبار المصالح المرسلة حقّا، لم يصح اعتبار المصالح المرسلة كذلك، وأيضا فإنّ القول بالمصالح المرسلة ليس متّفقا عليه؛ بل قد اختلف فيه أهل الأصول على أربعة أقوال:

(1) الاعتصام، ج2، ص 307 وما بعدها.

فذهب القاضي وطائفة من الأصوليّين إلى ردّه، وأنّ المعنى لا يعتبر ما لم يستند الى أصل، وذهب مالك إلى اعتبار ذلك وبنى الأحكام عليه على الإطلاق، وذهب الشّافعي ومعظم الحنفية إلى التمسّك بالمعنى الذي لم يستند إلى أصل صحيح، لكن بشرط قربه من معاني الأصول الثّابتة، هذا ما حكى الإمام الجويني.

وذهب الغزالي إلى أنّ المناسب إن وقع في رتبة التّحسين والتّزيين لم يعتبر حتى يشهد له أصل معين، وإن وقع في رتبة الضّروري فميله إلى قبوله لكن بشرط، قال: ولا يبعد أن يؤدّي إليه اجتهاد مجتهد، واختلاف قوله في الرّتبة المتوسّطة؛ وهي رتبة الحاجي، فرده في المستصفى وهو أحد قوليه، وقبله في شفاء الغليل كما قبل ما قبله، وإذا اعتبر من الغزالي اختلاف قوله فالأقوال خمسة، فإذا الرّاد لاعتبارها لا يبقى له في الوقائع الصّحابية مستند إلاّ أنّها بدعة مستحسنة كما قال عمر بن الخطاب ﷺ عنه في الاجتماع لقيام رمضان: "نعمت البدعة هذه " –إذ لا يمكنهم ردّها؛ لإجماعهم عليها".

وكذلك القول في الاستحسان فإنّه على ما ذهب إليه المتقدمون راجع إلى الحكم بغير دليل، والنّافي له لا يعدّ الاستحسان سببا فلا يعتبر في الأحكام البتّة، فصار كالمصالح المرسلة إذا قيل بردّها، ثم أردف يقول: " فلمّا كان هذا الموضع مزلة قدم لأهل البدع أن يستدلّوا على بدعتهم من جهته، كان الحق المتعيّن النّظر في مناط الغلط الواقع لهؤلاء، حتى يتبيّن أنّ المصالح المرسلة ليست من البدع في ورد ولا صدر بحول الله، والله الموفق".

ثم أخذ الإمام الشّاطبي يحتجّ للمصالح المرسلة بأنّها ليست من البدعة في شيء؛ فذكر أنّ المعنى المناسب الذي يربط به الحكم لا يخلو من ثلاثة أقسام:

أحدهـــا: أن يشهد الشرع بقبوله، فلا إشكال في صحّته، ولا خلاف في إعماله، وإلاّ كان مناقضا للشّريعة، كشريعة القصاص حفظا للنّفوس والأطراف، وغيرها.

والثاني: ما شهد الشّرع بردّه، فلا سبيل إلى قبوله؛ إذ المناسبة لا تقتضي الحكم لنفسها وإنما ذلك مذهب أهل التّحسين العقلي، بل إذا ظهر المعنى وفهمنا من الشّرع اعتباره في اقتضاء الأحكام فحينئذ تقبله، فإنّ المراد بالمصلحة عندنا ما فهم رعايته في حق الخلق، من جلب المصالح ودرء المفاسد على وجه لا يستقل العقل بدركه على حال، فإذا لم يشهد الشّرع باعتبار ذلك المعنى بل يرده كان مردودا باتّفاق المسلمين.

ومثاله: ما حكى الغزالي عن بعض أكابر العلماء، أنّه دخل على بعض السّلاطين فسأله عن الوقاع في رمضان فقال: "عليك صيام شهرين متتابعين"، فلمّا خرج راجعه بعض الفقهاء وقالوا له: القادر على إعتاق الرّقبة كيف يعدل به الصّوم، والّصوم وظيفة المعسرين، وهذا الملك يملك عبيدا غير محصورين؟ فقال لهم: لو قلت له: عليك إعتاق رقبة لا يستحقّ ذلك، وأعتق عبيدا مرارا فلا يزجره إعتاق رقبة، ويزجره صوم شهرين متتابعين[1].

(1) الاعتصام، ص 113.

فخذا المعنى مناسب؛ لأنّ الكفارة قصد بها الزّجر، والملك لا يزجره الإعتاق ويزجره الصيام، وهذه الفتيا باطلة لأن العلماء بين قائلين:

قائل بالتّخيير، وقائل بالتّرتيب، فيقدّم العتق على الصّيام؛ فتقديم الصّيام بالنسبة للعتق لا قائل به. على أنّه قد جاء عن مالك شيء يشبه هذا لكنّه على صريح الفقه.

قال **يحيى بن بكير**: حنث **الرّشيد** في يمين فجمع العلماء فأجمعوا أن عليه عتق رقبة، فسأل مالكا فقال: صيام ثلاثة أيام، وأتبعه على ذلك **إسحاق بن ابراهيم** من فقهاء قرطبة.

هذا وقد أورد وقائع أخرى مماثلة لما ذكر عن الملك السّابق ذكره.

الثالث: ما سكتت عن الشّواهد الخاصة فلم تشهد باعتباره ولا بإلغائه فهذا على وجهين:

أحدهما: أن يرد نص على وفق ذلك المعنى كتعليل منع القتل للميراث؛ فالمعاملة على وجهين: أحدهما أن يرد نص على وفقه فإن هذه العلّة، لا عهد بها في تصرّفات الشّرع بالفرض ولا بملائمها؛ بحيث يوجد لها جنس معتبر، فلا يصحّ التّعليل بها ولا بناء الحكم عليها باتّفاق، ومثل هذا تشريع من القائل به فلا يمكن قبوله.

والثاني: أن يلائم تصرفات الشّرع، وهو أن يوجد لذلك المعنى جنس اعتبره الشّارع في الجملة بغير دليل معيّن، وهو الاستدلال المرسل المسمى بالمصالح المرسلة.

حجية المصالح المرسلة:

في رأي الجمهور من العلماء أنّ المصالح المرسلة حجّة شرعيّة، و أصل من الأصول التي يُعتدّ بها في تشريع الأحكام، والأئمة الأربعة لأصحاب المذاهب الفقهية المعروفة على هذا الرأي، كما يؤخذ من المسائل والأحكام التي بنوها على هذا الأصل، وهي كثيرة في كتب الفقه المختلفة يظهر ذلك للمتتبّع، خلافا لما يقوله بعض الأصوليين بأنّ المصالح المرسلة حجّة فقط عند الإمام مالك دون غيره من أئمة المذاهب.

الأدلة على حجية المصالح المرسلة:

إنّ القائلين بحجيّة المصالح المرسلة اعتمدوا ما يأتي:

1- حديث بن معاذ المشهور الذي قال فيه رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل حين أرسله إلى اليمن: «كيف تقضي إذا عرض عليك قضاء؟ قال أقضي بما في كتاب الله، قال: فإن لم يكن في كتاب الله؟ قال: فبسنّة رسول الله، قال: وإن لم يكن في سنة رسول الله؟ قال: أجتهد رأيى ولا آلو»؛ -أي لا أقصر في الاجتهاد-، قال معاذ: "فضرب رسول الله ﷺ صدري بيده ثم قال: الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يرضي رسول الله»[1].

ووجه الاستدلال هنا إنّما هو في إقرار ﷺمعاذا على الاجتهاد بالرّأي في حال افتقاد النصّ من الكتاب والسنّة.

(1) أخرجه أبو داود، والدارمي في السنن، وأحمد في المسند.

والاجتهاد بالرّأي يكون بقياس النّظير على نظيره، شرط التّقيّد بمبادئ الشّريعة والاسترشاد بمقاصدها العامة، والعمل بالمصالح لا يجوز أبدا أن يخرج عن هذه الثوابت الشرعية.

2- إن أصحاب رسول الله ﷺ اتّفقوا على جمع المصحف الشّريف، وليس ثمة نصّ على جمعه وكتبه أيضا، بل قد قال بعضهم: كيف نفعل شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ؟ فروى عن زيد بن ثابت ﷺ عنه أنّه قال: «أرسل إلى أبو بكر ﷺ مقتل (أهل) اليمامة، وإذا عنده عمر ﷺ قال: قال أبو بكر: إنّ عمر أتاني فقال: إنّ القتل قد استحرّ بقرّاء القرآن يوم اليمامة، وإنّي أخشى أن يستحر القتل بالقرّاء في المواطن كلّها فيذهب قرآن كثير، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن، فقلت له: كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ فقال لي: هو والله خير. فلم يزل عمر يراجعني في ذلك حتى شرح الله صدري له، ورأيت فيه الذي رأى عمر». وهكذا دعا خليفة رسول الله ﷺ **زيد بن ثابت** ﷺ إلى جمع القرآن فأتمّ ذلك.

وفي عهد الخليفة الثّالث **عثمان** ﷺ تم جمع المصاحف كلّها في المصحف الإمام، وكلّ ذلك إنّما هو ما ألهم الله صحابة رسول الله من الخير الذي تحققتّ به المصلحة العامة للأمّة الإسلامية وللعالم كلّه.

وفي هذا الصّدد قال الإمام **الشاطبي**: "إنّه لم يرد نص عن النبي ﷺ بما صنعوا من ذلك، ولكنّهم رأوه مصلحة تناسب تصرّفات الشرع قطعا، فإن ذلك راجع إلى حفظ الشّريعة، والأمر بحفظها معلوم، وإلى منع الذّريعة والاختلاف في أصلها الذي هو القرآن، وقد علم النهي عن الاختلاف في ذلك بما لا مزيد عليه".

غير أنّ هناك رأي ينبغي إيراده، وهو أنّ الله ﷻ سمى القرآن كتابا، فأفاد ذلك وجوب كتابته كلّه؛ ولذلك اتّخذ النبي ﷺ كُتّابا للوحي، وتفريق الصّحف المكتوبة لا يعقل أن يكون مطلوبا للشّارع حتى يحتاج جمعها إلى دليل خاص، ولم يأمر النبي ﷺ بجمعها في حياته؛ لاحتمال المزيد في كلّ صورة ما دام حيّا كما قال العلماء.

وعلى هذا الأصل نحمل كتب العلم من السّنن وغيرها، إذا خيف عليها ألاّ ندارس زيادة على ما جاء في الأحاديث من الأمر يكبت العلم.

3- اتّفاق أصحاب رسول الله ﷺ على حدّ شارب الخمر ثمانين؛ وإنّما حجتهم في ذلك الرّجوع إلى المصالح والتّمسّك بالاستدلال المرسل. قال العلماء: لم يكن فيه زمان رسول الله ﷺ حد مقدّر، وإنّما جرى فيه الزّجر مجرى التّعزيز، وفي عهد أبي بكر ﷺ قدّره على طريق النّظر بأربعين، ولما جاء عثمان ﷺ جمع الصّحابة فاستشارهم، فقال الإمام علي ﷺ من سكر هذى، ومن هذى افترى، فأرى عليه حد المفتري.

وهكذا تمّ الإجماع على ثمانين.

4- قضاء الخلفاء الرّاشدين بتضمين الصناع، قال الإمام علي ﷺ في ذلك: "لا يصلح النّاس إلاّ ذلك".

ووجه المصلحة فيه أنّ النّاس لهم حاجة إلى الصنّاع، وهم يعينون على الأمتعة في غالب الأحوال، وإلاّ غلب عليهم التّفريط وترك الحفظ، فلو لم يثبت تضمينهم مع مسيس الحاجة إلى استعمالهم لأفضى ذلك إلى أحد أمرين: إمّا ترك الاستصناع بالكليّة فذلك شاق على الخلق، وإمّا أن يعلموا

أولّا يضمنوا ذلك، بدعواهم الهلاك والضّياع، فتضيع الأموال: " لا يصلح النّاس إلاّ ذاك".

5- إذا احتاج إمام الأمّة إلى مال ينفقه على الجند الذي يذود عن ديار الإسلام، ولم يكن ذلك موجودا في بيت المال، كان عدلا أن يفرض على الأغنياء ما يراه كافيا لهم في الحال، إلى أن يتوفّر بيت المال على ما يسدّ حاجة الدّولة في هذا المضمار.

ثم إنّ للإمام الحقّ في النّظر في توظيف ذلك على الغلاّت والثّمار وغير ذلك، ويقول **الشاطبي** في هذا الصّدد:

"لم ينقل مثل هذا عن الأوّلين؛ لاتّساع مال بيت المال في زمانهم بخلاف زماننا، فإنّ القضية فيه أخرى؛ ووجه المصلحة هنا ظاهر، فإنّه لو لم يفعل الإمام في ذلك النظام بطلت شوكة الإمام وصارت ديارنا عرضة لاستيلاء الكفار عليها".

6- اختلف العلماء في الضّرب بالتّهم، وذهب الإمام **مالك** إلى جواز السّجن بالتّهم، وان كان السّجن نوعا من العذاب، ونص أصحاب مالك على جواز الضّرب، وهو عند الشّيوخ من قبيل تضمين الصناع، فإنّه لم يكن الضّرب والسّجن بالتهم؛ لتعذر استخلاص الأموال من أيدي السرّاق والغصّاب؛ إذ قد يتعذر إقامة البيّنة، فكانت المصلحة في التّعذيب وسيلة إلى التّحصيل بالتّعيين والإقرار، يقول **الشّاطبي**: "فإن قيل: هذا فتح باب التّعذيب أشدّ ضررا؛ إذ لا يعذّب أحد لمجرّد الدّعوى، بل مع اقتران قرينة

تحتكّ في النّفس وتؤثر في القلب نوعا من الظن، فإنّ التّعذيب في الغالب لا يصادف البريء وإن أمكن مصادفته فتغتفر، كما اغتفر في تضمين الصناع.

فإن قيل: لا فائدة في الضّرب، وهو لو أقرّ لم يقبل إقراره في تلك الحال، فالجواب: أنّ له فائدتين:

- أحدهما: أن يعين المتاع فتشهد له البيّنة لربّه، وهي فائدة ظاهرة.

-والثانية: إنّ غيره قد يزدجر حتى لا يكثر الإقدام، فتقل أنواع هذا الفساد.

وقد عدّ له سحنون فائدة ثالثة وهي الإقرار حالة التّعذيب، بأنّه يؤخذ عنده بما أقرّ في تلك الحال، قالوا: وهو ضعيف، فقد قال الله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: 256]، ولكن نزله سحنون على ما أكره بطريق غير مشروع، كما إذا أكره على طلاق امرأته ما إذا أكره بطريق صحيح فإنّه يؤخذ به، كالكافر يسلم تحت ظلال السّيوف فإنّه مأخوذ به، وقد تتّفق له بهذه الفائدة على مذهب **سحنون** إذا أقرّ حالة التّعذيب ثم تمادى على الإقرار بعد أمنه فيؤخذ به.

قال الغزالي، بعدما حكى عن الشّافعي أنه يقول بذلك: "وعلى الجملة، فالمسألة في محل الاجتهاد، قال: ولسنا نحكم بمذهب **مالك** على القطع، فاذا وقع النّظر في تعارض المصالح وكان ذلك قريبا من النّظر في تعارض الأقيسة المؤثرة".

7- لو أراد الإمام أن يعاقب بأخذ المال على بعض الجنايات، فإنّ العلماء اختلفوا في ذلك، حسبما ذكره الإمام الغزالي، على أنّ الطنطاوي حكى أنّ ذلك كان في أوّل الإسلام ثم فسخ، فأجمع العلماء على منعه.

وأمّا مذهب مالك فإنّ العقوبة في المال عنده ضربان:

- أحدهما: كما صوّره الغزالي، فلا مرية فيه لأنّه صحيح، على أنّ ابن العطار في رقائقه، صغى إلى إجازة ذلك، فقال: "في إجازة أعوان القاضي إذا لم يمن ببيت المال أو في عوضه، فالعقوبة فيه عنده ثابتة، فإنّه قال في الزّعفران المغشوش إذا وجد بيد الذي غشّه، أنّه يتصدّق به على المساكين، قال أو كثر، وذهب ابن القاسم والمطرف وابن الماجشون إلى أنّه يتصدّق بما قلّ منه دون ما كثر، وذلك ما حكى عن عمر بن الخطاب ﷺ أنّه أراق اللّبن المغشوش بالماء، ووجّه ذلك التّأديب للغشّاش، وهذا التّأديب لا نص يشهد له لكن من باب الحكم على الخاصة من أجل العامة، وقد تقدم نظيره في مسألة تضمين الصناع.

على أنّ الحسن اللّخمي قد وضع له أصلا شرعيّا، وذلك أنّه ﷺ أمر بإكفاء القدور التي أغليت بلحوم الحمير قبل أن تقسم، وحديث العتق بالمثلة أيضا من ذلك.

ومن مسائل مالك في المسألة: إذا اشترى مسلم من نصراني خمرا، فإنّه يكسر على المسلم، ويتصدّق بالثّمن أدبا للنّصراني إذا كان النّصراني لم يقبضه، وعلى هذا فرع أصحابه في مذهبه، وهو كلّه من العقوبة في المال، إلاّ أن وجهه ما تقدّم.

8- إذا عم الحرام الأرض أو ناحية منها، بحيث يعسر الانتقال منها، وانسدّت طرق المكاسب الطّيبة، ومسّت الحاجة إلى الزّيادة في القوت والملبس والمسكن؛ إذ لو اقتصر على سدّ الرّمق لتعطّلت المكاسب والأشغال، ولم يزل النّاس في مقاماتهم، ذلك إلى أن يهلكوا، وفي ذلك خراب للدين، لكنه لا ينتهي إلى الترفه والتنعم، كما لا يقتصر على مقدار الضّرورة.

وهذا ملائم لتصرّفات الشّرع، وإن لم ينص على عينه فإنّه قد أجاز أكل الميتة للمضطر والدّم ولحم الخنزير، وغير ذلك من الخبائث والمحرّمات.

وحكى ابن العربي الاتّفاق على جواز الشّبع عند توالي المخمصة، وإنّما اختلفوا إذا لم تتوال، هل يجوز له الشّبع أم لا؟ وأيضا فقد أجازوا أخذ مال الغير عند الضّرورة أيضا، فما نحن فيه لا يقصر عن ذلك، وقد بسّط الغزالي هذه المسألة في "الإحياء" بسطا واسعا جدّا، وذكرها في كتبه الأصوليّة "المنحول" و"شفاء الغليل".

وجواز قتل الجماعة بواحد، والمستند فيه المصلحة المرسلة؛ إذ لا نصّ على عين المسألة، ولكنه منقول عن عمر بن الخطاب ﷺ، وهو مذهب مالك والشّافعي؛ ووجه المصلحة أنّ القتيل معصوم، وقد قتل عمدا، فإهداره داع إلى خرم أصل القصاص، واتّخاذ الاستعانة والاشتراك ذريعة إلى السّعي بالقتل إذا علم أنّه لا قصاص فيه، وليس أصله قتل المنفرد، فإنّه قاتل تحقيقا، والمشترك ليس بقاتل تحقيقا.

قال الشّاطبي: "فإن قيل: هذا أمر بديع في الشّرع وهو قتل غير القاتل، قلنا: ليس كذلك، بل لم يقتل إلاّ القاتل، وهم الجماعة من حيث الاجتماع

عند مالك والشّافعي، فهو مضاف إليهم تحقيقا إضافته غلى الشّخص الواحد، وإنّما التّعيين في تنزيل الأشخاص منولة الشّخص الواحد، وقد دعت إليه المصلحة فلم يكن مبتدعا مع ما فيه من حفظ مقاصد الشّرع في حقّ الدّماء، وعليه يجري عند مالك قع الأيدي باليد الواحدة، وقطع الأيدي في النّصاب واجب".

ومن خلال هذه الأمثلة وغيرها مثل من تنعقد له الإمامة الكبرى، وبيعة المفضول مع وجود الأفضل وغير ذلك مما بسّطه العلماء، يتّضح لنا الوجه العملي في المصالح المرسلة، ويتبيّن لنا في هذا المجال أمران:

الأوّل: الملائمة لمقاصد الشّريعة؛ بحيث لا يتنافى أصلا من أصولها ولا دليلا من أدلّتها.

ثانيا: أنّ مجال النّظر في المصالح المرسلة، إنّما هو المعقول الذي لا يتنافى مع المنطق السّليم، ويندرج في الوقت نفسه مع المقاصد الشّرعيّة في اتّجاهاتها العامة، ولا مدخل له في التّعبّدات، ولا مجرى مجراها من الأمور الشّرعيّة؛ لأنّ عامة التّعبّدات كما يقول الشّاطبي: لا يعقل لها معنى على التّفضيل، كالوضوء والصّلاة والصّيام في زمان مخصوص دون غيره، والحج وما إلى ذلك.

صاحب الفضيلة، علماءنا الموقّرين، السّادة الأفاضل:

أرجو أن أكون قد قلت صوابا في هذه المسألة العامة من مسائل الفقه المالكي، فإن كان الأمر كذلك فالفضل لله ﷻ، وإن كان فيما أوردته خطأ فهو منّي، وأستغفر الله العظيم على ذلك، وفي كلتا الحالتين أحمده تعالى على

ما أولانا من نعمه، التي أجلّها أن هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لو لا أنّ هدانا اللّه، لقد جاءت رسل ربّنا بالحق ... ثم أشكر حضراتكم على الصّبر والتّحمّل أثناء استماعكم لهذا البحث، ولا يفوتني أن أجدّد الشّكر والاعتراف بالجميل لشيخنا الموقّر المبارك، ولكلّ العاملين معه في الحقل الإسلامي المبارك.

والسّلام عليكم ورحمة الله وبركاته. محمد الأكحل شرفاء

الإنسان المسلم

كما وصفه القرآن الكريم

الإخوة الأعزاء،

تحية من عند الله مباركة طيّبة

إنّ المنهج الإسلامي قد استهدف بناء الإنسان المكرّم الذي جُعل خليفة الله في الأرض ذلك الذي حمل رسالة عجزت عن حملها السموات والأرض والجبال وأشفقنا منها، وحملها الإنسان... الذي كان ظلوما جهولا... والإنسان في الإسلام له صفات مميزة تبرزه في عدة مجالات... ومكننا أن نعرف مميزاته تلك من الآيات الأخيرة من سورة الفرقان وهي: من الآية الثّلاثة والستين إلى الآية السّابعة والسّبعين، وفي هذه الآيات نجد الآتي:

1. الإنسان المسلم كما نراه في الشارع ماشيا، وكما نراه مع النّاس متعاملا.

2. الإنسان المسلم في مجال استعمال المال.

3. الإنسان المسلم في العقيدة والمبدأ وفي المجال السلوكي والأخلاقي.

وفي تعامله مع أخيه الإنسان.

ـ تبصير هذا الإنسان بنتائج الانحراف والعدوان في الأمد البعيد، وبالخصوص في اليوم الأخير الذي هو جزء من عقيدة يؤمن بها المسلم.

ـ فتح أبواب الرحمة أمامه في حال الرجوع إلى الجادة وتقويم المسار.

ـ تعريفه بأن التغير يجب ألاّ يقوم على مجرّد الإعلان، وأنه لا بد من القيام بالعمل المضاد.

ـ تعليمه أن المسلم عليه أن يتعامل أساس مع الله ويستهدف رضاه.

ـ بعد هذه الجولة الاعتراضية ـ يتابع ذكر صفات الإنسان المسلم.

4. هو لا يشهد الزور قولا ولا يحضر مجلسا فيه زور.

5. هو لا يتلقّى مبادئ دينه بلا وعي ولا اقتناع مثل كما يفعل الوثن.

6. هو طويل الأمل يسعى جاهدا للحصول في المجال الزوجي على زوج صالحة تعيش معه حياة المودة والرحمة، كما يأمل في آن يرزق بذرية طيبة يطمئن إليها ويسعد بها، آملا في امتداد الحياة واستمرار البناء لخير أمة أخرجت للنّاس.

بعد عرض هذه الصّفات أعلن المنهج أنه بالإضافة إلى الحياة الرضية التي يعيشها المسلم في دينه وهو يطيع الله تعالى وينفّذ تعاليمه، فإنّ له كرامة في الآخرة في أعلى مكان بجنّة النعيم.

ختاما يخاطب الذين تصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا، بأنّهم ليسوا شيئا يعبأ به لينظروا الفئة الحرّة التي تخشى الله وترجو لقائه وترع إليه بالدعاء سائلة الهداية والتوفيق.

والآن إلى النص:

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (63) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (64) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (65) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (66) وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (67) وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (68) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (69) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (70) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (71) وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (72) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (73) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (74) أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (75) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (76) قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (77)﴾ [الفرقان: 63-77].

الاستمداد من الآيات: إن سورة الفرقان جاءت تثبيتا للرسول ﷺ، وتدعيما لمواقفه في مواجهة الطاغوت المشرك الذي وقف سد الطريق في وجه الدعوة، ويسلط أقصى ما يستطيعوا من وسائل القهر على المؤمنين... كما

جاءت السّورة لتعد المؤمنين فرديّا واجتماعيا في كلّ المجالات لحمل رسالتهم ومواجهة عدوّهم في مجال الصّمود قبل مجيء مرحلة الإذن بالقتال.

وما تلهمنا به سورة الفرقان نسبة الفئة المؤمنة الخيّرة إلى صفة من أسماء الله الحسنى وهو الرحمن وهي تخص الله وحده؛ إشعارا بأنّهم أمّة الرحمة وبينهم رحمة مهداه كما قال، ثم هاهي صفاتهم كلّها رحمة للبشريّة كافة.

أولى هذه الصّفات: هي البساطة والجدّ في وقت واحد، والذين يعيشون على الأرض هونا متواضعين مشية سهلة لا تكلف فيها؛ من تبختر، وتعاظم، ومرح، ولكنها إلى أمة جادة وحازمة وعازمة، لقد ثبت فيما قاله **"على بن أبي طالب"** -كرم الله وجهه-: «أنّ رسول الله ﷺ كان يتكفأ في مشيته تكفؤا، كأنما ينحط من صيب»[1]، وفي رواية: كان الرسول إذا تقلع، والتقلع هو الارتفاع من الأرض، وهي العبارة التي اختارها الإمام **"ابن القيم"** في زاد المعاد، والرّسول الذي هو قدوة المسلمين هي مشية أهل العزم والجد مثل القائد الذي يدرّب الجنودـ والمسلمون عند الله الغالب.

ثاني صفات المسلم: هي الإعراض عن الجاهلين؛ أي تجنّب التّعصّب للمسلم في الحوار التافه، أو الجدال الفارغ النّاتج عن السّفاهة والحماقة؛ لأنّ من المهام الجادّة ما يملأ وقته كلّه، ﴿**وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (63)**﴾ [الفرقان: 63].

(1) أخرجه أحمد في المسند، وابن أبي شيبة في المصنف.

ثالث الصّفات: قضاء الله في تعبئة النفس بالطّاقة الرّوحية والايمان بالله بعيدا عن التظاهر والرياء، ابتغاء منجاة الله تعالى، سائلين أن يصرف عنهم عذاب جهنّم الذي يطبّق على من أدخل النّار فلا يفارقه زيادة كونها إهانة وإذلالا للإنسان المكرّم، ﴿**وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (64)**﴾ [الفرقان: 64]، وخصّص السّجود والقيام حركة تقابل حركة النّهار.

أمّا دعاؤهم يصرف النّار عنهم؛ لأنّ إيمانهم العميق الذي يصورها وكأنّها واقعة فهم يصفونها مستعيذين بالله منها.

رابع الصّفات: تخصّ إنفاق المال ﴿**وَالذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا..**﴾؛ لأنّ المسلم إنسان عملي يشغل كلّ طاقاته من جسديّة وروحية في كلّ المجالات؛ بحيث تسهم في بناء مجتمع أمثل، والمال قوام على الأعمال، وقد وضع الإسلام قاعدة لإنفاق المال تتميز بالاقتصاد التوازني فلا إسراف ولا تقشّف أو بخل، ولكن اعتدال هذا في مجال الفرد وفي مجال المجتمع؛ لأن كلا من الإسراف والبخل مهلكة، ومن هنا سميت الخطة الحالية التي تضعها الدولة بالميزانية، وقد سبق الإسلام فوضع نظاما ماليا لو اتبعه لجاءه بكل النتائج العملية الطيبة للناس جميعا.

فليس إنفاق المال موكولا للهوى الفردي؛ بل إنّ له مواصفات محدّدة إذا تجاوزها المرء نزعت منه القيادة في مجال التّصريف المالي، وبهذا يمكن القول أنّ الملكيّة الفرديّة مشروعة في الإسلام، ولكنّها مقيّدة بشروط وضعها الشّارع منها الرّشد وعكسه هو السّفاهة، وعندما تكون ينزع هذا الحقّ من يد السّفيه، ولا يسمح له بالتصرف في أمواله إلى أن يستقيم ويرشد ﴿**وَلَا تُؤْتُوا**

السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ..﴾ [النساء: 5]، فتأمّلوا قوله: ﴿**أموالكم**﴾، ولم يقل: ﴿**أموالهم**﴾ مع أنّها كذلك؛ لأنّ ما يعود على المجتمع من نفع إذا أحسن إنفاق المال، أو ضرر إذا أسيء الإنفاق يجعل ذلك المال حقّا اجتماعيا ولو كان مالكه هو فلانا أو فلانا.

- خامس الصفات: بناء الحياة على العقيدة الصّحيحة التي يستنتج منها احترام الحياة الإنسانية باعتبارها هبة من الله، فلا يجوز الاعتداء عليها.

والتسامي على إفراض الهبة ورفض التدني نحو الدرك البهيمي الغليظ، والنّظر إلى الشّهوات الطبيعية، ومنها شهوة الجنس على أنها وسيلة لإنتاج البشر وإقامة الحياة على الحق والعدل؛ ولذلك وجب توفير الشروط اللازمة لذلك و ليست غاية في حد ذاتها، وهذا التسامي والطهر إذا انحرف عنه الإنسان دفع بنفسه إلى الهلاك والدّمار في الدّنيا، وإلى عذاب الله المضاعف ﴿**وَالذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ**﴾...إلخ.

- ختاما يبشرهم ربهم منازل الكرامة التي أعدها لهم في جنة النعيم، أولئك يجزون المكانة بما صبروا، ويوجه توجيها لأولئك الذين وقفوا في وجه الدعوة إعاقة لرسولها، وفتنة للمؤمنين والاعتداء عليهم، حاسبين أنهم ملكوا العالم وهم لا يساوون عند الله شيئا لولا الفئة الصالحة التي ما تنفك تدعو الله و تستقيم على نهجه.

﴿**قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ**﴾...إلخ"

هذه بعض صفات المسلم كما وردت في سورة الفرقان، أرجو أن أكون قد جلبت بعض جوانبها بما أتيح لي من وقتكم الثمين، وأدعو الله أن ينفعني وإياكم بها، ويجعلنا من أهلها، والله يهدي من يشاء إلى صراط المستقيم.

أيها الدعاة . . . ردوا الأضاليل

لعلّ أخطر ما يواجه الدّعوة الإسلامية في أيّام النّاس هذه هو الجاهليّات القائمة في العالم، هذه الجاهليّات المتنوّعة المظاهر والأشكال تفتح واجهات لا حصر لها في وجه الدّعوة، وتثير أمام الجماهير أكثر من نقطة استفهام، ولنحاول في هذا الفصل التّعرض لبعض تلك التّساؤلات ومحاولة تجلية وجه الحق فيها.

مثلا: هم يقولون: إذا كان الله هو الذي أراد للنّاس التدين، وهو القادر على كلّ شيء فلماذا يمكن هكذا للدّعوات المعادية لدينه أن تتغلغل وتمتدّ في أصقاع الأرض، بينما يشهد النّاس انكماش العقيدة الدّينية وضعف سلطان الدّين على عقول الناس ووجداناتهم؟؟؟.

وشيء آخر يثيرونه وهو أنّ العصر لم يعد صالحا لإعطاء القيادة للدّين؛ لأن ذلك إذا ما حدث سوف يعيق الشّعوب عن مواصلة سيرها نحو التّطور الحضاري ويعيد عجلة الحضارة القهقرى..

وزعم آخر يروجونه وهو: أنّ تحكيم الدّين معناه إنشاء مجتمع متعصّب إذا حكم اضطهد المخالفين في العقيدة.

إلى جانب فيض من المزاعم التي يوجّهها الدّاعية إلى الهدى ودين الحق في هذا العصر الإلحادي، الذي غمرته أمواج الضّلالة التي تصدّ النّاس عن نهج الله القاصد وتصرفهم إلى سبيل الضلال والانحراف، وغيرها، ﴿وَأَنَّ

هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: 153].

لنبدأ بالرد على الزعم الأول:

حقيقتان تمنعان:

أمّا **الحقيقة الأولى**: التي تمنع من إثارة التّساؤل ولا تترك مجالا لهذا الخاطر بالنّسبة للمؤمن طبعا فهي طبيعة هذا الدّين.

إنّ هذه الطّبيعة كما أرادها منزل حكمة يعلمها ولا نعلمها تقضي بأنّ الرّسالة لا يمكن أن تبرز إلى الواقع العملي من دنيا النّاس إلاّ بواسطة جهاد المؤمنين لها وفي حدود طاقاتهم البشرية، ومقدار ما يبذلون من تضحية وفداء من أجل ذلك فما لم تبذل أغلى التّضحيات، ولم يقدّم أشق جهد في سبيل نشرها والدّفع عنها، ومناضلة كلّ قوى الشّر التي تواجهها فإنّه لا يمكن انتظار النّصرة لدعائها وحملتها، والرّسالة الإسلامية هي التي رسمت للبشريّة طريق الجهاد في سبيل العقائد، ووعد منزل الرّسالة بمنح النّصر لأولئك المجاهدين ما صبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله، **﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُومِنِينَ﴾** [الروم: 47]، **﴿وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الغَالِبُونَ﴾** [الصافات: 173].

إنّ إطلاق لفظ الجنديّة على المؤمن الصّادق، فيشع بإيحائه إلى من يريد الإسلام عقيدة ورسالة حياة.

وفي هذا المعنى الأسمى الذي يعرف البشريّة بطبيعة الرّسالة الإسلامية، ويوجّهها إلى سبل النجاح نزل قوله ﷻ: **﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا**

لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (69)﴾ [العنكبوت: 69]، إذن لا يتصوّر فلاح مجتمع يريد الإسلام عقيدة ونهج حياة أن يبلغ أهدافه ويفلح في حلّ مشاكله ما لم يجاهد في الله، ويضع كلّ إمكاناته ويحشد كلّ طاقاته ليوجّهها إلى ساحة الفداء، إذن لا يمكن لمسلم يفقه هذه الحقيقة في دين الله أن يسأل نفسه فضلا عن إبراز مثل هذا التّساؤل إلى الناس.

الحقيقة الثانية: تكمن في تاريخ ظهور هذا الدّين؛ وأعني به فجر الدّعوة الإسلامية، إنّه لا يتصوّر مؤمن أن هناك شخصا أقرب إلى الله وأجدر بمحبته من رسوله المصطفى ﷺ ومع ذلك هل كان انتصار المنفّذ الأعظم هينا لينا رخوا؟ إن تاريخه العظيم تعلمه الدّنيا كلّها: المؤمنة منها والملحدة، وإنّ ما لقيه رسوله الله ﷺ من عنت قريش ومكر يهود وتآمر أحزاب وتآلف جاهلية عربية وعالمية أشر من أن يذكر، وهو شيء تطفح به مجلّدات التّاريخ الإنساني، فلماذا لا يعطي الله النّصر لنبيه بمجرد أن يلقى عدوه؟ لماذا يتركه في مكّة ثلاثة عشر عاما بطولها يعاني وأصحابه قهر قريش واضطهاد جباريها، واستخفافهم بدعوته، واستبدادهم بأصحابه حتى بلغ بهم الأمر إلى تقرير قتله؟ ثم لماذا يأمره بالهجرة وترك الوطن؟ ثم لماذا يتركه في بعض المعارك كأحد مثلا تصاب رباعيته ويشج وجهه ويقع في الحفرة التي نصبها له أعداؤه ؟ ثم لماذا يدع رسوله الأعظم يحفر الخندق بنفسه، ويشكو ألم الجوع فلا يجد إلاّ حجرا يضعه على بطنه ويشد عليه منطقته حتى يقوى على الحفر؟

إنّ كلّ ذلك واضح بيّن، وهو أنّ محمدا **صلى الله عليه وسلم** إنّما أراده الله كذلك كي يرسم طريق الأجيال، ويعلم شعوب الأرض كيف

يمكنها أن تحصل على حياة العزة والكرامة، ويدلّها على الطّريقة المبلغة إلى تحقيق سيادة الإنسان الكريم المؤمن على الكون، إنّ حياة الدّعوة الإسلامية في طورها الأوّل أول ثورة انبثق خيطها من الأعلى إلى الكون المظلم؛ كي يستنير، وإلى الإنسان المظلوم كي يتحرّر، وإلى المنهاج العدل كي يوضع ويتقرّر، وبدون هذا لا يمكن فهم تلك الفترة السّابقة من تاريخ الإسلام.

هل يسأل الملحد هذا السّؤال؟

إنه بالطبع لا يسأله؛ لأن فكرة وجود الله يهيمن على الكون ويسيّره وفق مشيئته عنده غير واردة أصلا، ولذلك فهو إذا قال شيئا في هذا المجال لا يحمله العاقل محمل الجدّ على كل حال.

فمن يسأل إذن؟

إنّه ذلك الفارغ المتبطّل المخنّث، ومثل هذا لا يلتفت إليه الجادون من أصحاب الدّعوات.

أما الزّعم الثّاني فلا يمكن أن ينطبق على الإسلام إذا أمكن انطباقه على نظم أخرى تنسب باطلا إلى الدّين؛ لأنّ الإسلام يملك من إمكانيّات التّطوير والتّحرير في شتى المجالات، ما لم يتوفّر في غيره من رسالات السّماء أو نظم الأرض؛ ذلك لأنّ الله أراده لكلّ عصر ولذلك لا نجد فيه عند تأمّله ما لا يتلاءم مع طبيعة الإنسان وتقدّمه وتحرّره، وتتحدّى كلّ من يتصدّى لحرب دين الله أن يدلنا على أي أصل من أصول الدعوة الإسلامية يمكن أن يتحوّل إلى عائق لتطوّر الإنسان الحضاري، ثم هنالك حقيقة تاريخيّة أكّدت

بأنّ المكانة التي ارتفعت إليها أمّة الإسلام بقيادة الإسلام في كلّ مجال قد بلغت الذّروة حتى أصبحت دولتها هي الوحيدة في العالم التي تملك حريّة العمل والتّحرك إلى أيّ مكان وتنفيذ أيّ مخطّط وإملاء أي إرادة، ولم يكن من سلطان يعلوها سوى سلطان الذي أنزل القرآن على محمد.

هل كان المسلمون يشكون فقرا اقتصاديا أو ضعفا ماليا أو تخلّفا صناعيا، أو جهلا أو مرضا، أو خفة وزن دولي، أو قلة إمكانات في أي مجال أو هوان الشأن المقدار، أو هزال الاستعداد الدفاعي يوم كان الإسلام يقودهم ويوجه نشاطهم ويهيمن على حياتهم؟؟.

إن الذي كان لهم هو عكس ذلك على طول الخط، ففي الميدانين المالي والاقتصادي قد أفاض الله عليهم الخيرات وأمطرهم بوابل من الأرزاق غمرتهم وتدفّقت عليهم مرارا ومن كل مكان ﴿**وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا (16) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (17)**﴾ [الجن: 16-17]

وأمّا في الميدانين الصّناعي والفنّي فلم يذكر التاريخ أن أمة أخرى قاربت شأن العرب المسلمين في ذلك أيام مجدهم ويكفي دليلا (ساعة الرّشيد الشمسية) التي أهداها إلى شرلمان ونصيحة المستشارين لمليكهم ألا يقترب منها حتى لا يقع تحت تأثير سحر العرب؟؟؟

هكذا كانوا يفهمون نتاج التفكير الإنسان في مجال الصّناعات !!!.

وذكروا أنّ أوّل من حاول الطّيران هو "**عباس بن فرناس**" وأنّ العصر الذي كانت فيه حواضر الإسلام في المشرق وفي الأندلس تبلّط شوارعها بالرّخام الثمين، وتطلي جدرانها بماء الذهب كانت شوارع مدن أوروبا تغوص في أوحالها الأقدام المقبقبة !!!

أمّا من حيث الرّخاء الاقتصادي فقد بلغ بالمسلمين الغنى إلى حدّ أن يطوف عمّال الزّكاة عاما بحوله البلاد مشرقا ومغربا، وكان ذلك "أيّام **ابن عبد العزيز**" فلا يعثرون على من يستحق أخذ الزكاة.

أمّا في ميدان إعداد القوة العسكرية فحدث عن البحر ولا حرج، لقد جمع للجيش الإسلامي المجد من أطرافه، حتى لم تعد هناك قوة بشرية تخيف المسلم أو تملك الحاق الهزيمة به، ولم تعد هناك دولة في الأرض يراودها خاطر ولو في الأحلام أن تعتدي أو تفكر بالعدوان، بل وصل المسلمون من خطر الشأن إلى حدّ امتلاك القدرة على ردّ العدوان عن أي بلد يستغيث بقوّة الدّولة الإسلامية مهما كان بعده ساحقا عن حدودها.

كلّ ذلك في عدل وسماحة ووفاء بالعهود واحترام صارم للمواثيق ورعاية حازمة لمصالح كلّ مواطن مهما كانت عقيدته ولونه.

وهنا نصل إلى العقيدة والتعّصّب على المخالف فيها، إنّ الإسلام اعترف بكلّ أديان الله المنزّلة ودعا إلى احترام من لم يقتنع بعد من أصحابها بدخول الإسلام، الذي استوعبها وأضاف إليها جديدا يتطوّر تلقائيّا على الدّوام حسب مقتضيات كلّ عصر.

فكان رسول الله ﷺ يرعى أهل الذّمة وكان خلفاؤه كذلك، حتى أن الفاروق ﷺ مرّ يوما فلقى شيخا يهوديا يتسوّل، فسأله عن السّبب فقال: "**أشكو الحاجة والجزية والسن**" فأمر أن يفرض له عطاء يكفيه وقال: "ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته وخذلناه عند الهرم، ثم يقرأ تعالى: ﴿**إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ**﴾ [التوبة: 60]، وقال المساكين هم أهل الكتاب وهذا منهم".

ولجأ الكثير من أهل الكتب القديمة من البلاد المسيحيّة إلى البلاد الإسلاميّة؛ حيث يجدون الرّعاية والحماية وصيانة الحقوق واحترام الكرامة الإنسانيّة معروف مستفيض في كتب التاريخ.

وما الجزية؟ إنّها معلوم يدفعه الذّمي؛ وهو اللّفظ الذي يطلق على المعاهد إشعارا بقيمة العهود واحترامها لا يتجاوز 2.5 % مقابل الخدمات التي تقدّمها الدّولة، وهو أقل وأتفه معلوم مالي يدفعه مواطن في أيّ بلد، وهو أقلّ بكثير ممّا على المسلم أن يدفعه للدّولة زكاة وصدقات وعطاءات سخية من أجل الأمّة ونشر الدّعوة في العالم، وحتى القيام بأعباء الدّفاع لا يكلّف بها غير المسلم؛ لأنّ الجهاد في الإسلام إنّما هو مشروع لغرض إعلاء كلمة الله كي يتمكّن تحقيق نظام العدالة الشّاملة الذي نزل به وحي الله، ولغرض الدّفاع عن النفس.

فأين يوجد التّعصّب هنا؟

إنّ أمر الخراصين بيّن، وهو أنّهم لا يردون في الواقع إلاّ الانحلال والغوص والفوضى وفساد الخلق، فإذا كان هذا ما يهدفون إليه فإنّ الإسلام دين الله الخالد ومنهاجه القويم، لن يرض به إطلاقا وسيظل حربا عليه إلى أن يأذن الله بسطوع أشعّة الحق من جديد على هذا العالم الجديد.

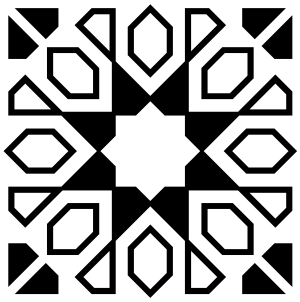

الأسرة والمجتمع

قيام المجتمع الإسلامي ضرورة لبناء الإنسان الصالح

إنّ كلّ المناهج التّربوية في العالم المعاصر تستهدف بناء "المواطن الصالح" الذي يُجنَّد خاصة في لخدمة وبني جنسه أوّلا بما يتلاءم مع قيمهم ومميزاتهم وصالحهم الوطني، ثم يتعامل مع النّاس خارج وطنه بما يجلب النّفع لبلده ويذيع صيتا محمودا في العالم الخارجي، إلاّ أنّ الإسلام قد تفرّد في منهجه التّربوي بما يندرج في إطاره الشّمولي حيث يعطي للوطن كلّ حقّه من الحبّ والخدمة والرّعاية وحفظ الذمة... ولكنّه لا يقصر في بنائه على إعداد المرء للوطن وحده ولكن للبشرية جميعا، فهو بتعبير أدقّ يستهدف تكوين "الإنسان الصالح" الذي يسعد به أهله وعشيرته بالدّرجة الأولى على قاعدة "الأقربون أولى بالمعروف"، ثم يمتد نفعه إلى عباد الله جميعا؛ باعتبار كونه حاملا رسالة عالمية جعلها الله رحمة للعالمين، والإسلام في هذا المجال لا يدع النّاس حيارى يخبطون في متاهات، إنّما يحدّد لهم "مواصفات" هذا الإنسان حتى يستطيعوا معرفة ملامحه في دقّة ووضوح، كما يضع لهم معالم الطّريق التي تهديهم إلى الاتّجاه السّليم وصولا إلى الغاية المنشودة.

والإنسان في الإسلام خليفة الله في أرضه فليس له أن يتصرّف إلاّ باعتباره قائما بواجبات النّيابة عن ربّه، عليه أن يرجع إليه في كلّ أمر ويستشير شريعته في كلّ قضيّة ويحكَم الله ﷻ والرسول ﷺ في كلّ نزاع: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30)**﴾ [البقرة: 30]، وقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ**

وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (59)﴾ [النساء: 59].

هذا الإنسان الذي أراده الله لا يمكن بناؤه إلاّ داخل المجتمع المسلم؛ لأنّ كلّ الجهود ستذهب هباء إذاحاولنا تكوين الفرد إسلاميا في مجتمع يعادي الفكرة الإسلامية ويعمل جاهدا لسحقها، صحيح ما يذهب إليه بعض الإسلاميين حين يقولون بأنّ بناء مجتمع إسلامي هو الهدف الأخير للتّربية الإسلاميّة، ولكن في الوقت ذاته الأداة الإيجابية لتثبيت المفاهيم الإسلامية وتنشئة الأفراد عليها منذ الحداثة حتى ينطبعوا بها وينصبغوا بصبغتها ويتشرّبون رحيقها.

والابن ينشأ على ما كان والده * إنّ العروق عليها ينبت الشّجر**

وكلمة الإمام مالك بن أنس – رحمه الله– تنفعنا في هذا المجال: "لا يصلح آخر هذه الأمة إلاّ بما صلح أوّلها".

إنّ علينا أن نتّخذ الرّسول ﷺقدوة كما أمرنا ربّنا، وقد بدأ عليه السّلام بالفرد ثم بمجموعة أفراد، فإنّه تلقّى الرّسالة وامتلأت نفسه بهديها تحرّك للعمل في واقع الأرض، وتلك هي سمة الرّسالات الكبرى جميعها، وعلى رأسها هذا النّهج الفريد المتحرّك الذي أودع الله فيه خلاصة الدّين كلّه، وخصائص الرّسالات الإلهيّة جميعها، وجعل فيها من الحيويّة والحركة ما استطاع به تعميق جذوره وتثبيتها في التّربة الصّلبة الجافة التي لم تكن لتثبت فيها نبتة سليمة، ثمّ ألم تمتد بسرعة مذهلة لا مثيل لها في التاريخ كلّه، وما استطاعت به أن تقاوم كلّ صنوف الكيد والتّخريب من التتار حينا ومن

الصليبيين كرّة، ومن الداخل مرّات... وما استطاعت أن تقوم من كلّ نكسة صادفتها حية متميزة متوفّرة مستعدّة للبقاء.

والمجتمع المسلم مهما كانت الظّروف ضرورة حتميّة لا يعفي الله مسلما ولا مسلمة إذا لم يقدّم أيّ جهد لإنشائه؛ لأنّ تأسيس هذه الأمة التي تقوم على العقيدة الرّابطة بين شعوبها مسؤوليّة جماعيّة لا يعفي الله أحدا منها بدليل قوله ﷻ: ﴿**وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (104)**﴾ [آل عمران: 104]، وكلّ ما ينادي به مفكّرو العالم من وجوب قيام مجتمع إنساني متحرّر من التّمييز والفوارق، متساو في الحقوق والواجبات متوفّر على الكرامة والحريات، إنّما هو من قبيل الخيال، قد يقترب أحيانا من الخيال إذا لم ينشق هذا المجتمع ممّا أنزل الله على محمد ﷺ ذلك الذي قال ونفّذ بالفعل ما قال، قال: «الناس لأدم وآدم من تراب»[1]، «إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم»[2].

فهذا الإنسان الأتقى الذي أمر الله بإحلاله المقام الأوّل مهما كان لونه وجنسه هو الذي يعبد الله ويلتزم بما شرع ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (57)**﴾ [الذاريات: 56-57].

(1) أخرجه أبود، والترمذي في السنن، وأحمد في المسند.

(2) أخرجه الحاكم في المستدرك بلفظ: «إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : أمرتكم فضيعتم ما عهدت إليكم فيه ورفعت أنسابكم فاليوم أرفع نسبي وأضع أنسابكم أين المتقون أين المتقون إن أكرمكم عند الله أتقاكم».

والعبادات ليست مقصورة على الشّعائر التّعبدية؛ وإنّما تشمل الحياة العمليّة بكلّ تفاصيلها الدّقيقة، كما تشمل الفكرة والإحساس؛ فهي تعني كلّ ما يقوله الإنسان وما يفعله ممّا ينبثق من عقيدته في الله والحياة والكون، وأنّ الإنسان في الدّنيا بين اتّجاهين لا ثالث لهما، فإمّا أن يؤمن بالله ويستمدّ منه ويعمل لبلوغ مرضاته.

وإمّا أن يشرك به آلهة أخرى وبشريعته شرائع أخرى وبقيمه السّماوية الخالدة زينة الحياة الدّنيا وزخارفها وإغراءاتها الزّائفة الزّائلة: ﴿**الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (46)**﴾ [الكهف: 46].

وليس للإنسان في هذه الحياة سوى رسالة واحدة تهديه إلى الحقّ، فإمّا أن يستقيم عليها فهو الرّشد، وإمّا أن يزيغ عنها فهو الضّلال الذي يودي به حتما: ﴿**قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38)**﴾ [البقرة: 38]، فهو يستمدّ من هذا الهُدَى منهج حياته وشعوره وسلوكه، ولا يجوز له أبدا أن يعتمد منهجا سواه ولا مصدر غيره وإلاّ فهو الانسلاخ والاتّساخ، والإعلان في المنهج الرباني التزام لا مناص من تطبيقه، فعندما أعلن رسول الله ﷺ أن «لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أحمر إلا بالتقوى»[1]، وأعطى لهذا

(1) أخرجه أحمد في المسند، وعبد الله بن المبارك، والحارث في المسند، ولفظه عند أحمد: «يا أيها الناس ، ألا إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا أحمر على أسود ، ولا أسود على أحمر ، إلا بالتقوى أبلغت " ، قالوا : بلغ رسول الله ، ثم قال : " أي يوم هذا ؟ " ، قالوا : يوم حرام ، ثم قال : " أي شهر هذا ؟ " ، قالوا : شهر حرام ، قال : ثم قال : " أي بلد هذا ؟ " ، قالوا بلد حرام ،

الإعلان مفهومه العملي، فسوى بين الأحرار ومن كانوا عبيدا، وحطّم الحاجز النّفسي بين الفريقيـــــــن، فاستطاع من كانوا لا يطمعون في جلسة بمكان مخصوص للأشراف أن يصبحوا قادة العرب والعجم وسادة الدّنيا، من كان يصدّق أن يتحوّل بلال وهو من كان يجلّد بالّسياط ويسام الخسف ويعير بالسّواد...أن يعلو البيت العتيق، ويرفع صوته جاهرا معلنا سقوط الطّاغوت وقيام دولة الحقّ والعدل وتكريم الإنسان؟؟.

ومن كان يظّن أن يعلن محمد بن عبد الله وهو الخيار من خيار من خيار أنّ رجلا لا أصل له في العرب، ولا نسب له بينهم ولا آصرة ضّمه لا إلى إحدى القبائل، ولكن إلى أطهر أسرة وأشرف بيت في العرب والعجم حين قال على ملَء وفي وضح النّهار:

«سلمان منا آل البيت»[1]، ومن كان يصدّق أنّ قوما عاشوا على العصبيّة آباء عن أجداد سيتحوّلون في لمح البصر بمجرّد أن وضع رسول الله ﷺ قدميه على أرضهم إلى إخوة في الله يتقاسمون الحظوظ والأرزاق ويتعاونون البر والتقوى ويتضامنون لدحر العدوان؟

إن رسول الله ﷺ آمن برسالته كما وصفة الله: ﴿**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**

قال : " فإن الله قد حرم بينكم دماءكم وأموالكم " قال : ولا أدري قال : أو أعراضكم ، أم لا كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا أبلغت " ، قالوا : بلغ رسول الله ، قال : " ليبلغ الشاهد الغائب».

(1) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى، والطبراني في المعجم الكبير، والحاكم في المستدرك.

(285)﴾ [البقرة: 258]، وكذلك من آمن بهذه الرّسالة كانوا صادقين في إيمانهم بها، وقد جنّدوا لها كلّ طاقاتهم، عاشوا لها وحدها فبارك الله سعيهم وألزمهم كلمة التّقوى وكانوا أحقّ بها وأهلها، ولم يكن ذلك ممكنا، لو لم يؤسّس المجتمع المسلم الذي ضمن لتلك البذور أن تنبت في تربة عرفت بأنّها غير ذات زرع؛ ليعلم النّاس أنّ قيام ذلك المجتمع إنّما هو بأمر الله، وأنّ الله إذا أراد أمرا فلا مردّ له وأنّ على النّاس أن يسمعوا كلمته ويتلقّوا منه، ويلتزموا بما شرع وبعد ذلك عليهم أن يسلّموا الأمر لصاحب الأمر الذي له الملك وهو على كلّ شيء قدير.

التكافل الاجتماعي في الإسلام

الكفالة الذاتية:

إنّ لفظ التّكافل يعني ضمان قيام كلّ فرد في مجتمع الإسلام بواجبه نحو نسفه ونحو غيره بدافع من عقيدته ووازع من حسّه الذي طهّره الله بهذا الّدين، ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7)﴾ [الشمس: 7]، ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى (37) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (38) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (39) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (41)﴾ [النازعات: 37-41].

ومن هنا فإنّ المسؤوليّة الذاتية والتّبعة الفرديّة ثابتة﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (38)﴾ [المدثر: 38]، ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (36) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (37) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (38) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (39) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (40) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (41)﴾ [النجم: 36-41]، ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (286)﴾ [البقرة: 286]، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (41)﴾ [الزمر: 41].

الكفالة الأسرية ضمانة حماية الأسرة:

والأسرة هي المؤسّسة الأولى في البناء الاجتماعي كلّه، ومن ثمة فلا بدّ من تشريع نظام لرعايتها من التّفكّك وصيانتها من الانحلال ووقايتها من أخطار الدنيا، ومن نار الآخرة: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (6)**﴾ [التحريم: 6].

وبما أنّ هذه الوقاية إنّما تتمّ في الدنيا، فإنّ على الإنسان المسلم أن يتبع التّربية الإلهية لنفسه وأهله؛ حتى ينجو وينجي أهله من سوء المصير؛ ولذلك أقرّ الإسلام مجموعة من التّشريعات في مجال البناء الأسري نفسيّا وأخلاقيّا واجتماعيّا؛ حتى يضمن للعلاقات الرّحمية أن توصل ولا تقطع: ﴿**وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (23) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (24)**﴾ [الإسراء: 23-24].

﴿**وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (14)**﴾ [لقمان: 14].

﴿**النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (6)**﴾ [الأحزاب: 6].

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (233)﴾ [البقرة: 233].

والكفالة العائليّة ممتدّة بعد الوفاة، فيما يتركه المتوفّى من مال ومتاع وما يورّثه للخلف من خصائص وأوضاع ومحاسن وعيوب، فإنّ العدل يقضي أن يكون للوارث الحقّ في الانتفاع بما يخلفه سلفه من متاع الحياة الدّنيا، طالما أنّه لا يستطيع التّخلّص ممّا ورثه إياه من أعراض ذاتية ولوازم خلقيّة، ونظام التوّريث تولاّه الله ﷻ حسما لكلّ نزاع على الأنصبة بين أصحاب الحقوق: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (11) وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا

أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (12)﴾ [النساء: 11-12].

كما جعل لمن ليسوا من أصحاب الحقوق حظّا يوصي به المورث لا يتجاوز حدّا معيّنا بنص شرعي وهو ثلث التّركة، غير أنّه لا يوصي لمن له حق الميراث «لا وصية لوارث»[1].

ومن البديهي على امتداد التّكافل إلى ما بعد الموت ما جاء في كتاب الله على أسلوب قصصي وهنا فيما كان بين موسى عليه السلام والخضر: **﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (82)﴾** [الكهف: 82].

الكفالة الاجتماعية ضمان الرعاية الاجتماعية:

وهي هنا تعني أنّ كلّ فرد عضو في المؤسّسة العامة له حقوقه بالعدل بين أخواته في المؤسّسة، وله واجباته التي تتجسّد في الأعمال المنجزة في إطار الحماية، والنّظام الجماعي هو الذي جاء به الإسلام ودعا إلى تعزيزه في كلّ مجالات العمل، وبالنّظر إلى التّعليمات القرآنية والحديثيّة جميعها نرى أنّ التّوجيه أمرا ونهيا إلى الجماعة لا إلى الفرد وقلّما يأتي النّداء إلى الفرد إلاّ في حالات خاصة تقتضي ذلك، كأن يقول الله عز وجل لرسوله ﷺ: **﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (125)﴾** [النحل: 125]،

(1) أخرجه ابن ماجة في السنن، وابن أبي شيبة في المصنف.

وهذه النّداءات بصيغة المفرد كانت للرسول ﷺ وهو فرد، وفي الوقت ذاته تعني الجماعة؛ لأنّ الرّسول مبعوث إلى النّاس لا إلى ذاته خاصة، وأنّ أثر وفاعليّة ما تشتمل عليه تلك النّداءات إنّما تتحقّق في الجماعة، أمّا ما عدا ذلك فإنّ القرآن حينما يتعلّق الأمر بالبشريّة كافة ينادي بقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1)**﴾ [الحج: 1]، وعندما يتعلّق الأمر بالجماعة المؤمنة يناديها بقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (6)**﴾ [الحجرات: 6]، وعندما يتعلّق الأمر بالمسلمين كافة يناديهم بقوله: ﴿**وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (105)**﴾ [التوبة: 105].

«مثل القائم على حدود الله، والواقع فيها كمثل قوم استهموا في سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا مروا على من فوقهم فقالوا: ما يضيرنا لو خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذي من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا أهلكوا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا»[1].

﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (71)**﴾ [التوبة: 71].

الأمة مسؤولة عن رعاية الضعفاء:

(1) أخرجه البخاري في الصحيح، والترمذي في السنن.

فاليتيم وديعة عند الأمّة كلّها فإن فقد أباه توزّع الآباء المسلمون مسؤوليّة أبيه، وإن فقد لأمه كانت الأمهّات في المجتمع الإسلام أمّهات له أي لذلك اليتيم: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (6)﴾ [النساء: 6].

«السّاعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله والقائم اللّيل الصّائم النّهار»[1].

وأنذر الله بنار السّعير أولئك الذين لا يكرمون اليتيم ولا يحضون على طعّام المسكين﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (17) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (18) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا (19) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (20) كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (21) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (22) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (23) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (24) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (25) وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ (26)﴾ [الفجر: 17-26].

«أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعا فقد برئت منهم ذمة الله تبارك وتعالى»[2].

(1) أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح، والترمذي والنسائي في السنن.

(2) أخرجه أحمد في المسند، وابن أبي شيبة في المصنف، والحاكم في المستدرك.

«من كان له معه فضل ظهر فليعدد به علة من لا ظهر له، ومن كان له فضل زاد فليعدد له علة من لا زاد له»[1].

والقصاص يضمن الحفاظ على الحياة وذلك بعقاب القاتل المتعمد بغير حق:

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (179)﴾ [البقرة: 179]، والنّفس البشريّة أمانة الله التي لا يجوز الاعتداء عليها بغير حق، خاصة نفس المؤمن ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (93)﴾ [النساء: 93].

كفالة العرض والشّرف: ضمان ألا يمسّ بسوء ولا يخدش:

لا شيء أكرم في الإسلام من الإنسان وهو لكي يعيش حياته في كرامة فلا بدّ أن يكون محفوظ النّفس والعرض والمال «دماؤكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا...أوصيكم بالنساء خيرا»[2] خطبة الوداع.

(1) أخرجه مسلم في الصحيح، وأبو داود في السنن.

(2) أخرجه الترمذي في السنن ونصه: عن سليمان بن عمرو بن الأحوص قال : حدثني أبي ، أنه شهد حجة الوداع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وذكر ، ووعظ ، فذكر في الحديث قصة ، فقال: «ألا واستوصوا بالنساء خيرا ، فإنما هن عوان عندكم ، ليس تملكون منهن شيئا غير ذلك ، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع ، واضربوهن ضربا غير مبرح ، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ، ألا إن لكم على نسائكم حقا ، ولنسائكم عليكم حقا ، فأما حقكم على نسائكم فلا يوطئن فرشكم من تكرهون ، ولا يأذن في بيوتكم لمن تكرهون ، ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن»

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (2)﴾ [النور: 2]. ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (4)﴾ [النور: 4].

الكفالة المالية ضمان حماية الأسواق:

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (275)﴾ [البقرة: 275].

ذلك لأنّ الفقراء هم الذين يتضرّرون من النّظام الرّبوي فيزدادون فقرا وحاجة، فيما يزداد أصحاب الأموال غنا حتى التّخمة بما ينالون من ربا، دون جهد ولا سعي ولا عمل ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: 275]. ولحماية الأموال من الاعتداء، وأمن المجتمع من التّصدّع شرع عقوبة السّرقة قمعا للفساد نكالا بمن يروعون أمن المجتمع المسلم ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (38)﴾ [المائدة: 38].

الكفالة العامة: ضمانات مشتركة.

وهي تعني مساهمة الجميع – كلّ بما يقوى عليه – في بناء دار الإسلام وهي الدّار التي يأوي إليها الإنسان الصّالح لخلافة الله في الأرض،

وبالتّالي هي الدّار التي يجد فيها كلّ طالب للحقّ والعدل والخير والكرامة الإنسانيّة المثابة والأمن والاستقرار؛ وذلك إنّما يتحقّق حين يعرف كلّ مسلم حقّه وواجبه وينهض بما عليه من مسؤوليّات في مجال بناء خير أمّة أخرجت للنّاس، ومن هنا نعرف أنّ مجتمع الاسلام هو مجتمع التّعاون والتّضامن والمحبّة، وأنّ كلّ خلل يحدث يجب أن تتضافر جهود الجميع؛ لإصلاحه وكلّ ثغرة تبدو فإنّ على الجميع – كلّ بما يستطيع-أن يعمل لسدّها: «كلّكم راع وكل راع مسؤول عن رعيّته»[1].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (2)﴾ [المائدة: 2]، ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (104)﴾ [آل عمران: 104].

والمصير الرّعيب في انتظار من يؤمن ولا يعطي يقتضي الإيمان عملا وجهدا﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (30) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (31) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (32) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (33) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (34) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (35) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (36) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ (37)﴾ [الحاقة: 30-37]، والعبادة

(1) متفق عليه، أخرجه البخاري ومسلم.

الإسلامية ذات بعد اجتماعي وإلاّ فهو المظهر الزائف ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (1) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (2) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (3)﴾ [الماعون: 1-3].

«من رأى منكم منكرا»[1]، والخطر فلا يصيب الظالمين وحدهم ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (25)﴾ [الأنفال: 25]، ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (78) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (79) تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (80) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (81) لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (82) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (83) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (84) فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (85) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (86) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ

(1) أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح، وأبو داود، والترمذي، والنسائي في السنن.

اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (87) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (88) لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (89)﴾ [المائدة: 78-89].

غرقت إسرائيل في المعاصي فنهتهم علماؤهم فلم ينتهوا فجالسوهم وواكلوهم وشاربوهم فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم... ثم جلس وكان متكئا وقال: و«الذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطرا»[1].

وبحماية الإنسان نفسا وعرضا ومالا يُصان من كلّ ما يمنع شخصيّته الإنسانيّة التي يعزّها الإسلام من النهوض بما ألقى الله عليه من الأعباء؛ ليصلح خليفته في الأرض بعمل بأمره ويعيش بنهجه، وبذلك يسعد الإنسان وبذلك تستقيم الحياة.

(1) أخرجه أبو داود، والترمذي في السنن.

الإسلام. . . دين الله الخالد ورسالته لعموم البشر

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (19) فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (20)﴾ [آل عمران: 19-20].

إنّ مفهوم الدّين هو الطّاعة والامتثال واتّباع الخط المستقيم الذي شرعه الله للناس كافة على لسان رسوله محمد ﷺ، وهذا يقتضي من المسلم الذي يدين بالعقيدة المنزّلة أن يلتزم بها قولا وعملا وسلوكا، أمّا الإسلام فمعناه التّسليم لله في كلّ أمر، وعدم المعارضة في أيّ ممّا شرعه لعباده على لسان رسله الكرام من أوّلهم إلى خاتمهم، الذي جاء للنّاس بكلمة الله الأخيرة وشريعته الكاملة، التي أتم الله فيها عليهم نعمته وارتضى لهم دينا لا يقبل منه غيره، وقد أعطى الإمام علي بن أبي طالب – كرم الله وجهه – تفسيرا جامعا لمفهوم الإسلام فقال: "الإسلام هو التّسليم، والتّسليم هو التّصديق، والتّصديق هو اليقين، واليقين هو الإقرار، والإقرار هو الأداء، والأداء هو العمل".

إنّ التّسليم يعني قبول كلّ ما أمر الله به ونهى عنه قناعة ورضا، وأن لا يبقى في الأنفس أيّ حرج إذا قضى الله ورسوله أمرا، وهذا لا يمكن أن يتحقّق في الإنسان إلاّ عندما يبلغ إيمانه مرتبة اليقين، وعندها تثبت في عقله ووجدانه فكرة أنّ للكون والإنسان والخلق جميعا إلها واحدا قادرا عالما

سميعا بصيرا متكلما، له الخلق والأمر وإليه يصير كلّ شيء، هو الأوّل والآخر والظّاهر والباطن وهو على كل شيء قدير، شرع لعبادة ما يعرّفهم بأصل تكوينهم ومعنى وجودهم ومنتهى أمـــــرهم، وينبّئهم أنّهم مسؤولون عن أعمالهم مسؤوليةّ دقيقة كاملة وهم مجازون عنها، صغرت أم كبرت، خيرا أم شرا ﴿**فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (8)**﴾ [الزلزلة: 7-8]، وأنّ كلّ الرّسل إنّما جاؤوا بدين واحد هو الإسلام، الذي هو وحده دين الله الواحد الخالد الذي لا يقبل من النّاس دينا غيره في الدّنيا، ولن ينال السّعادة في الآخرة من لم يلق ربه مسلما.

بهذا الاعتبار فلا أديان ولكن دين واحد تنزّل به الوحي على كل ّرسل الله، تباعا كما يؤلّف الكتاب أجزاء، ولمّا بلغت البشرية مستوى من النّضج أهّلها لتلقى المنهج الرّباني الكامل، جاءها في صورته الكاملة الشّاملة قرآنا عربيّا غير ذي عوج، حمله رسول كريم وألقاه في قلب رسول عظيم حمّله الله رسالته إلى العالمين، هذه الرّسالة التي تضمنها كتاب لا يأتيه الباطل من بين يده ولا من خلفه تزيل من حكيم حميد، كتاب وصفه السّيد الرسول ﷺ فيما رواه أمير المؤمنين علي - كرم الله وجهه - فقال: «فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم»[1]. وإذا كان القرآن بهذه المنزلة فإنّه لا يعقل أن يحتاج المسلمون في مجال بناء مجتمعهم على أساس من النّظرة التّاريخية الصّحيحة والصّادقة والتّخطيط القويم والسّليم لمراحل المستقبل، والمواجهة الجديّة الحازمة لمشاكل الحاضر أقول: أنّه لا يعقل أن تعوزهم الوسائل لتحقيق كلّ ذلك حتى يضطرّوا إلى الاستعانة من أيّ من تجارب

(1) أخرجه الترمذي، والدارمي في السنن، وأحمد في المسند.

البشر، ولديهم هذا الرصيد المذخور الذي قال عنه رسول الله ﷺ أنّه «لا تنفذ عجائبه»[1]، فالقرآن قادر على منحنا الإمكانات بشهادة رسول الله ﷺ وهو الصّادق الأمين المبلّغ عن ربّه، وربنا ﷻ فلِم لا يعتمد المسلمون هذا الكتاب مرشدا ودليلا في كلّ ما يواجهون من قضايا التّاريخ واحتمالات المستقبل ومجريات الأحداث في عصرنا الذي نعيشه؟

إنّ الذي يحتاج إليه المسلمون المعاصرون هو إيمان يبلغ مستوى أسلافهم، والثّقة الكاملة في إسلامهم الذي يجب أن ينطلقوا منه في شتى المجالات، وأن يعتبروه هو الحلّ الأمثل لمشاكل الإنسان في حاضره ومستقبله، كما كان حلاّ صحيحا وعادلا لقضاياالبشريّة في ماضيها، وأنّ التّمسّك بتلك القيم لا بدّ أن ينبثق عنه عمل التزامي بسلوك الخط الإسلامي، ذلك التّمسّك سيجلب للمسلمين نصر الله وتوفيقه، حين تحصل لهم ذات النّتائج التي حصلت لأسلافهم، وقد جرّبنا الإسلام روحا دافعة وقوة صامدة في عصرنا هذا، فلم يخذلنا أبدا ولنضرب مثلا بثورة الجزائر المسلمة، الثّورة التي ما نزال نعيش أبعادها وامتداداتها، أليست إسلامية؟ وهل اعتمدت قوّة غير قوة الإسلام؟ وهل تكلّمت بلغة غير لغة الإسلام؟ وهل جمع الشعب حولها تأييدا وتدعيما والتفافا غير الإسلام؟

وهل سمي المقاتل الجزائري بخير المجاهد والمجاهد في سبيل الله، باعتبار أنّ الجزائر هي جزء عزيز غال من دار الإسلام؟

إن شعبنا ما تحرّك إلاّ بالإسلام، وما ملأ قلبه حماسة واندفاعا إلى ساحات الفدى إلاّ الروح الإسلامية وحدها.

(1) أخرجه الترمذي، والدارمي في السنن، وأحمد في المسند.

وقبل قرون واجه **صلاح الدين الأيوبي** زحفا صليبيّا عالميا استهدف القضاء على الإسلام، فاصطدم بالصّخرة العاتية التي كسّرت شوكته وردّته خاسئا خسيرا، يجرّ قادته وجنوده أذيال الهزيمة والذّل بما كانوا يقترفون.

إنّ الإسلام ما يزال على عهد البشريّة به، ذلك المدد الرّباني الذي لا ينفذ معينه وطاقة لا تقلّ، وسيف لا يفل؛ لأنّه مستمد من القاهر فوق عباده، ومغالب الله مغلوب، وهذه المعاني يجب أن تعيش في عقول المسلمين ووجداناتهم، كما يجب أن تعلى عليهم كلّ مواقفهم ومعاملاتهم، وأن تكون الطّابع المميّز لكلّ سلوكا تهم، وبذلـــك تتحوّل إلى واقع عملي يحثّ ويتحرّك في الأرض، لا مجرّد نظريّات طائرة في الهواء هباء، أو معلومات تتشدّق بها الألسنة للتّباهي بما حصل عليه أصحابها من معلومات لا علاقة لها بواقع الحياة.

وعندما تتحوّل هذه المعلومات الصّحيحة إلى واقع عملي لا بدّ أن يشهد العالم مرّة أخرى عودة خير أمة وخير مجتمع وخير منهج، يبدّل الله به النّاس من عسرهم يسرا ويهيئ لهم به من أمرهم رشدا وإلى الإسلام من جديد.

الخلاصة:

- مفهوم الدّين ومفهوم الإسلام.
- مسؤوليّة الإنسان في أقواله وأفعاله.
- دين الله واحد لا يتعدّد.
- ما يحتاج إليه المسلمون.

- أثره في كلّ اجتهاد تاريخي.
- وجوب العودة إليه.

كفالة الحرية الإنسانية في المجتمع الإسلامي

الحلقة الثانية:

وهكذا كان الطّاغوت في كلّ عصر وجيل يحارب العقيدة الصّحيحة ويضطهد المؤمنين، ويضع كلّ العقبات في طريق الدّعاة إلى التّحرّر والتّنوير ليظلّ النّاس في جهالة بما يراد بهم وفي عماية عن رؤية الحقائق وبذلك -في وهم الطغيان- يتأبّد حكمه ويطول ليله إلى غير انتهاء غير أنّ سنّة الله في الأوّلين والآخرين قضت أنّ لكلّ شيء نهاية كما أنّ له بداية، وأنّ كلّ وسائل القهر والعسف التي يبتدعها الظّالمون عاجزة عن منع ما ينتظرهم من مصير رعيب ﴿**فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (52)**﴾ [النمل: 52].

الغريب أنّ المتحجرين من أهل البغي لا يتعظون بالأحداث، ولا يتعلّمون من دروس التّاريخ ولو فعلوا لعلموا صدق ما استخلص الشّاعر العربي القديم من حقيقة أبدية كابته حين قال:

والبغي يصرع أهله * والظلم مرتعه وخيم**

أعداء الإسلام هم أعداء الحرية:

إنّ الملخص الذي مرّ عن الفرعونيّة في مصر، وموقفها من النّبوية يشكّل صورة مشابهة لكلّ من عادى الإسلام، من قوى ظالمة تستبدّ بالإنسان وتكره تحرّره، ولقد خاض المجتمع الإسلامي في كلّ عهود التّاريخ -كما أسلف- معارك ضدّ أعداء تحرّر الشّعوب، وذاق دعاته مرارة النّضال في سبيل النّجاة من بأس الوثنية وجبروت الكفر، وهذا جعل المسلمين يتشبّثون

بالحريّة ويرفضون بيعها بأيّ ثمن وقد علّمهم دينهم ألاّ يقبلوا شيئا إلاّ إذا اطمأنت له قلوبهم وتقبّلته عقولهم، واستيقنت أنّه الحقّ.

فإذا كانت عقيدة الإيمان بالله وهو ربّ العالمين وخالق الكون كلّه لا تفرض، ولا يكره الإنسان عليها، فكيف يصحّ أن يجبر الإنسان على قبول ما يرفض عقلا ويكره قلبا، وذلك ما قرّره الإسلام بهذه الآية: ﴿**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (256)**﴾ [البقرة: 256] بهذا الإنسان المؤمن يجيء الحق ويزهق الباطل.

لكي تكوني مجاهدة كوني مسلمة.

نشرت جريدة المجاهد في العدد الصّادر بتاريخ الخميس 21/ 01/ 1982م مقالا بعنوان "**مجاهدة من شهيدات أربع مجاهدات**" جاء فيه: كيف يمكن للجزائر المقاتلة في سبيل الحرية أن تقبل بقانون يضع نصفها على الهامش، ويتنكر لهذا الشّطر قانون يجعل من المرأة شخصا قاصرا، ولم يأخذوا في اعتبارهم دور المرأة المجاهدة منذ 20 سنة، وهذا ينافي حقائق الوضع التّاريخي والاجتماعي للبلاد.

وشخصيتنا التّاريخية انطلاقا من الكاهنة ولا لا فاطمة انسومر... تبرهن على كفاحها في أوقات حرجة للحفاظ على الشّخصية الوطنية وتقاليدها في الحرب التّحريرية كان عملها حسما وهذا هو الجانب الأهم، ونحن على أبواب الاحتفال بالذّكرى العشرين للاستقلال، ثم ذكرت الخدمات التي قدّمتها المرأة للثّورة، إذا قبلنا بهذا القانون فمعنى ذلك أنّ البلاد ليست تقدّمية بل عادت إلى عهود الماضي حيث قيّدت المرأة، فهل

يعقل أن يكون هذا؟ ثم نأتي بتشريع يناقض إكرام الإسلام ويرفض العمل بها.

أليس معنى الدّين هو الدّينونة لله تعالى؛ أي طاعته والتزام ما شرع، وقد قضى الله بذلك في قوله ﷻ: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا (36)**﴾ [الأحزاب: 36].

أمّا الميثاق الوطني فقد نادى بالمساواة، ولكنه رفض المساواة الشّكلية المناقضة للمنطق السّليم والمنهج القويم.

وأخر نصيحة نوجّهها إلى الإخوة والأخوات الذين يخضون فيما لا يقدّرون خطورته على مستقبل الأجيال، وعظم التّبعة التي يلقون بها ربّهم أن ينصاعوا إلى قوله تعالى: ﴿**وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (31)**﴾ [النور: 31].

المجتمع كما أراده الإسلام

أيها الإخوة الكرام.

تحية من عند الله مباركة طيبة.

حديثي إليكم في هذه الحصّة موضوعه: "المجتمع كما أراده الإسلام" هذاالمجتمع الذي جاء الإسلام لبنائه بهدف إقامة الحياة المتوازنة التي تتجلّى فيها خصائص الفطرة التي فطر الله النّاس عليها وتتأكد فيها كرامة الإنسان؛ ضمانا للقيام برسالته المتفرّدة، والأنظمة الاجتماعية تختلف باختلاف فلسفاتها وأسسها الفكريّة، كما تختلف باختلاف أهدافها وغاياتها القريبة والبعيدة والمجتمع الإسلامي يتميّز في منهجه عن المناهج الاجتماعية حديثها وقديمها، فلا يقصر نظره على مطالب المادة ولا يسعى نحو رفاهية العيش، ولكنّه يقرن ذلك – بل يؤثر عليه – تمكين الإنسان من عبادة خالقة وتصحيح اتّجاهه في دنياه وتجنيبه الغواية والشّقاء، والآية الكريمة التي تصوّر ملامح المجتمع الإسلامي وخصائصه هي قوله سبحانه: ﴿**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (110)**﴾ [آل عمران: 110].

واستمدادا من نورها نستخلص مهمّة هذه الأمة التي أمر الله بإنشائها لتخدم البشرية قاطبة بالمنهج الرباني، القائم على تعبيد النّاسلخالقهم الحق وتخليصهم من الرّبوبيات الطّاغوتية، وتحرير وجدانهم من كلّ تسلّط يقيّد

إرادتهم ويعوقها عن الانطلاق حرة طليقة؛ لتؤدي دورها في التّحرير والتّنوير، تلك هي خلاصة الإيمان بأنّ "**لا إله إلا الله**".

ثم جعل الله للمجتمع المسلم إنسانا مختارا ليُقتدي به قولا وعملا وسلوكا في كل مجالات الحياة، وذلك مضمون الجزء الثاني من كلمتي الشهادة: "**محمد رسول الله**".

هذا الرّسول الذي عاش ثلاثة عشر عاما في مكّة المكرمة، بعد نزول الوحي عليه في حراء خلال تلك الفترة كلّها لم يتنزل من القرآن الكريم إلاّ ما يتعلق بهذا الهدفالأكبر من أهداف إقامة المجتمع الإسلامي؛ وهو تخليص الإنسان من الطّاغوت وتعبيده لربّ العالمين، اختصّ القرآن المكّي كلّه بأمر العقيدة، وبناء الوجدان الإسلامي وتركيز المبادئ التي نبتت عليها الأمّة التي قامت على الخير؛ لذلك وصفها الله بأنّها خير أمّة منوّها بخيراتها لا بقوّتها المادية ولا بغلبتها ولا بشدة بأسها وغير ذلك من النّعوت التي تعوّد النّاس في جاهليتهم أن يتفاخروا بها... هذه الأمّة مسؤولة عن إقامة مجتمع الخير بنشر ما جاء به الإسلام من تعاليم لا تصلح الخليقة إلاّ بها وذلك هو المعروف، كما أنّها مسؤولة عن منازلة الشّر والباطل في معاقلهما أينما وجدا بكلّ الوسائل المتاحة لديها، وذلك هو النّهي عن المنكر، وليكن ارتكازها وهي تبثّ دعوة الإسلام على الإيمان وحده الذي يضيء طريقها ويغذّي مصير جهادها؛ وبذلك برز مجتمع قائم على العقيدة، ليس مجتمع كلأ يتجمّع أفراده على مثل ما يجتمع عليه الحيوان الأعجم، وليس مجتمعا قصير النّظر يلفت إلى أحد جوانب الإنسان ويعشو عن أخطر الجوانب وأولاها بالاهتمام، عليه أن يحقّق قيام الحياة الإنسانية على الإيمان بالله والخضوع لإرادته والنّزول

على حكمه وابتغاء مرضاته، ثم يتّجه بالبشرية إلى أقوم ما يمكن أن يرقى إليه البشر ويسمو بها إلى آفاق الحياة الكريمة المتوازنة.

والإنسان في كلّ زمان بحاجة إلى المجتمع الذي يحول بينه وبين تدمير نفسه، والتّردي في مهاوي الشّقاء، وذلك ما يفهمه مجتمع الإسلام حين يقوم، إنّه يرسم للإنسان إطارا لا يتعدّاه يحرص فيه على إشباع ضروراته وتلبية نداء فطرته والارتقاء بالإنسان إلى الغاية التي رشّحته لها مواهبه وخصائصه... ثم يقوم حارسا عليه أن يطغى أو يحيد بوسائل عدّة فيها العظة والإقناع، وفيها كذلك الضّوابط والحدود، فلا يجد الإنسان أمامه إلاّ أن يسير في الطّريق المعبّد، دون أن تجرّه قدماه إلى المتاهات﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (153)**﴾ [الأنعام: 153].

وهذه الغاية من بناء الإنسان الصّالح من أهم غايات المجتمع الإسلامي التي يحثّ عليها القرآن ويوجّه إليها أنظار المسلمين في كل جيل، يقول ﷻ: ﴿**الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (40) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (41)**﴾ [الحج: 40-41]، ولنقف عند قوله تعالى: ﴿**الذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ**﴾ لنعرف أنّ الإنسان يكتسب قوّة من انتمائه للمجتمع لا يمكنه امتلاكها وهو متفرّد، كما نأخذ من الآية أنّ المجتمع الإسلامي يتحمّل مسؤولية الأخذ بيد كلّ فرد إلى ما يحسن، ودفعه

إلى تزكيّة نفسه قدر المستطاع، فهو بحق "مجتمع الإنسان" بكلّ ما في هذه الكلمة من معان وإيماءات.

ومن أهداف المجتمع المسلم إقامة العدل، وتلك ميزة لا يضاهي فيها منهج الله أي نظام عرفته البشريّة قديما وحديثا، لأنّ الذي وضع المنهج هو خالق الكون الذي هو ربّ الجميع، كما قال أمير المؤمنين عمر في رسالة إلى سعد بن أبي وقاص وهـــو يقود جيش المسلمين في فارس: "واعلم أنّه ليس لله عند أحد نسب ولا صهر..."، وقوله ﷻ في وصف ذاته العلية: ﴿**لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3)**﴾ [الإخلاص: 3]؛ إنّما يعني بالإضافة إلى تجريد الذّات الإلهية عن الشبه، إيحاء إلى النّاس بأنّ كلّ تشريع لا يأتي من الله فهو غير منزّه عن الحيف والظّلم؛ بسبب العاطفة التي لا تخلو منها نفس بشرية، عاطفة الأبناء نحو الآباء، وعاطفة الآباء نحو الأبناء.

والعودة المشرقة للحكم العادل في الإسلام أيّام رسول الله ﷺ وكذلك أيّام الرّاشدين، خاصة في عهود **أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وعمر بن عبد العزيز** رضي الله عنهم جميعا، ما كان لنكون كذلك لو لم يدن هؤلاء بالإسلام ولم يؤمنوا به يقينا، ولم تمتزج تعاليمه بضمائرهم ومشاعرهم ووجدانهم... حتى أصبحوا هم التّرجمة العمليّة للإسلام يراها الناس بأعينهم ويسمعونها بآذانهم ويلمسونها في واقع حياتهم، وذلك يغني عن كلّ الدّروس والشروح، ومن خصائص المجتمع الرّحمة؛ لأنّ الإسلام يبنى كيانه على أساس الأخوّة بين البشر وتكافل الأقوياء والضّعفاء، فلا يجمع بين قطعان متنافرة أو ذئاب متناحرة، بل يستثير في بني الإنسان أرقى وأندى ما تشتمل عليه نفوسهم من مشاعر يجعل من الغايات الرّوحية التي يلتقي عليها

أفراده سياجا يجمع بين النّاس برباط لا ينفصم: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (63)﴾ [الأنفال: 63].

ومن أهداف بناء المجتمع المسلم التّسوية بين النّاس في الحقوق والواجبات؛ وذلك بردّهم إلى حقيقتهم الكبيرة وإرجاعهم إلى أصلهم الواحد وهو الآدمية، بعيد عن كلّ تمييز عنصري أو طبقي: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (1)﴾ [النساء: 1].

يؤكّد الرّسول وحدة النّفس البشريّة، والأصل الواحد لبني الإنسان في خطبة الوداع الجامعة فيقول ﷺ: «النّاس لآدم وآدم من تراب، لا فضل لعربيّ على عجميّ، ولا لأبيض على أسود إلاّ بالتّقوى»[1].

ومن هنا فإنّ الإسلام لا يقرّ التفاوت بين البشر في التّقدير بسبب المولد أو الأصل أو اللّون أو الوراثة، فذلك الاختلاف في الأنساب أو

(1) أخرجه أحمد في المسند، وعبد الله بن المبارك، والحارث في المسند، ولفظه عند أحمد: «يا أيها الناس ، ألا إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا أحمر على أسود ، ولا أسود على أحمر ، إلا بالتقوى أبلغت " ، قالوا : بلغ رسول الله ، ثم قال : " أي يوم هذا ؟ " ، قالوا : يوم حرام ، ثم قال : " أي شهر هذا ؟ " ، قالوا : شهر حرام ، قال : ثم قال : " أي بلد هذا ؟ " ، قالوا بلد حرام ، قال : " فإن الله قد حرم بينكم دماءكم وأموالكم " قال : ولا أدري قال : أو أعراضكم ، أم لا كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا أبلغت " ، قالوا : بلغ رسول الله ، قال : " ليبلغ الشاهد الغائب».

الأجناس أو الألوان لا يصلح أن يكون داعيا للاختلاف في الحقوق والواجبات ما دام الأصل الواحد يجمع بين النّاس جميعا.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13)﴾ [الحجرات: 13].

ومن أهداف المجتمع المسلم تحرير الإنسان أي إعطاؤه حقّ الاختيار وتخليصه من كافّة الضغوط التي تخنق حريته وتعطّل مواهبه، ولن يتمكّن الإنسان من تحرير نفسه إلاّ بالالتجاء إلى خالقه والاعتصام بمنهجه، وفي ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (13)﴾ [الجن: 13]، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (28)﴾ [الرعد: 28].

والمجتمع الإسلامي هو المؤهّل وحده لردّ العدوان وقمع الطّغيان، وتلك رسالة الرّسل من أوّل الطّريق ورسالة المؤمنين في باقي الطّريق؛ لقوله تعالى: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44) قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (45) قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (46) فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى (47)﴾ [طه: 43-47].

وعلى هذا الدّرب سار الرّسل وأتباع الرسل يجاهدون لرفع الظّلم عن المستضعفين وكسر قيود المستعبدين، وتأكيد حقّ الإنسان أن يحيا وعقيدته

دون إكراه وعن رضا واقتناع مهتدين بقول الله ﷻ: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا (75) الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (76)﴾ [النساء: 75-76].

أيّها الإخوة، تلك بعض الأهداف التي جاء الإسلام لتحقيقها في واقع الحياة تأمينا لكرامة الإنسان، وإبرازا لشأنه وسيرا به نحو الهدف الأمثل؛ وهو تحقيق خلافته لله في الأرض، والتزام العدل لا يمكن أن يكون في غير ما أنزل الله، الذي ليس له مع أحد علاقة خاصة من الود، تجعله يميل إليه ولا إحنة من العداء تجعله يميل عنه، فهو ربّ العالمين جميعا والخلق كلّهم عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله، والمستوى الرّفيع من العدل الذي شرعه الإسلام لا يمكن تحقيقه إلاّ بمنهج الإسلام ذاته، لنتأمّل هذا الأفق الرّفيع من العدالة فيما حمله الوحي وبلغه المصطفى ﷺ متمثّلا في هذا النّص من كتاب الله الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (8)﴾ [المائدة: 8].

إنّ الأفق الذي بلغه الإسلام في مجال العدل لا يمكن تقييمه إلاّ عندما يجسّده الإنسان في التّطبيق، وعنده يعرف المرء أي رجال لنتهم الدّعوة الإسلامية، أولئك الذين جنّدوا أنفسهم لتحويل الآيات إلى حقائق ماثلة تعيش في واقع الحياة، لا مجرّد شعارات تُقال أو لافتات ترفع، إنّ الإسلام

يأبى أن تقول ولا تفعل ونعني ولا نلتزم، والتزام الرسول ﷺ وكذلك الثلة الأولى من الصّحابة الأكرمين -رضي الله عنهم- بتطبيق كل ما جاء في المنهج، هو الذي جعلهم ينساحون في الأرض ينشرون الهدى ويدكّون معاقل الباطل، لا ترهبهم الجيوش ولا تقف في وجههم الحواجز والسّدود، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل، وأوّل دم أبدأ به **دم عامر بن ربيعة بن الحارث**، وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السّدانة والّسقاية والعمد قَوَدٌ وشبه العمد ما قتل العصا، وفيه مائة بعير فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيها الناس:

إنّ الشيطان قد يئس أن يُعبد في أرضكم هذه، ولكنه قد يرضى أن يُطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم، أيّها النّاس إنّ لنسائكم عليكم حقا، ولكمعليهنّ حقّ، ألا يوطئن فُرشكم غيركم ولا يدخلن أحدا تكرهونه بيوتكم إلاّ بإذنكم ولا يأتين بفاحشة، فإن فعلن فأنّ الله أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن في المضاجع وتضربوهنّ ضربا غير مبرح فـــــإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهنّ وكسوتهنّ بالمعروف فاتقوا الله في النّساء واستوصوا بهن خيرا ألا هل بلغت؟، اللهم أشهد.

أيّها النّاس:

إنّما المؤمنون إخوة ولا يحل لإمرىء مال أخيه إلاّ عن طيب نفس منه، ألا هل بلغت؟ اللهم أشهد.

أيّها النّاس:

إنّ ربّكم واحد وإنّ أباكم واحد، كلّكم لآدم وآدم من تراب، إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي فضل على عجمي إلاّ بالتقوى، ألا هل بلغت؟ اللهم أشهد فليبلغ الشاهد منك الغائب.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الفرد والمجتمع في الإسلام[1]

في عالمنا المعاصر اتّجاهان متعاكسان، أحدهما يخضع للأفراد الذين يمتلكون رؤوس الأموال التي يذلون بها رقاب النّاس ويتحكمون في مصائرهم ويمتهنون كراماتهم الآدمية.

أمّا الاتّجاه الثّاني فيعتمد النّظام المجتمعي الذي يهتم فقط بما يراه مصلحة للمجتمع ضاربا صفحا عن إرادة الفرد واختياره ومشيئته، فأين يقف الإسلام من هذين الاتّجاهين؟

إنّ المنهج الإسلامي فريد، وهو يتّسم بالتّوازن والوسطيّة، فالفرد في الإسلام مسؤول عمّا يقول وعمّا يفعل، وحرّ في اعتماد ما تطمئنّ به نفسه ويقتنع به عقلـــــه ﴿**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (256)**﴾ [البقرة: 256]. ﴿**وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (29)**﴾ [الكهف: 29]. ﴿**فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (8)**﴾ [الزلزلة: 8].

والفرد في الإسلام محترم دمه وماله وحرمة بيته، فإن رأى حقّا أيّده وإن رأى باطلا نقده، وهو يجهر بكلمة الحقّ دون الخوف من أحد، مثلما فعلت المرأة المسلمة التي واجهت أمير المؤمنين بالمعارضة، عندما أمر بتقليل

(1) حديث ديني سجل للتلفزيون صباح يوم: 14 يونيو 1891م.

المهور إلى حد يستطيع كلّ شخص أن يتزوّج، دون أن يعجز عن المهر، فنهضت تلك المرأة لتقول لأمير المؤمنين: "أخطأت يا أمير المؤمنين إن الله ﷻ يقول: ﴿**وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (20)**﴾ [النساء: 20].

يا أمير المؤمنين أيعطينا الله قنطارا وتعطينا أنت أربعة دراهم، أجاب عمر "أصابت المرأة وأخطأ عمر" "ما أفقه النّاس؟ وما أ جهل عمر".

إنّ الفرد المسلم مكرّم وكذلك الفرد الإنسان مهما تكن عقيدته ونحلته، مرّ أمير المؤمنين عمر برجل يهودي يتسوّل فسأله عن الدّافع فأجاب: "يا أمير المؤمنين الحاجة والجزية والسنّ"، قال عمر لأمين بيت المال: "أنظر لهم ما أنصفناه إن أكلنا شيبته ثم تخزه عند الهرم"، والأمثلة كثيرة إذا تمادينا عرضها، وإنّما نجتزي بها على سبيل التذكير، وبناء عليه يجب التّنبيه إلى أنّه لا ولن يسمح الإسلام للفرد أن ينال من كرامة المجتمع يشيء إلى حقوقه فهو – أي الفرد- غير مفصول عن مجتمعه، بل هو جزء لا يتجزّأ منه كعضو في جسم حي، فلا ينبغي لهذا العضو أن يتصرّف بمعزل عن سائر الأعضاء؛ لأنّها ستتأثّر بما يفعل حسنا وسوءا، لنضرب مثلا بموقف الإسلام من السّفيه إلى الشخص الذي لا يحسن التّصرف في أمواله، وحتى ولو كانت تلك الأموال ملكا حلالا اكتسبه بجهده وعمله، أو صار إليه إرثا شفيه، إنّه عندما يتبيّن المجتمع سفاهة هذا المالك فإنّه يجب عليه أن يضرب يده ويحجر عليه التّصرّف في أمواله، وهذا إجراء معروف في الفقه الإسلامي ومنصوص عليه في باب المحجور ومصدره كتاب الله عز وجل ﴿**وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ**

الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا (5)﴾ [النساء: 5].

ونتأمل قوله تعالى ﴿**أَمْوَالَكُمْ**﴾ في حين أنّها أموالهم هم؛ لأنّ كلّ ضرر ينتج عن سوء التّصرف في الأموال إنّما يعود على المجتمع؛ ولذا وجب عليه التدخل لمنع ذلك، كما أنّ كلّ تصريف حسن لها يستفيد منه، ولذا وجب عليه تشجيع ذلك، هذا هو الاتّجاه السّليم المتوازن الذي يستهدف خير الجميع ويمنع الشّر حيثما كان. والفرد إذا صلح، صلح به المجتمع، إذا فسد لم يبق المجتمع بمعزل عن آثار فساده، ودور الفرد في بناء المجتمع الأمثل الذي استهدفه الإسلام دور مذكور، ولا مجال لإنكاره أو لإهداره، إنّ الرّسول ﷺ فرد مختار حمله الله رسالته وليس كل فرد صالح يحمل رسالة الله، ﴿**وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ (124)**﴾ [الأنعام: 124]، ودور رسول الله ﷺ في تبليغ الرّسالة وقيادة المجتمع فريد، فلو لم تكن له مؤهّلات الرّسول وخصائص القائد ما استطاع أن ينجز ما أنجز، ولنقل مثل ذلك في العهد الرّاشدي، إنّ موقف **أبو بكر الصديق** رضي الله عنه في تنفيذ بعث أسامة، قمع الردة، وفي إعادة مانعي الزّكاة إلى الجادة مشهود، وما كان يمكن أن يتأتى لأحد غير أبي بكر أن ينجز ذلك.

إنّ موقف عمر في إبراز تلك الصّنوف من العدل الرّائع، الذي أذهل العالم قديما وما يزال مفخرة التّاريخ الإسلامي حديثا، ما كان أن يكون لولا شخصيّة عمر، لنذكر له مثلا عزل "**خالد بن الوليد**" وهو في أوجّ انتصاره

دون أن يهاب شيئا، ثم موقف خالد نفسه وهو ينفّذ أمور عزله دون أن يثير شغبا ما كان لرجل آخر غير عمر أن يتصرّف هكذا دون أن يخشى شيئا، وما كان النّاس مثل هذا المجاهد الذي يضع عقيدته وأمّته في كلّ اعتبار.

إذن لا بدّ من فرد ممتاز يكون في مستوى المسؤوليّة التي تلقى على الأفراد لقيادة المجتمع، ومن ناحية أخرى نرى دور المجتمع الذي يبرز هنا في الوقت ذاته، إنّ رسول الله ﷺ ما كان لينجز شيئا لولا أن أيّده الله بنصره والمؤمنين أي بالمجتمع المؤمن﴿**وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (62) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (63) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (64)**﴾ [الأنفال: 62-64].

إنّه مجتمع فريد تتركز خصائصه حين يؤمن بربه ويلتزم بنهجه، لو فرضنا أنّه لم يكن للرّسول ذلك المجتمع المؤلَّف من المهاجرين والأنصار الذين آمنوا... ونصروا، هل كان يمكن أن يتحقّق ما تحقق؟ هل كان يمكن لأبي بكر الصديق تسيير الجيش وقمع الردّة وإعادة الوحدة الإسلامية وقهر العصيان لو لم يكن معه مجتمع كوّنه الرّسول ﷺ وأعدّه لكلّ موقف؟

إنّ العلاقة بين الفرد والمجتمع تكاملية وتوازنية في آن واحد، فلا نجاح للفرد إلاّ في مجتمع متلاحم ويتلاءم معه، ولا استقرار لمجتمع لا يحس أفراده بوزنهم، ولا يعتزّون لكرامتهم ولا يمارسون حريتهم في حدود القيم السّامية والمثل العليا التي يلتزم بها المجتمع، فلا فرد يتجاهل مصلحة المجتمع ولا مجتمع يهين كرامة الفرد.

إنّ الأصل في الوجود هو الفرد، ولكن الفرد بمجرّد وجوده أحسّ بحاجته إلى مجتمع، فيتزوج وعندها انطلق في البناء الاجتماعي بدءا في إنجاب الأطفال، وبناء الأسرة واستمرار في البناء إلى تكوين الأمّة الموحّدة ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (1)**﴾ [النساء: 1].

هذه بعض الملامح التي تُميز منهج الله المتفرد المتوازن الذي لا يجد النّاس سعادتهم إلاّ في ظله بعيدا عن التّعسّف والشّطط يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

من الخصائص المميزة للمجتمع الإسلامي"المثالية"

إنّ المنهج الإسلامي قد وضع القواعد الرّاسخة للحياة الإنسانية في شتى مجالاتها، فنراه في أمر العقيدة قد ركّز أوّلا على القاعدة الكبرى التي منها يجب أن تنطلق كلّ الأعمال، وإليها يرجع الأمر كلّه، وهي الرّبانية ثم تقدم خطوة عمليّة محو التّنفيذ العملي، فعجل للنّاس مثالا للاقتداء والاهتداء، هذا المثال يتشخص في رسول الله ﷺ الذي أدّبه فأحسن تأديبه وأعدّه خير إعداد ليصبح المثل الأعلى للخلق جميعا، ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (21)**﴾ [الأحزاب: 21].

وقد عاش الرّسول ثلاثة عشر عاما في مكّة يبلّغ دعوة الإسلام في ظروف شديدة العُسر، تعلّم المسلمون أثناءها كيف يلتفّون حول القيادة المثالية مؤمنين صامدين وملتزمين أحرارا، وعندما تلقّى الرّسول ﷺ الإذن بالهجرة أخذ ينشئ المجتمع الجديد بأسلوب جديد، وأخذ يحوّل المجموعة إلى نواة للأمّة العالميّة التي أمر الله بإنشائها، فانطلقت من هناك وتحرّك الزّحف من مدينة الرّسول ليعم أقطار الأرض بعد ذلك في ظرف زمني جدّ يسير.

إنّ ما حدث كان عمليّة رائدة تَعلَّم العالم منها كيف يتحوّل المبدأ إلى واقع حتى يتحرّك ويعيش على الأرض، وإنّ لا قيمة لأيّ فكرة إذا لم تنفذ، وقد قال أمير المؤمنين **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه في رسالة **أبي موسى الأشعري**- رسالة في القضاء-: "فإنّه لا ينفع تكلّم بحقّ لا نفاذ له".

إنّ هذه القاعدة قد تعلّم العالم منها الكثير، إنّنا نجد الآن كل الأنظمة تعمل في هذا الاتّجاه مهما كانت نظريّاتها، فهو يبدأ ببثّ هذه الفكرة أوّلا

حتى إذا نشأت نواة جيل مقتنع بها أخذت في تطبيق المرحلة الثّانية وهي تحويل الفكرة إلى واقع عملي؛ وهو ما يسمى في مجال التّكوين بمرحلتي النّظريّة والتّطبيق.

والفترة التي عاشها الرسول ﷺبمرحلتيها المكيّة والمدنيّة استطاعت أن تغطّي كلّ ما يحتاجه المجتمع من قواعد التّكوين في مجالي النّظر والتّطبيق، فقد عرف المسلمون من خلال المواقف النّبوية كيف ينشرون دعوتهم في قلّة الأنصار وكثرة الأعداء، وكيف يواجهون الطّاغوت المتجبّر المدعّم بكلّ الإمكانات الماديّة والبشريّة، ثم كيف يمدّون الدّعوة إلى خارج الحلقة الطاغوتية المحكمة، وكيف يحافظون على وحدة الصّف رغم محاولات التّفكيك والتّشتيت، ثم كيف يجمعون حصيلة تلك التّجارب لتكون لهم عُدّة للمراحل اللاّحقة وثروة يورثونها للأجيال القادمة.

وعندما أصبح للمسلمين كيانهم المستقل في المدينة، شاهدوا مكائد اليهود ومكرهم ودسّ المنافقين وخبثهم، وتجمّع المشركين وحصارهم، وتألّب الأعداء وزحفهم... فكانوا في كلّ تلك المواقف والمشاهد يلتفّون حول رسول الله ﷺ في حبّ واقتداء، يتلقفون كلّ كلمة يلفظها ليحوّلوها فورا إلى عقيدة راسخة، وكل أمر يُصدره ليشق طريقه إلى التّنفيذ، وأخذوا يمطرون رسول الله ﷺ بالأسئلة الجادة قصدوا منها أن يتحوّلوا من مجتمع الجاهلية إلى مجتمع الإسلام، لا الأسئلة الهازلة التي لا تدلّ في أغلب الأحيان إلاّ على الفضول أو ما يسمى عند بعضهم بالتّرف العقلي؛ لذلك حفلت الفترة الإسلامية الأولى بعد الهجرة بأسئلة المسلمين والمسلمات التي زخرت بها آي الكتاب المبين؛ وهي تأتي على هذه الصيغة: "ويسألونك...علما بأنّ المجتمع

هو نفسه الذي أراد أن يغيّر حياته ويبني، نفسه على المبادئ الجديدة التي اقتنع بصلاحيّتها واقتنع بجديتها ووثق في القيادة الصادقـــة التي دعت إليها، وبدأت بنفسها فطبّقتها بكل ما فيها من تكاليف ومسؤوليات، وهكذا كان التّلاحم والتّلاؤم من القدوة والاقتداء والدّعوة والاهتداء.

وبدراسة السّيرة النبوية الشريفة نعلم أنّ القيادة النّبوية كانت مختارة من الله؛ لتعليم النّاس كيف تكون الصّلة بين الأمّة الإسلامية وأولياء أمورها، فالرسول ﷺ بالإضافة إلى تبليغ الوحي كان يتولّى مسؤولة القيادة في كلّ مجالاتها، فهو رئيس الدّولة وهو منفذ الشّريعة وهو القاضي الأوّل، والمرجع الأخير في كلّ ما يحدث من طوارئ وما يعرض من قضايا، وما يجد من ظروف، وقد عاش فترة كانت كافية لتغطية كلّ الجوانب المتعلّقة ببناء ذلك المجتمع الإنساني الفريد، إنّ مواقف الرسول ﷺ تضيء لنا الطّريق كمسلمين لمواجهة كلّ الظّروف التي تعرض لنا.

قبسات من رسول الله:

هذه بعض المشاهد من حياة رسول الله ﷺ كمثال يجب أن يتبع:

1- في الثّبات على المبدأ مهما كانت الظّروف عندما قال له عمه: "هون عليّ يا ابن أخي، ولا تكلّفني من الأمر ما لا أطيق، وأنّ قومك يسألونك أن تكفّ عنهم ولا تعرض لآلهتهم بسوء"، كان جواب الحبيب رسول الله ﷺكالآتي: «والله يا عمّ لو وضعوا الشّمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته»[1]،

(1) أورده ابن هشام في السيرة النبوية، والبيهقي في دلائل النبوة.

هل هناك ثبات أثبت من هذا؟ وفي ظرف يميل فيه النّصير إلى المهادنة... فإنّ موقف رسول الله ﷺ تعلمنا ألا مساومة على المبادئ مهما كانت الصّعاب ومهما كانت النّتائج أيضا.

2- في تطبيق القانون على الجميع: خطب رسول الله ﷺ خطبته الأخيرة بعرفات في حجته التي سميت حجّة الوداع، وممّا جاء في هذه الخطبة الجامعة: «إنّ كلّ ربا الجاهلية موضوع، وأبدأ بربا عمي العباس فأضعه تحت قدمي»[1]، وفي هذا ما يقطع بأنّ لا محسوبية ولا قرابة ولا صداقة أو عداوة تجعل حقّا من الحقوق معطّلا أو حكما من أحكام الله عرضة للتلاعب أو إساءة التنفيذ، فعندما سرقت امرأة مخزومية وكان الحدّ هو قطع اليد -كما هو معروف- فزع جمع من بني مخزوم إلى حِبّ رسول الله، وهو أسامة يسألونه أن يشفع للمرأة المخزومية الشّريفة عند رسول الله ﷺ حتى لا تقطع يد امرأة شريفة، فيكون ذلك سبة لقومها حسب العادات الجاهلية، ولكن رسول الله ﷺ كان حاسما في ردّه على أسامة، فقال له: «أتشفع في حدّ من حدود الله يا أسامة؟ إنّما أهلك الذين من قبلكم كانوا إذا سرق فيهم الشّريف تركوه وإذا سرق فيهم الضّعيف أقاموا عليه الحدّ، فو الذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»[2]. وهذا نموذج فريد من العدل لا يرقى إليه إلا من هدى الله قلبه ومن أهدى قلبه من رسول الله؟

(1) أخرجه مسلم في الصحيح، وأبو داود، وابن ماجة في السنن.

(2) متفق عليه، أخرجه البخاري ومسلم.

وحتى يفهم النّاس أن تلك القمّة الشّامخة لا يرقى إليها أحد غير الرّسول ﷺ ونهج الخلفاء الراشدون الخط ذاته، فلم يتخلّ الصديق ولا الفاروق ولا عثمان ولا علي -رضي الله عنهم- عن أي من القيم الثّابتة التي أمر بها رسول الله ﷺ بأمر من الله في أنفس المؤمنين والمؤمنات؛ ولذلك سجّل التّاريخ لهم من ضروب العدل وصور النّزاهة المثلى، ما يصلح أن يكون منارة تهتدي بنورها الأجيال عبر العصور من كان يستطيع أن يبلغ مثل هذا الشأو الذي بلغه عمر حين يحاسب واليه على مصر على زوج من الأحذية وجده فيقول له: إنّك عندما خرجت من المدينة لم يكن عندك إلا زوج واحد، فكيف استطعت أن تملك الآن زوجين، وأمر فوضع الزّوج الثّاني في بيت المال، من يستطيع أن يبلغ شأو علي حين وجد درعه مسروقة عند يهودي، فوجد السّارق الذي أنكر أنّه سرق فيأخذه إلى القاضي... وعندما طلب القاضي من المدعي بينة تثبت دعواه، والمدعي هو أمير المؤمنين علي، لم يكن عنده بينة إلاّ شهادة ولديه الحسن والحسين، ولكن القاضي رفض شهادتهما لصالح أبيهما بالرّغم من أنّهما سبطا رسول الله ﷺ وسيدا شباب أهل الجنّة، كما ورد في حديثه الشّريف، هذه القضية أقنعت اليهودي الذي بعد خروجه من المحكمة بأنّ هذه الأمة المسلمة هي الأمة الربّانية التي يجب أن يدخل فيها كلّ من يؤمن بالله واليوم الآخر فلحق بالإمام وقال له: "اعترف يا أمير المؤمنين بأنّني سرقت درعك وأنت منطلق من صفين، وأنّي أشهد بأنّ لا أله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فقال له الإمام أمّا إذا أسلمت فهي لك".

وحتى لا يظنّ النّاس أنّ مجتمعا في هذا المستوى إلاّ سمى ما العدل والعفّة والنّزاهة والصّدق مع نفسه ومع الله ومع النّاس، مقصورعلى الفترة

النّبوية الرّاشدية إلى جعلها الله للنّاس دليلا بشريّا آخر على أنّ الإيمان بهذا المنهج الفريد والالتزام به إذا وقع في أيّ زمان وفي أي مكان يمكن أن يبرز للعالم مجتمع الإسلام كرّة أخرى وإن طال الزّمان وتوالى الحدثان، وهذا **عمر بن عبد العزيز** قد ظهر بعد أن كاد النّاس ييأسون من عودة الحقّ إلى نصابه، وها هو يعيد الحياة إلى مجاريها فيرى النّاس حكم الرّاشدين ويطبّق المنهج الذي ردّ المظالم وبعث المكارم، وبدأ بنفسه وبزوجه فألزمها طريقا في العيش، هو نسخة من سيرة رسول الله ﷺ والرّاشدين الأوّلين وأقام العدالة الاجتماعية الشّاملة في كلّ المجالات، ويكفي شاهدا ما أثبته التاريخ في بلدنا هذا المغرب الإسلامي، كما كان يدّعي آنئذ فقد خرج عاملو الزّكاة يحملون أحمالا من الذّهب ليوزّعوها على مستحقيها، فطافوا البلاد طولا وعرضا فلم يجدوا فقيرا يأخذ الزكاة، وقالوا: "إنّ عمر بن عبد العزيز أغنى النّاس بعدله"، والحقيقة أنّ عمر بن عبد العزيز نفّذ شريعة الله التي قامت على العدل فأغنى النّاس عن التماس الحلول لمشاكلهم من شرق أو غرب، فقد تغذّو من الشّجرة المباركة التي وصفها الله تعالى بأنّها لا شرقية ولا غربيّة فكفتهم ثمارها وأشعّت عليهم أنوارها، فعاشوا آمنين مهتدين فإلى هذه القمة الشّامخة ندعو النّاس في هذا العصر، والحمد لله رب العالمين.

في المجتمع الإسلامي

خصائصه وأوضاعه

نظرة عامة بين يدي البحث

من المفاهيم التي نشطت –وما تزال– أجهزة التّنصير والتّهويد لترسيخها في أذهان الأجيال الإسلامي المعاصر، القول بأنّ الإسلام كان عامل تخلّف الشّعوب المنتسبة إليه، حيث منعها من أيّ تطوّر افترضته التّغيرات المتلاحقة التي يشهدها عالمنا المعاصر، وأسفنا يخنق الصّدر حين نسمع من بعض أبناء وطننا الإسلامي ممّن يحسبون من مثقّفيه، بل من أعلامه عند بعضهم من ينساق مع هذا التّيار، فيستدرك كلّما عرض للحديث عن الفكر الإسلامي، أو تناول قضيّة من قضايا الإسلام المعاصرة؛ حيث يستدرك قائلا ماثلا: نحن لا نعني بالعودة إلى الإسلام التمسك بالقديم والرجوع إلى الأخذ بالنظريات الجامدة التي أكل عليها الدهر وشرب، كان الإسلام إذا ذُكر لابدّ أن تحضر معه هذه الاعتبارات، فيسرعون لأجل ذلك إلى التّبرّؤ منها حتى لا يُتّهمون بضيق الأفق وتحجّر الفكر... ممّا لا يرتضيه لنفسه المثقّف المستنير، إنّ الذي يقول هذا هو أحد اثنين:

أمّا أوّلهما: فهو الذي لا يعرف عن الإسلام إلاّ ما صَوِّر له خصوم الإسلام، فهو يردّد ما لقّنوه دون تحقيق ولا تدقيق... وأمّا الثّاني: فهو ذلك الذي يتعمّد التّضليل والتّجهيل انتماءً إلى الجبهة المعادية، التي لا تريد للإسلام عودة إلى واقع الحياة؛ لأنّ ذلك معناه احقاق الحق وإزهاق الباطل... إنّه لمنطق غريب أن يتجاهلوا عيوب الاتّجاهات المعاكسة الأخرى،

مع قيام العديد من البراهين المنطقيّة والوقائع التّاريخيّة شاهدا على بطلانها وزيفها وتناقضا مع الفطرة التي فطر اللّه الإنسان عليها، تلك النّظريّات التي يجب أن تدمغ بالجمود والتّحجّر؛ لأنّها عادت بالبشر إلى جاهليتهم الأولى التي لا تقيم وزنا لغير الاعتبارات الماديّة الآنية التي اسموها مصالح، ضاربين صفحا عن القيم السّامية التي تعلو بالإنسان؛ بغية الرّقي به إلى كماله الإنساني... كأنّ الجمود والتّخلف وما إليهما شيء ملازم للإسلام يحلّ معه حيث حلَّ، ومن قال بهذا أيهّا النّاس؟ إنّهم الذين لا يريدون للإسلام أن يعود ولا لمبادئ الإسلام أن يبنى عليها المجتمع من جديد، ولا لشريعته أن تحكم البشر كما أراد الله؛ لأن في كلّ ذلك إحقاقا للحقّ وإزهاقا للباطل، وإذا جاء نصر الله بطل نصر معدل من العبوديات التي تستبدّ به... إنّ السّر في التّغيّر الإسلامي الشّامل هو البداية من الدّاخل، أي من النّفس البشريّة، فإذا تغيّرت العقليّة وانبثقت عنها أفكار جديدة، وتحوّلت الأفكار إلى مواقف وأعمال... ذلك ما فعله الإسلام حين حرّر النّفس البشريّة من العبوديّة لغبر الله وسما بها إلى عبادة الله، وبذلك تحرّر الإنسان من كافة الضّغوط التي تخنقه خوفا وطمعا، حين يحول هذين الشّعورين اللذين سيعيدان الإنسان إلى ربّه تعالى، فلا يخاف غيره ولا يرجو سواه، فيبعد على أساس الخوف من عذابه والرّجاء في رحمته، هنا يتغير الإنسان بما يُعد بحق تغيرا ويقوى على أن يحول شيء إلاّ ما هو من النوع الثابت الذي أراد له الله الرسوخ والاستقرار، هذا الذي قلقه إنما استمداد من قوله عز وجل: ﴿**لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (11)**﴾ [الرعد: 11]، والتّغيير ذو حدّين، كما يكون من سيّء إلى حسن ومن

حسن إلى أحسن، يكون من حسن إلى سيّء فأسوأ كما يكون لمن آتاه اللّه آياته فينسلخ منها، كما قصّ الله علينا في كتابه العزيز: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (53)**﴾ [الأنفال: 53].

إنّ سبب تخلّف الشّعوب في الوطن الإسلامي: هو نبذ العمل بالإسلام في العديد من مجالات الواقعيّة والانبهار ببريق الحضارة الغازية، وبذلك حدث انفصام خطير بين المثال والواقع، وتمزّقت وحدة المسلمين وتفرّقت كلمتهم فتنازعوا ففشلوا، وذهبت ريحهم وتمكن منهم عدوّهم، فغزا الدّيار واحتلّ الأفكار، وتمكّن من إحلال ثقافة محلّ الثّقافة الإسلاميّة، مدعّما مفاهيمه بالقوى المادية مدينة عسكريّة، وطبيعي أن يتلهّف المغلوب لاقتفاء خطوات الغالب، كما قرّر العالِم الاجتماعي (**عبد الرحمن ابن خلدون**) وكما جاءت النّهضة المعاصرة التي أفاضت بدوي الحرب العالميّة الأولى، وجدت شعوب الوطن الإسلامي أمامها جبالا من المشاكل تراكمت منذ تخلّت الأمّة المسلمة عن مركز قيادتها وتولى القيادة فيها من انحرف بها إلى سبل الغواية، وانسلخ من آيات اللّه وتنكّر لمنهجه، إنّه من الظّلم وقول الزّور عن الدّعوة... إلى تجاهل الإسلام بحجّة أنّه لا يقوى على مواجهة مشاكل العصر؛ لأنّ الوضع القائم في العالم حاليا ليس من فعل الإسلام، وبالتّالي فهو غير مسؤول عنه جملة وتفصيلا، لأنّه كان غائبا عن كلّ مكان يحدث منذ عدّة قرون، فَلِمَ نُحَمِّله مسؤوليّة المساوئ النّاشئة من أوضاع استبداديّة زائفة ما أنزل الله بها من سلطان.

هذه الكلمة ضرورية قبل أن أتناول بالدرس ما علمنا الله من خصائص المجتمع الإسلامي كتابا وسنة وما سجلته لنا صفحات الواقع التّاريخي عندما قامت لأوّل مرّة في تاريخ البشرية أمة وحضارة تعانق فيهما وحي الله مع عقل الإنسان ، فاللهم عونك وتيسيرك.

أملنا في السيد وزير الشؤون الدينية الذي أحيا سنّة حسنة، له أجرها وأجر من عمل بها، وهي إصدار الجريدة "الأسبوعية" التي تحمل الفكر الإسلامي إلى الناس من جديد وتحاول تفقيههم في دينهم ودفع الشبهات عنه، أملنا أن يجعل الله عهده هذا عهد يُمن وبركة على الدّعوة داخل الديار وخارجها لنتل قوله عز وجل: ﴿**وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (82)**﴾ [الإسراء: 82].

إنّه استمداد من كلمة الله هذه فإنّ علاج كلّ الأدواء التي أصابت وما تزال البشريّة في مجموعها والمنتسبين إلى الإسلام خاصة-عقابا على الانسلاخ – إنّما هو الاستشفاء بالمنهج القرآني ذلك الذي غيّر الوضع كلّه يوم وجد من يـأخذ به إيمانا وعملا؛ بتحويل الآيات إلى مواقف وأعمال انطلاقا من جزيرة العرب القاحلة الجرداء وواد غير ذي زرع... التي –بكلمة الله- تحوّلت إلى قاعدة تفجّر منها الينبوع الثّري الذي تدفّقت خيراته وبركاته، فغمرت قارات الأرض وسطع منها نور الله فأضاء العلم، وبرزت شخصيّات بطلة في مختلف مجالات الحياة قدرت على تغيير مجرى التّاريخ، وبجهد تلاميذ تعلّموا عن أستاذ أمي رسول الله ﷺ، حيث علّم العلماء وآتى الحكماء ورسم معالم الطّريق للعظماء... فأخرج لنا خير أمّة آمنت بالله ودعت إلى الحق ودحرت الظّلم وسحقت الباطل، وعلّمت الأجيال... أيّ

تطور وتغير في الدنيا القديمة والحديثة يقرب ولو في بعض وجوهه من الانقلاب الشامل الذي أحدثه الإسلام؟ إنّ السّر في ذلك كامن في أنّ الإسلام لا يغيّر السّطوح ويهمل الأعماق، إنّ التغيير الإسلامي إنّما ينبع من الدّاخل–أي من النّفس البشريّة – يجب أن تتغيّر أي تتحرّر من العبودية لغير الله ولا شيء يحرّر الإنسان إلا إذا انعتقت نفسه.

منطق غريب: لماذا لا نتحدّث عن الجمود والرّجعية عندما نتناول أيّ نظام غير ما شرع الله منهما للنّاس، مع العلم بأنّ العديد من تلك النظريات أنّما ترجع بالنّاس إلى الجاهلية الأولى التي لا تقيم وزنا إلاّ للاعتبارات المادية، الآنية التي يسمّونها مصالح، ولا تعير أي اهتمام للقيم الرّفيعة التي تسمو بالإنسان بغية الوصول به إلى كماله الإنساني؟.

غريب أمر هؤلاء والله، ألم يعرفوا أنّ سبب تخلّف النّاس في الوطن الإسلامي إنما مرده إلى نبذ العمل بإسلام في كل مجالات التّشريع، وأخذهم مناهج الحياة من أعداء الإسلام؟ أيّكون الإسلام مسؤولا عن جبال من المشاكل تراكمت بفعل المنحرفين عنه والمتنكرين له والمنساقين خلف عجلة الانصراف والانحراف؟ إنّه من الظّلم وقول الزّور القول: بأنّ المسلمين لو عادوا إلى الإسلام فإنّهم بالإسلام لا يقوون على مواجهة الوضع المعاصر، إنّ هذا الوضع ليس من فعل الإسلام وليس مسؤولا جملة وتفصيلا عن مساوئه، فلِمَ لا نحمل التّبعة على من كان السّبب في نشوء هذا الوضع ونقول أنّ العلاج هو ذلك الذي أوحي به الله ﷻ إلى خاتم رسله محمد ﷺ؟

هذه كلمة لا بد منها

أحسست وأنا أتناول قضيّة المجتمع الإسلامي –خصائصه وأوضاعه– بضرورة تقديم الموضوع بكلمة موجزة لإلقاء نظرة عامّة عن الوضع الذي آل إليه المسلمون بعد النّوم الطّويل، والآفاق التي يتطلّع إليها جيلنا المعاصر... وهو المطلوب منه لنصل عربتنا بأخواتها في القطار الإسلامي الذي انطلق في مسيرة إنسانية زاحفة على طريق الدعوة إلى الله التي يجب أن تستمرّ إلى أن يتحقّق بحول الله الهدف الإسلامي المنشود، فتنتهي القطيعة بين الأرض والسّماء ويتعانق وحي الله مع عقل الإنسان... حتى لا تكون هناك فتنة ويكون الدّين كلّه لله.

شعرت أنّ واجبي إلقاء نظرة عامة عن الوضع المعاش مقارنا بما كان عليه السلف، وذلك بإيجاز شديد محاولة لاستكشف الآفاق التي نتطلع في هذا الجيل وما هو المطلوب منه حتى يقوى على وصل العربية بأخوتها الطويل الذي امتد إلينا منطلقا في مسيرة إنسانية زاحفة انطلت من عهد رسول الله.

أثر المرأة المتعلمة في بناء الأسرة والمجتمع

إنّ المرأة باعتبارها الجزء الآخر من الكيان الإنساني مسؤولة بالدّرجة الأولى عن تخريج الدفعات تلو الدفعات، من القوّة الحيّة العاملة لتشييد المجتمع الأمثل، الذي أراد الله أن يقوم حين أنزل على أعظم رسول ﴿**وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (104)**﴾ [آل عمران: 104].

فهذا التّكوين الذي صدر بشأنه الأمر الإلهي المتضمّن في هذا المقطع من آية الله ﴿**وَلْتَكُنْ**﴾: لا يترك مجالا لأيّ شكل من أشكال الرّيب في أنّ الإنسان الذي تلقى رسالة الله، وتعهد بحملها ونشرها، ودعم هذا النّشر في آفاق الكون الرّحيب، يجب أن يعي مسؤوليّاته تجاه الدّعوة لبناء المجتمع الأمثل، ويضع القواعد وينتقي اللّبنات، ويحشد الطّاقات الفاعلة حتى يرتفع البناء شامخا في سموّ وعزّة نحو أعلى ذروة يمكن أن يرتقي إليها الطّموح الإنساني.

وإذا كان المرء لا يقوى على وضع منهاج سليم لحياته، هدم بالتالي لحياة من تصله بهم آصرة ما، إلاّ إذا تأمّل ووعى، فإنّ المرأة على هذا المنطق الذي لا يقبل الرّخص، يجب أن تعقل نفسها وتعي دورها الطّبيعي، الذي أوكله الله إليها باعتبارها "حارسة الجنس البشري وشطر النفس الإنسانية" وراعية العشّ الذي تدرج فيه الطّفولة، والأمينة على النّفس عناصر هذا الوجود..."الإنسان".... وأنّ عملها في إتقان هذا العنصر لا يعدّ له عملها في

إتقان عنصر آخر أو أي جهاز... إلى آخر هذه الاعتبارات الإنسانية الكريمة...".

ويجب أن تعقل أيضا أنّ الصلة بين الجنسين، كما يريدها المنهج الإلهي الذي هو الإسلام "هي أداة لخدمة النّوع البشري، بإنشاء المحصن الآمن النّظيف الواعي المتخصّص، لإنتاج صناعة البشر، وهي أثمن وأغلى صناعة في هذه الأرض ، واعتبار "الواجب" لا اللّذة هو عماد هذه العلاقة؛ لتعلق المستقبل البشري كلّه بها، وقيام التمدّن البشري عليها...".

التعلم سبيل الوعي:

فإذا علمنا أنّ أوّل كلمة في دعوة الله إلى الإنسان للاهتداء هي "اقرأ" أيقنا أنّ سبيل الله القاصد هو التّعلّم، وبه نصل إلى علم سالم... وفتح الأبواب المقفلة وريادة الآفاق التي ظلّت مجهولة، وهو السّبيل الوحيد لا غيره الذي يصل بالقوافل إلى غاياتها البعيدة وأغراضها السّديدة؛ وبذلك نخلص إلى أنّ تعليم المرأة لا مناص منه، وأنّ ما يشكو منه المهتدون من الانحلال الأخلاقي، والتّدهور المعنوي والانحراف عن نهج السّماء، ليس مردّه أساساً ومبدأ إلى التّعلم ذاته؛ ولكن إلى القيم التي يعلمها المرء وخاصة المرأة، وإلى المعلّمين الذين قاموا بالتّأدية، وإلى المنهج التّعليمي الذي طبّق معها، فليست النّتائج السيّئة التي نتجت عن العصر الموسوم "بالعلم" عائدة إلى العلم نفسه كفكرة، ولكن إلى نوع المواد العلمية التي تُعلمّتْ، وإلى التّوجيه الأخلاقي الذي ساير مراحل التّعليم، وإلى القائمين على تطبيق المنهاج المسطر.

فالعلم نور أودعه الله الإنسان، وهو سلاح ذو حدّين يمكن أن يضئ إذا أريد به "النور"، ويمكن أن يشعل إذا أريد به "النار" وحتى استعمال "النّور" و "النّار" يختلف "نفعا" و "ضرا" و"خيرا" و "شرا" باختلاف نيّة المستعمل؛ فالنّور الذي تضاء به بيوت الله، خير وهداية، و"النّور" الذي تضاء به "المواخير" "شرّا و وفجور" و"النّار" التي تسلّط أفواهها على معاقل الظّلم والفساد والعدوان، حق وعدل، والنّار التي تهلك الجنس البشري وتحرق الدّور على رؤوس ساكنيها من الآمنين السّالمين "ظلم واعتدت" وقل مثل ذلك في "الذرة" "مكتشف هذا العصر" التي بالإمكان تدمير الحضارة الإنسانية بها، إذا استعملتها اليد الآثمة المجرمة، ويمكن توفير الحياة الرّغدة الهنيئة للجنس البشري بواسطتها إذا سخّرت للأغراض السّلمية، وكذلك تعليم المرأة، فماذا أنتج للدّينيا يوم كانت المرأة المسلمة، تتلقّى الهداية ممّا أنزل الله، وتتسلّح بالمعرفة التي هي ضياء الله في أكوانه؟ إنّها انتجت لنا الصّناديد الذي خلّدت أسماؤهم في التّاريخ، عبر الأجيال وما يزالون منائر هدي للبشريّة الحائرة، إنّ عائشة أم المؤمنين -رضي الله عنها- تلك التي قال بشأنها رسول الله ﷺ: «خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء»[1] نارت بعلمها وآرائها الصّائبة في شتى مجالات الحياة قطاعاهاما من أمة الأمجاد والمفاخر، أمّة الصّدر الأوّل للدعوة الإسلامية .

ويمكن أن يقال الكثير عن شخصيّتها الفذّة، التي أسهمت في أكثر من مجال من مجالات الحياة العامة للدّولة الإسلامية العظمى، حتى بلغ فيها الأمر

(1) أورده ابن كثير في النهاية في غريب الأثر دون إسناد.

إلى قيادة جيش سار فيه الجلة من رجال الدولة، لمعارضة "خلافة الإمام" – كرم الله وجهه–.

والعظمة التّاريخية لابنة النبيﷺ **فاطمة الزهراء** –قدّس الله روحها–، لا يمكن أن تجحد، تلك المرأة التي وصفوها بأنّ لها شخصيّة شديدة الشّبه في العديد من السمات بشخصيّة أبيها المنقذ الأعظم ﷺ، ولا شك أنّ عائشة ما كنت لتصل إلى ما وصلت إليه إلاّ بتلقّي العلم والمبادئ الأخلاقية عن أبيها أوّلا، وعن زوجها الرّسول آخر الأمر، وما برزت فاطمة على النّحو الذي عرفت به إلاّ لتكوين أبيها العظيم، وسهر زوجها الكريم على صيانة التّعاليم المحمدية، وتنمية المحصول العلمي والأخلاقي في شخص زوجته البتول، التي أخرجت للأمّة الإسلامية أبطال الجهاد والاستشهاد من أجل المثل الرّفيعة والقيم العليا، والتّضحية بالنّفس وكلّ عزيز لا من أجل الصّالح العاجل، ولكن من أجل المجد الخالد، والعظمة التاريخية، أمثال **الحسين** أب الشّهداء، ومن انحدر من صلبه من الأبطال والشّهداء عبر سلسلة ممتدّة الحلقات في التّاريخ الإنساني المجيد.

وزينب بطلة كربلاء التي مجّد التاريخ بطولتها المعجزة، إنّ شخصية الزهراء استطاعت أن تشعّ بأضوائها وإسهاماتها أحقابا تاريخية، حتى نشأت دولة تحمل اسمها، نشرت الدّين في مشرق العالم الإسلامي ومغربه، ــ وخاصة في هذا الأخيرــ و أسرّت على تغيير مجرى التاريخ.

ولا أحسب المرأة التي كوّنت للأمة الإسلامية العربية **صلاح الدين الأيوبي** قاهر العدوان الصّليبي على الأرض المقدّسة، ومعيد المجد التاريخي

للأسلاف الخالدين، شيئا غير ذي بال، فإذا كان من شبّان التّربية والتعليم أن يكون لنا نساء يخلفن الخالدات، اللاّئي كان من أثر تكوينهنّ التّربوي والّتعليمي صنع أجيال، برز فيها من مجري الأحداث، ووجّهوا الجموع البشريّة وجهة رشيدة نحوالمثل التي تكرّم الإنسان وتعلّي قدره، وترفعه فوق السّخافات التي حيث أراد له الله أن يرتفع عقلا وخلفا؛ ليحقّق الهدف الذي من أجله خُلِقَ فوق هذا الكوكب، فأهلا بالتّربية والتّعليم للمرأة المسلمة التي لا تتنكّر لماضيها الحضاري، ولا تتخلّف في الوقت ذاته عن المستويات العقلية التي بلغتها نساء العالم المتمدّن، بل تتفوّق عليها حين تقيم أسس ثقافتها على مثلنا الأخلاقية وقيمنا العليا الزّاخرة بالتّعاليم؛ التي من شأنها إبراز خير قادة يضيؤون الطّريق في وجه القوافل البشريّة الزّاحفة أماما نحو عالم أفضل سعيد، وأنا لا أقول ذلك اعتباطا من غير رؤية، ولا استمداد وإنّما استقي ذلك من معين ما أنزل الله حيث يقول: ﴿**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (9)**﴾ [الإسراء: 9].

القرآن الذي رفع من قدر العلم والعلماء درجات بشرط واحد وهو أن يكون ذلك العلم مسبوقا بعقيدة إيمانيّة راسخة.

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (11)**﴾ [المجادلة: 11].

القرآن الذي وضع الجنسين معا على صعيد واحد في مجال الحقوق والواجبات، فجاء فيه: ﴿**فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (195)**﴾ [آل عمران: 195].

ولا يليق مطلقا بالمرأة المسلمة أن تعجب بالحضارة الإفرنجية إعجابا مفرطا؛ تلك الحضارة التي إن أفلحت في ميدان العلوم المادية، فهي قد أفلست إفلاسا ذريعا في ميدان "علوم الإنسان"؛ فهي لم تفهم حقيقة النّوايا الإنسانية ولا خصائص هذا النّوع، ومن ثمة لم تقدر أن تعطي له ما يلائمه ويضمن له طمأنينة النّفس وراحة الضّمير، كما أنّها على جهل مطبق بمصير هذا الكائن الإنساني، ذلك المصير الذي لا يدريه إلاّ من خلق الإنسان وعلم كنهه وقرر مصيره ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115)**﴾ [المؤمنون: 115].

إنّ العديد من علماء الغرب الذين نشؤوا في ظلّ المدينة الحديثة وترعرعوا في وسطها، اقتنعوا خيرا بإفلاس هذه المدينة خلقيّا وروحيّا، وأعلنوا اعترافهم بذلك صراحة... نذكر منهم العالم الكبير أكسيس في كتابه: .. الإنسان ذلك المجهول" وقد بداه متحدثا عن مخالة البشر كما يسّميه "القوانين الطبيعية ويسمّيه الإسلام: ﴿**فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا**

تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (30)﴾ [الروم: 30]، فيقول في مقدمة كتاب الآنف الذّكر:

"قبل أن أبدأ هذا الكتاب، كنت أدرك تماما صعوبة هذا العمل بل استحالته تقريبا، ولكنّني شرعت فيه لأنّني كنت أعلم أنّ شخصا ما سيؤدّيه... لأنّ النّاس لا يستطيعون أن يتبعوا الحضارة العصرية في مجراها الحالي؛ لأنّهم آخذون في التدهور والانحطاط".

لقد فتنهم جمال علوم الجمال، إنّهم لم يدركوا أنّ إحساسهم وشعورهم تتعرّض للقوانين الطّبيعية، وهي قوانين أكثر غموضا، وإن كانت تتساوى في الصّلابة مع القوانين الدّنيوية، كذلك فهم لم يدركوا أنّهم لا يستطيعون أن يعتدوا على هذه القوانين، دون أن يلاقوا جزاءهم، ومن ثم يجب أن يتعلّموا العلاقات الضّرورية للعالم الدّنيوي ولا ترابهم أبناء آدم؛ ولذا تتم الدّاخلية، وتلك التي تتّصل بشخصيتهم وعقولهم، فإنّ الإنسان يعلو كلّ شيء في الدّنيا، فإذا انحطّ وتدهور، فإنّ جمال الحضارة بل حتى عظمة الدّنيا المادية لن تلبث أن تزول وتتلاشى... لهذه الأسباب كتبت هذا الكتاب...

ويقول عن خطر التّدهور الأخلاقي في الحضارة الإفرنجية: "إنّ الصّفة الغالبة على الفرد في الحضارة العصريّة؛ هي الإفراط في النّشاط الذي يوجّه كلّه نحو الجانب العملي من الحياة، كذا يتّصف الفرد بكثير من الجهل وحدٍّ معيّن من الذّكاء، وأيضا بنوع من الضّعف العقلي، الذي يتركه تحت تأثير البيئة، التي يتّفق وجوده فيها... ويبدو أنّ العقل نفسه لا يلبث أن يستسلم حين تضعف الأخلاق".

إذن... وجب على المرأة في العالم الإسلامي، أن تتجنّب هذا الوباء الذي بدأ يحسّ به أبناء وبنات الحضارة الماديّة، التي علمت الكثير وجهلت كلّ شيء عن حقيقة الإنسان وكنه ذاته وحقيقة مصيره.

في الوقت الذي تقبل على النّافع من علوم وثقافات العصر، فتجمع بين الحسنين وتتجنّب السّرور المزالق، وبذلك لا تحلقه المرأة العصرية المتفوّقة علما وثقافة فقط، بل تتفوق عليها حيث تبدو في حلّة رفيعة الجمال من الخلق السّياسي إلى جانب العلم الذي يضيء لها معالم الطريق، بذلك وبذلك فقط يمكنها أن تسهم مع الرّجل المسلم في استعادة المجد التّاريخي لخير أمة أخرت للناس.

هذا ويسعدني أن أختم كلمة بجزء من فقرة وردت في مقال كتبه أستاذنا الإمام عبد الحميد بن باديس -رحمه الله- في مجلة الشّهاب، وذلك منذ ستّ عشرة سنة في موضوع تعليم البنت المسلمة، قال:

"فاستنادا إلى هذه الأدّلة من الكتاب والسنة، علينا أن ننشر العلم بالقلم في أبنائنا وبناتنا، في رجالنا ونسائنا، على أساس ديننا وقوميّتنا إلى أقصى ما يمكنها أن نصل إليه من العلم، الذي هو تراث البشريّة جمعاء، وثمار جهادها في أحقاب التّاريخ المتطاول، وبذلك نستحقّ أن نتبوّأ منزلتنا اللاّئقة والتي كانت لنا بين الأمم".

إصلاح ذات البين

مقدمة: إنّه من الواجب الذي سنسأل عنه يوم القيامة، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم، أن نتصدّى للنّزاعات والخصومات فلا ندع أفاعيها اللاّذعة تتحرّك، ولا نترك عقاربها اللاّسعة تدبّ؛ بل علينا ونحن المسلمون نرجو رحمة ربّنا ونخاف عذابه أن نقف لها بالمرصاد فنقضي عليها في مهدها، وإذا قّدر لها أن تكون –كما هي سنّة الله في بني البشر – فمن الواجب المفروض علينا أن نسعى متكاتفين متعاونين جاهدين للقضاء عليها ولقطع دابرها، وواجبنا الدّيني والاجتماعي يفرض علينا أن نرأب الصّدوع، ونرتق الفتوق ونأسى الجروح؛ وذلك بإصلاح ذات البين، فنحلّ الوفاق محلّ الخلاف، ونعوّض الكراهية بالمحبّة والعداوة بالأخوّة، قال تعالى: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (1)**﴾ [الأنفال: 1]، وبإصلاح ذات البين تتحقّق الأخوة الإسلامية التي كانت حقيقتها يوما دعاء باللسان ولا شعارا يخفي تحته البغضاء والشّنآن.

لكن إصلاح ذات البين فخيره عميم ينتظم البلاد والعباد، هو بلسم يداوي المشاعر، ويطهّر القلوب وهو الوافد الكريم إذا حلّ في المجتمع بالهناء والسّعادة، يمتّن العرى ويوثق الصّلات ويلمّ الشّتات، فتقرّ به العيون، وتهدأ به النّفوس، ويطمئن القريب إلى قريبه، ويميل فؤاد المؤمن إلى أخيه المؤمن، فيصبح النّاس بنعمة ربهم إخوانا، ويستظلّ الجميع تحت ظلّ الطيّب الندي، ويستنشقون عبيرها الزّكي.

اللهم أصلح رشدنا وصوابنا، اللهم طهِّر قلوبنا من السّقائم، وألسنتنا من قول الزّور والشّتائم.

اللهم أصلح ذات بيننا وألّف بين قلوبنا وأهدنا لسبل السّلام، ربّنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم.

إي والله أيها الناس، إنها لتحلق الدّين بما تنشأ عنها من صراعات ونزاعات وشجار وخصومات، أليس عندما يتنازع الخصمان يظنّ كلّ بصاحبه الظّنون التي تذهب به كلّ مذهب سوء؟ ويهيم مع تلك الظنون في كلّ واد، حتى إذا هوت به في مكان سحيق وتغلغلت في قلبه وأخذت قراراها في أعماق نفسه، وأعمت بصره و بصيرته عن كلّ شيء إلاّ عن عيوب ونقائص خصمه، وأصمّت أذنيه عن كلّ قول إلاّ عن عيوب ونقائص خصمه، وأصمّت أذنيه عن كلّ قول إلاّ عن نميمة ساخنة مسخنة ينقلها إليه نمّام كائد مهين، قام المسكين هائجا كالذي يتخبّطه الشّيطان من المسّ، وشرع ينتهك حرمات خصمه بل أخيه، ينتهكها بالتّجسّس عليه، يتصنّت أخباره، ويحصي له أنفاسه، متدخّلا فيما لا يعنيه، ثم يطلق لسانه فيه بالغيبة، وبالسبّ وشتى اللّعنات، ويوغل في شتم عرضه بالبهتان، ألم يكن بهذه الأشياء قد حلّق دينه؟ إن لم يكن اقتلعه من جذوره، وقد أمرنا تعالى باجتناب هذه الموبقات وقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (12)**﴾ [الحجرات: 12].

ومن وساوس النّفس التّسلّي والتّلهّي لتعمير الفراغ فتغرينا بالغيبة نتفكّه بها حلوة لذيذة، وما يشعر صاحبها أنّه وآكلي لحوم البشر في منزلة سواء ﴿وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (12)﴾ [الحجرات: 12].

و من وساوس النّفس الحماس الأهوج والأعوج، وقد يكون هذا الحماس للتّمويه والتّضليل، فإذا أوحت إلينا شياطين الإنس والجن زخرف القول من التّهم والافتراءات، نشرناها مقرونة بالسّب واللّعن؛ ظانّين أنّ تلك هي الغيرة على دين الله، كلّ ذلك وكأنّ الذي انتهى إليه علم النّاس هو أنّ الشهوة المحرّمة هي شهوة الفرج والبطن فقط، أمّا شهوات اللّسان فمباحة طيبة لا حرج فيها.

فإذا كان الولد يولد إلى النّور والى الحياة المبتسمة الضّاحكة، فالولد منهم يولد إلى الظّلام والحياة الحالكة، وإذا كان الولد منّا يرضع اللّبن سائغا بين أحضان الأمن والهناء، فالولد منهم يرضع الهموم والأحزان لبنا يتجرّعه ولا يكاد يسيغه، ويأتيه الموت من كلّ مكان ويتهدّده، وإذا كان الولد منّا يولد فتتلقّاه القطن اللّينة الطّرية، فالولد منهم يولد فيلقه العراء بحرّه أو قرّه، أو تتلقّاه الأرض القاسية، التي تهمس له في أذنه أنا ارحم بك من قلوب، ستلقى بها هي أصلب منى وأقسى، وإذا كان الولد منّا يولد فتنعم أذناه بعبارات التّهاني ونغمات الزّغاريد، فإنّ الولد منهم يولد فتصكّ أذنيه زمجرة الرّياح العاتية، وعواء الوحوش الضّاربة، وطلقات الرّشاش المسعور، وعويل الأمّهات المسلوبة، ونواح العمّات والخالات المنكوبة، وإذا كان أوّل ما ينطق به الولد عندنا كلمة « أمي» متمتّعا بدفئها وحنانها وبكلمة «أبي» مستمتعا

برنتها ومحتميا ومتباهيا بقوّتها، فان أوّل عبارة يقولها الولد منهم ليتني لم أولد، ليتني لم أكن شيئا، حتى إذا كبر وترعرع وجد نفسه في جو خانق يقبض أنفاسه، ويكم فاه قائلا له: "لا حقّ لك في الحياة"، ثم هو يمني بعد ذلك بتشريد أمّه وقتل أبيه، ولا يلبث أن يرث منهما غير الخسف والهوان.

هذه هي حالة أجيال متعاقبة من البشريّة المعذبّة على أرض فلسطين المغصوبة، لا ذنب لهم إلاّ أنّهم قالوا: الله ربنا والإسلام ديننا، ولا جريرة لهم إلاّ أنهم قالوا: فلسطين وطننا وهي ملكنا وملك آبائنا وأجدادنا.

محمد الأكحل شرفاء

نظام التعاون في الإسلام

السّادة أصحاب الفضيلة العلماء

أيها الإخوة في دين الله

تحية من عند الله مباركة وطيبة.

اسمحوا لي أوّلا أن أتقدم باسمي ونيابة عن الأخ (**عبد الرحمن شيبان**) وزير الشؤون الدينية بالتّحيّة لجميعكم وشكرا على تقديم الدعوة إلينا للحضور في ملتقاكم هذا الموقّر والرّجاء أن يكلّل الله أعماله بالتّوفيق.

أيّها الإخوة لقد كتب الله لي مرافقة هذه اللّقاءات من أولى خطواتها والتّحدث فيها جميعا، والحمد لله والشّكر له، والتّقدير لكم على ثقتكم ووفائكم... وقد اخترت ضمن الموضوعات المدرجة في جدول الأعمال: "نظام التّعاون في الإسلام".

إنّ التّعاون نزل بشأنه وحي حملته إلى الناس آية الله البينة في سورة المائدة، في قوله تبارك وتعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آَمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (2)**﴾ [المائدة: 2].

فمن خلال هذا النّص نعلم أنّ قيام المجتمع التّعاوني هو إرادة إلهيّة، وأنّ المسلم لا يملك إلاّ النّهوض بما يريده الله منه قياما بمسؤوليّاته الإسلاميّة التي التزم بها طمأنينة واقتناعا، وبالتّالي فهو مهيئ للعمل الإسلامي أنى كان وحيثما كان، ثمّ إنّ هذا التّعاون لا يكون إلاّ في الإطار الذي حدده القرآن الكريم وهو البّر والتّقوى، وآية البر التي حدّدت في الوقت ذاته "لمن هم المتقين" توجد في سورة البقرة وهي التي عرّفها السّلف الصّالح من الصحابة الكرام -رضي الله عنهم- "بجُمَّاع البر"، ونصها: ﴿**لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (177)**﴾ [البقرة: 177].

وما يجب أن يكون عليه من منهج عمليّ قويم وسليم، وذلك من قوله تعالى: ﴿**وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**﴾

هذا المجتمع الايماني العملي التّعاوني أبرزه الرسول ﷺ وهو المبعوث بالمنهج الإلهي تبليغا أمينا وعملا أسويا، كما أمره الله بذلك في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ**

وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (67)﴾ [المائدة: 67].

وكما حدّد لنا صلته بنا ومسؤوليتنا نحوه بقوله تبارك وتعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (21)**﴾ [الأحزاب: 21].

هذا المجتمع الذي أشرت إليه هو مجتمع المدينة المنوّرة عند وصول رسول الله ﷺ إلى يثرب مهاجرا، وهو بحق وصدق مجتمع الإيمان والإخوّة الإيمانيّة والتعّاون الإسلامي بأصدق وأعمق معانيه.. وهذه آية الله البينة تسجّل ذلك وتضعه مثالا اقتدائيا لمن يلي من الأجيال المسلمة، ولمن يأتي من البشر كافة.

إنّه -أيّها الإخوة- بإمكاننا أن نقدّم لكم بعض المشاهد من الحياة المطّهرة للرّسول الأعظم ﷺ؛ لتروا مصداق ما أشرت إليه، ولتروا أنّ ما يفعله البعض من الاشتراك في أعياد الميلاد مثلا داخل وخارج الوطن، حيث يحدث في الاحتفال ما يخالف ديننا ولا يناسب أخلاقنا بمولد السّيد المسيح عليه السلام وهو رسول الله البريء من كلّ ما يُنسب إليه ممّا أشرت إليه، قلت: إنّ ما يفعله هؤلاء إساءة إلى ديننا لا يعبّر عن شخصيّتنا وحضارة أمّتنا وتضحيّات شهدائنا في سبل أن تعود هذه الأمّة إلى أصالتها مسلمة عربيّة مطهّرة.

وكذلك القول بالنّسبة للذين يستنكفون أن يراهم النّاس في صلاة أو صيام، أو في زيّ وطني، فيخجلوا أن يرفضوها بالّتخلف عن ركب الحضارة، في حين نرى الشّعوب العريقة في الحضارة قديما والمتفوّقة في حضارة العصر علما تقنية وتطورا، مثل اليابان هل هناك من يقول: إنّ اليابان متّخلفة؟ إنّهم يحتفظون بزيّهم وعادتهم موروثاتهم، ويعتبرونها من مقوّمات حياتهم، إنّنا أيّها الإخوة أملك في هذا لو اطّلعنا على ما نتجه فكرنا داخل الوطن الجزائر أو في أرجاء البلاد الإسلامية، لعلمنا أننا بحمد الله أغنياء بما لدينا من تراث عظيم، فمنذ 53 سنة نشر في السّبعينات مقال عن معنى الأعياد دينية ووطنيّة وقيمتها وأثرها في دعم وحدة الشّعوب وعزتها وكرامتها لو قرأنا هذا الفصل وحده لأغنانا عن كلّ ما قلناه الآن.

مسؤولية الأمة

﴿**إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (92)**﴾ [الأنبياء: 92].

إنّ الله ﷻقد عهد إلينا أن نبني أمّة وفق المنهج الموحى به من رب العالمين؛ بدليل قوله ﷻ ﴿**وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (104)**﴾ [آل عمران: 104].

إنّ صيغة ﴿ولتكن﴾ تعني أمرا بالبناء، وهنا تتحدّد المسؤوليّة على من تولّى أي شأن في المجتمع أن يبذل الطّاقة لقيام هذا المجتمع الذي أمر الله بإبرازه، وإنّ هذه المسؤولية تتصدّد في هذه العناصر: أو بعبارة أدق في المجالين: الأمر بالمعروف، ويعني الدّعوة والتشييد لنظام مجتمعي يلتزم كل ما شكّل له من إنجازات في مجال العلاقات بينه وبين خالقه وبينه وبين نفسه وبينه وبين أهله، وبينه وببين المجتمع ككلّ في المحيطين الدّاخلي والخارجي بلديا وعالميا، يهتدي في كلّ ذلك بما شرعه له الخلاّق من خطة وذلك ما يجده في الكتاب، وما بيّنته السنّة وما ثبت من خلال الممارسة خيره ونفعه .

أمّا النّفي فهو التّحذير من المخاطرة التي تهدّد حريّة الإنسان، وتنال من عزّته وتهدّد كيانه الإنساني وتشيع الدّمار والخسار في محيطه ويبعده عن هداية ربه.

وفي ذلك التّحذير والتّرهيب من الامتناع عن تغيير المنكرات، والسّماح للرّذائل بالتفشي في أوساط المجتمع؛ وذلك ما يجلب غضب الله

ودمار العمران ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (78) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (79)﴾ [المائدة: 79].

وفي ذلك بيان نبوي شريف، قال رسول الله ﷺ: «غرقت إسرائيل في المعاصي فنهتهم علماؤهم فلم ينتهوا، فواكلوهم وشاربوهم وجالسوهم، فضرب الله رقاب بعضهم ببعض ولعنهم على لسان داوود وعيسى ابن مريم" فهو الذي نفس محمد بيده، لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر، ولتأخذن بيد الظّالم فاطرنه على الحق أطُراً، وليقصُرنّهُ على الحق قُصراً، وليقْربنَّ الله رقاب بعضكم ببعض، ويلعنكم كما لعن بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم»[1]، وهنا تتحدّد مسؤولية كلّ فردٍ حسب طاقته ومستواهُ.

وللعلماء في ذلك توضيحٌ، وممّا قالوه: إنّ الأمر هو مسؤولية الحاكمين؛ لأنّ لهم قدرةٌ على التّنفيذ ووسائل لحمل النّاس على الجادّة، هذا فيما يخصّ الشّأن العام، وأمّا فيما يتعلّق بالشّأن الخاص فإنّ على كّل مسلم خالص

(1) أخرجه أبو داود، والترمذي، وابن ماجة في السنن، ولفظه عند أبي داود: « إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل ، كان الرجل يلقى الرجل ، فيقول : يا هذا ، اتق الله ودع ما تصنع ، فإنه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد ، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض " ، ثم قال : لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم إلى قوله فاسقون ، ثم قال : " كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يدي الظالم ، ولتأطرنه على الحق أطرا ، ولتقصرنه على الحق قصرا».

للإسلام أن يجسّد إسلامه في سلوكه الشّخصي، وعلاقاته الاجتماعية؛ وفي ذلك قوله ﷺ: «من رأى منكم منكرا، فليغيّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[1].

وللعلماء في ذلك أيضا قول:

وهو أنّ التّغيير باليد من مسؤوليّة السّلطان، وأمّا التغيير باللسان من مسؤولية أهل العلم والذّكر، حتى لا يختلط الحقّ بالباطل بما أوتوا من علم وفقه في دين الله، وأما التّغيير بالقلب، فهو مسؤولية كلّ مؤمن صادق الإيمان؛ لأنّ العقيدة لا تقوم في مجال الواقع إلاّ بالتطبيق العملي، وفي ذلك جميع ما ورد من نصوص في الكتاب والسنة، فكلّما جاء في القرآن ذكر للإيمان إلاّ وجاء بعده ذكر للعمل ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (97)**﴾ [النحل: 97].

(1) أخرجه مسلم في الصحيح، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجة في السنن.

العبادة . . وبناء الشخصية الإسلامية المتميزة

للإسلام خصائص ومميّزات في كلّ المجالات، وقد تفرد بذلك عن كلّ ما عرف ويعرف النّاس عن مناهج البشر، ولا غرابة في ذلك؛ لأنّه منهج ربّاني شرع لبناء مجتمع أمثل على مبادئ راسخة تضمن للإنسان ثباتا واستقرارا وقدرة على الصمود في وجه المصائب مهما عنفت...لذلك أسّس الإسلام لبنائه قواعد أولاها العقيدة التي منها تنطلق كلّ الأقوال لتكون حسنة، ﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ (83)**﴾ [البقرة: 83]، والأفعال، {لتكن صالحا} ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (172)**﴾ [البقرة: 172].

والخطوة التّالية هي العبادة وتعن كلّ ما يحبّه الله لعباده؛ من أقوال وأفعال في كل مجال، وهي لا تقتصر أبدا على الجانب التّعبّدي كما يظنّ أكثر النّاس، ولكي نصحّح هذه النّظرة الشمولية علينا أن نعيّن العبادات الأساسية في الإسلام، ثم لننظر في مميزاتها حتى نتبيّن أنّ ليس هناك شيء ممّا شرعه الله للناس ألا وهو تناول حياتهم في كلّ نواحيها بالتّقويم والتّنظيم، وإنّه لا يقصر أيّ مجال منها على الآخرة وحدها باعتبار أنّ الدنيا بلاغ إلى الآخرة.

لنبدأ بالقاعدة الكبرى الشّهادتين فإنّنا نجد فيها الآتي: إعلان رفض الألوهيات الزّائفة بكلّ أصنافها، والإقرار بألوهيّة الله وحده لا شريك له،

إنّ في ذلك تحريرا شاملا لوجدان المسلم وعقله من كافّة الضّغوط، والتّخليص في قيوده التي تكبل قواه فلا خضوع الشّهود ولا ركوع الطّاغوت، ﴿**اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (257)**﴾ [البقرة: 257].

وكلمة النّور تعن الوضوح والّصفاء، والإشراق والهدي والمعرفة الحقّة والانطلاق في الآفاق الموجبة، حيث يمارس الإنسان كلّ الأعمال التي تثبت ذاته وتبرز طاقته، بكلّ مواهبها ومميزاتها، ومقابلة اسم الله ﷻ بالطاغوت إشعار بأنّ الإنسان لن يقرّر من الظّلم والعدوان إلاّ بالاتصال الحقّ الوثيق بالله: الاتّصال النّابع من العقيدة الوثيقة والقناعة الراسخة والراسخون في العلم يقولون: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (7)**﴾ [آل عمران: 7].

حاجتنا إلى الإقرار بربوبية الله وحده:

إنّ الإنسان بطبعه لا يملك قوّة تكفي حاجاته ومتطلّباته، وبالتّالي فلا يقوى على مواجهة كلّ ما يعترض سبيله من معوقات، ولا ردّ ما ينزل عليه من أخطار فهو من أجل هذا كله بحاجة إلى يد رحيمة تدعّمه، وسندركين يحمي ظهره، وهو إذا افتقد هذا أحسّ بغربة موحشة تملأ حياته ظلاما

وأوهاما، وتجعل معبوداته أوثانا وأصناما، وعندها يجد نفسه يتخبّط في ظلمات بعضها فوق بعض "إذا أخرج منها يده لم يراها، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور.

والمنهج الرّباني وحده هو الذي يجعل الإنسان يعيش في عالم من الضّياء المشوّق حيث يتبيّن طريقة في وضوح ويسعى سعيه في الدنيا، وهو واثق من سلامة الأرض التي يضع فوقها قدميه، ومن شرف الهدف الذي يسعى لبلوغه، ومن كرم الجزاء الذي ينتظره في نهاية الطريق.

ثم إنه وهو يسعى سعيه في الحياة الدنيا وجد طمأنينة قلب، وهدوء أعصاب، وراحة ضمير، وهو ما لا أمل في الحصول عليه بعيدا عن منهج الله وشريعته في الحياة؛ لأنّ الظّاهرة التي يشكوها الخلق في هذا الجيل خاصة حيث شيوع الاتجاهات المعادية للدّين الحقّ في عقيدته ونظام الحياة المنبثق في تلك العقيدة؛ وأعني بها ظاهرة الخوف من كلّ شيء، وأحيانا من لا شيء، والطّمع في كلّ شيء وأحيانا في أتفه شيء، وظاهرة الكآبة والحزن الذي يغشى الوجوه ويطرد منها الابتسامة المشرقة، ويحلّ مكانها التّجهّم الكئيب، هذه الظّواهر لا يزدها إلاّ الاتّصال المستمر بالله عز وجل، وهذا الاتّصال لن يكون إلاّ بالإسلام، وهو وحده المنهج المقبول عند الله وهو وحده التّجارة الرابحة يوم القيامة ﴿**وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (85)**﴾ [آل عمران: 85].

والطّمأنينة التي هي أعظم سعادة يطمح إليها الإنسان في حياته لن تحصل أيضا إلاّ بالاتّصال بالله عن طريق هذا الدّين الإسلام ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (28)**﴾ [الرعد: 28].

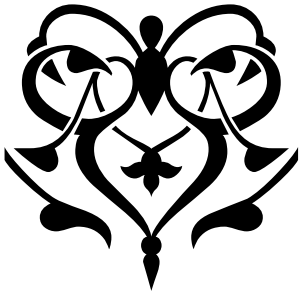

الإسلام والعلم

مكانة العلم في الإسلام

عمليّة الفكر الإسلامي حقيقة أثبتها القرآن وسجّلها الواقع التّاريخي مع الخيوط الأولى لفجر الإسلام، هي مفتاح المعرفة والإشادة بالعلم، فحرّكت العقل والّشعور معا، وشدّتهما شدّا إلى هذه الرّسالة العظمى، وتحدّد يومئذ اتّجاهاتها الإنسانية وسعيها إلى إنارة عقل الإنسان وتحرير وجدانه.

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5)﴾ [العلق: 1-5].

هل عرفت البشرية نهجا استهل مثل هذه المبادئ الرّائعة الجامعة؟ إنّه منهج الله الذي أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا إنه استهلال لكتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير.

إنّ الذي حدث لا يمكن توقّعه، علما بأنّ العرب ما كانوا ليطمعوا إلى هذا المستوى، ولا ليرتقوا إلى هذا الأفق فما لهم وللعلم، وما لهم وللكتابة، وهم قوم أميّون يحيون في محيط ضيّق من خبرات الحياة وتجاربها: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

هذا أفق محيط بكل علوم الإنسان وأفكاره، شامل لكلّ تطلّعاته ومحاولاته في مجال المعرفة قد اتّضح ولأوّل وهلة طابع الرّسالة الإسلامي

العالمي الذي قال فيه المولى مبكرا: ﴿**إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (87)**﴾ [ص: 87]، لا لقريش وحدها ولا للعرب وحدهم ولكن للبشر جميعا.

هذا الطّابع المميّز هو العلميّة، فلا رسالة أو عقيدة يحقّ لها أن تنسب إلى العلم قبل الإسلام الذي نشر ضياء العلوم ورفع لواءها، وجعلها أسمى الحياة في مجتمعنا، وحكا في كلّ ما يختلف فيه النّاس.

ونحن نتأكّد من صحة ما قلنا باستقراء نصوص القرآن الكريم والسّنة الشّريفة.

العلم في مفهوم الإسلام: إنّ العلم في مفهوم الإسلام هدفه الهداية التي يمكن للإنسان بلوغها، فما الإيمان إلاّ نوع من العلم بالله، وتصحيح النّظرة إلى الكون والحياة، هذه النّظرة المتأمّلة القادرة على اكتشاف الحقائق الكونيّة من آيات الله المنبثّة في الأرض والّسماء.

إنّ هذا العلم المتّصل بالله، بل والنّابع منه "لاعلم لنا إلا ما علمتنا" هو الذي يحقّق به الإنسان كماله الإنساني باعتباره مخلوقا متفرّدا مزدوج التّكوين، أليس هو قبضة من طين ونفخ من روح الله؟ والإنسان بممارسة ما وهب من إمكانات وفي مقدّمتها العقل، يستطيع أن يكتشف الأسرار التي جعلها تحت تصرّفه، وفي مقدّمتها جميعا إقرار وحدانيّة الله تعالى وربوبيته للعالمين؛ لهذا يجعل القرآن الإيمان مقابلا للكفر ﴿**أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (9)**﴾ [الزمر: 9].

الإسلام يجاهد الخرافة: نخلص من هذا أنّ معركة الإسلام لم تكن في يوم من الأيام مع العلم والمعرفة ولكن مع الجهل والخرافة، فإذا كانت النّظريات الماديّة قد ظهرت هنا أو هناك، فإنّما انتصارها كان على الخرافة، ولا ولن تستطيع الماديّة الإلحاديّة أن تنتصر على الدّين أبدا؛ لأنّ الكفر هو الذي يقوم على أوهام كاذبة، لا حجة لها ولا برهان ﴿**قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (4)**﴾ [الأحقاف: 4].

إنّ الضّلالات التي واجهتها الدّعوة الإسلامية على امتداد موكب الرّسل الكرام عليهم السلام الذين كان دينهم جميعا هو الإسلام، كانت تعتمد على الجهالة والعناد، وكانت جميعها مفتقرة إلى حجّة مقنعة أو منطق سليم، ولقد كان مؤمن فرعون صادقا حين كان يهتف بقومه مقارنا بين دعوته الرّبانية العلميّة ودعوتهم الطّاغوتية الخرافية الجاهلية، ناعيا عليهم لا حجة لديهم ولا إقناع ﴿**وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (41) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (42) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (43)**﴾ [غافر: 41-43]، والقرآن يصرّح بأنّ آي القرآن إنّما جاءت للعلماء وهم وحدهم الذين يفقهونها، والعلماء دائما وفي كل جيل قلّة بالنّسبة إلى أكثر أهل الأرض، ﴿**وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (116)**﴾ [الأنعام: 116].

لهذا كلّه أصبح ضرورة أن نعود إلى كتاب الله تعالى نستشيره فيما نقول وما نفعل وذلك عندما نؤمن بما أمر الله – على لسان رسله –عليهم السلام– أن نؤمن به، بهذا التّحليل تخلص لنا حقيقة، وهي أن منهج الإسلام يقوم أساسا ومبدءا على هذه الرّبانية التي يأتي منها الخير كلّه الذي تآلفت به الأمّة التي خاطبها ربها بقوله: ﴿**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (110)**﴾ [آل عمران: 110].

وبما أنّ هذا المنهج بلّغه إلى النّاس رسول أمين لم يعرف النّاس عنه إلاّ الصّدق والأمانة مدى حياته... ثم قدّم للبشرية هذا التّنزيل الرّباني الذي لا يزيد على مرّ العصور والأجيال، إلاّ قوّة وإشراقا وهداية، كان الجزء الثّاني من عقيدة الإسلام هو الإيمان بهذا الرسول الذي لا يُذكر إلا ّموصوفا بالرسالة وكل النعوت التـــي، تعارف الناس على تكريم وتعظيم النّاس بها، لا تبلغ بل لا تقرب من سمو هذا الوصف الكريم رسول الله، هذا من حيث مضمون الوصف، أمّا من حيث المدلول العملي فإنّ إيمان الإنسان المسلم برسول الله إنّما يعني الالتزام بالّرسالة عملا وتبليغا، فالرّسالة مستمرّة والمسلمون مسؤولون عن الالتزام بها في أنفسهم وفي تبليغها إلى النّاس كافّة، ولن يعفيهم الله من هذه المسؤوليّة المزدوجة إلى أن يبلغ الإسلام كلّ أصقاع الأرض، وتصبح كلمة الله هي العليا حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله.

وبالالتزام والبلاغ تم العمل الإسلامي عهد رسول الله ﷺ والرّاشدين من بعده ومن اتّبعه بإحسان عبر العصور والأجيال، والهدف التّحريري

للإسلام كان الغاية المتوخّاة في كلّ عمل قام به المقتدون برسول الله ﷺ في مجالي الدّعوة والقتال الجهادي، والقرآن الكريم حدّد هذا الهدف عندما أذن الله للمؤمنين بالجهاد دفاعا عن حريّة العقيدة وتأمينا لمن يعشونها فكرة وعملا؛ لنقرأ قوله تعالى: ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (39) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (40)**﴾ [الحج: 39-40]، فحماية حريّة المعتقد كانت هدفا تحريريّا لكلّ المعتقدات؛ حتى تلك التي لا يقرّ الإسلام صحّتها، فالجهاد الإسلامي من خلال الآية يلفت الأنظار إلى أحد أهدافه ضمن التّحرير الشّامل لوجدان الإنسان وفكره، وإطلاقه في مجالات العمل الجاد والبناء السليم، هذا الهدف هو تأمين الحرية للرّهبان في صوامعهم والنصارى في بيعهم... واليهود في صلواتهم أي كنائسهم، والمسلمين في مساجدهم؛ وقد ذكروا أخيرا لأنّ الإسلام خاتم الرّسالات الإلهية إلى الخلق؛ ولأنّ الدولة المسلمة لا يعتدى فيها على المساجد أساسا إلاّ في حالات قد تطرأ فتكون ملتزمة بحمايتها كما هي مهتمّة برعايتها.

وعندما يرتكز الإنسان المسلم على إعلان الإسلام لله، الذي لا إله غيره والإيمان بمحمد رسوله إلى العالمين، فإنّ عليه أن يقوم بما عليه من التزامات لربّه وأهله ومجتمعه، ولكن في نطاق جماعي يعتمد الصفة الأولى لمجتمع مسلم، هي التي طبع بها رسول الله ﷺ هذا المجتمع المسلم أول وصوله إلى دار الهجرة- المدينة المنورة -؛ وأعني بها هذا التّلاحم بين القيادة والأمّة،

تلك التي برزت منها مواهب الأفراد وقيم المجتمع في عمل مشترك، نبع من منطق العقيدة وسار وفق المنهج المرسوم، فكان خيرا وبركة على البشريّة قاطبة سعدت به وما تزال تستضيء بأنوار هداه إلى أيام الناس هذه، التّلاحم الذي مكن كل فرد من إبراز ما وهبه الله من إمكانات في مختلف المجالات، كلّ ذلك سار متناسقا مع الجهد الجماعي للجماعة المسلمة الأولى، ثم امتدّ عبر مرّ عصور التّاريخ يمد الإنسان بعطاء من الخير الدّافق، عطاء يستمد من طاقة لا تنفذ: ﴿**قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (109)**﴾ [الكهف: 109].

وهنا تبرز قيمة هذا المنهج الرّباني الذي يتميز بهذه التوازنيّة التلاحميّة، من جهد الفرد وطاقة المجتمع، فلم تكن مواهب الأفذاذ **كعمر، وعلي، والصديق، وأبي عبيدة، وخالد، وعمار، وابن مسعود،** وغيرهم من كرام صحابة رسول الله ﷺ تتنافى أو تتعالى عن الطّاقة الحيوية للمجتمع ككل؛ بل وجدوا من الدّفع الشعبي العارم الذي حرّكته العقيدة الإسلامية مساندة كليّة لما أنجزوا من أعمال صالحة، وما اتّخذوا من مواقف مشهودة وما سجّلوا من صفحات خالدة ، ولئن شذّ البعض وشاكسوا، مثل ما حدث في حروب الردّة وظاهرة مانعي الزكاة، فإنّ القوة التي أنشأتها العقيدة الإسلامية استطاعت أن تحسم الموقف بضربة أخمدت التّمرّد، ومضى المد الإسلامي في طريقه دون توقّف إلى أن تمكّن إبراز خير أمة أخرجت للنّاس، وأعظم دولة قامت على العدل والإحسان وتكريم الإنسان تحت رايـــــــــة القرآن، وإلاّ فماذا يستطيع **عمر** أن يفعل لولا المجتمع الذي سهر رسول الله ﷺ بالبلاغ وبالأسوة الحسنة على بنائه؟ وماذا كان يمكن أن

يستطيعه سلفه سلك الطّريق لولا أنّ الرسول ﷺ لم يمض حتى بلّغ الرسالة وأدى الأمانة وترك الناس على المحجّة البيضاء ليلها كنهارها، حيث رسم معالم الطّريق للفرد وللمجتمع معا، وكلّ الإنجازات التي قامت بقيادة رجال أفذاذ من عهد الرّاشدين إلى عهد **صلاح الدين الأيوبي** ـما كانت لتكون لولا الرّسالة ومبلِّغ الرّسالة الذي أعطاها تبليغا وتفسيرا وتنفيذا.

أوّل سمة إذن للمجتمع المسلم في العقيدة؛ أي أنّه مجتمع العقيدة، وأوّل مجتمع في الأرض قام على العقيدة، وقد أقرّت الآن مجتمعات الأرض أنّ القوّة المعنوية استطاعت في عدّة مشاهد أن تهزم القوى المادية بكلّ ما لديها من طاقات، وهذا ما سجّله تاريخنا القديم والحديث، فليس ممكنا بأيّ قياس أن تهزم الجماعة الإسلامية الأولى الرّوم والفرس معا، بعد هزم الطّاغوت الوثني والمكر اليهودي في الجزيرة، لولا العامل الرّباني الذي أثبته القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿**فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (17)**﴾ [الأنفال: 17]، وحصر النّصر في إذن الله بقوله: ﴿**وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (126)**﴾ [الأنعام: 126].

كذلك انتصار صلاح الدين الأيوبي على الحشود الزّاحفة من كلّ أنحاء الدّنيا لإسقاط دولة الإسلام إنّه ما كان إلاّ بنصر الله العزيز الحكيم.

كذلك النّصر الذي أعطاه الله لنا هنا في الجزائر، ما كان ليتمّ لولا أنّنا اندفعنا بعقيدتنا الإسلامية، مهلّلين مكبّرين انطلاقا أوّليا ببنادق صيد بعضها

لا يصلح حتى لاصطياد العصافير لقدمها، غير أنّ الله قذف بها الرّعب في قلوب أعداء الحقّ والحرية وكرامة الإنسان، فتطوّر الجهاد بعونه تعالى الذي أمد به المؤمنين بدينـــــه والواثقين بنصره، فسار الجهاد رغم ما لقي أهلنا وشعبنا من مجازر وويلات وخطوب وأهوال كالجبال، سار إلى نهايته السّعيدة وهو نصر من الله مبين، وشعوب أخرى غيرنا آمنت بقضيّتها وأعطتها كلّ ما معها من الجهد والطاقة فانتصرت على المعتدين.

إنّ ذلك كان مبدأ هذا الدّين الذي أقرّ أنّ العزم على دحر الظّلم يلقى من الله النصر والتّأييد، ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (39)**﴾ [الحج: 39].

السّمة الثانية للمجتمع الإسلامي هي: " الأخوة ".

وإذا كانت الأخوة هي السّمة الثانية التي تبرزها العقيدة كثمرة لها، فأنها هي الأساس الأوّل للبناء الاجتماعي كلّه؛ إذ من المعلوم أنّ أوّل ما فعله الرسول ﷺ أوّل مقامه بالمدينة المنورة هو المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، فكان بهذا أوّل مجتمع قام على الأخوّة في العقيدة، فكانت المؤاخاة شاملة بكلّ ما في الكلمة من معنى تجاوزت المساواة إلى الإيثار؛ مما جعل الوحي المنزّل ينوّه بذلك المجتمع الفريد في التاريخ الإنساني كله ﴿**وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (9) وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا**

لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (10)﴾ [الحشر: 9-10]، وقد حصر الإسلام الأخوّة في الإيمان فقال: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (10)**﴾ [الحجرات: 10].

وجَعْل المحبّة بين الأخوّة المؤمنين دليل الإيمان، وهي بالتالي شرطا لدخول الجنة: «والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنّة حتي تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلّكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السّلام بينكم» أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي.

وهنا نرى أنّ هذه الوصيّة النّبوية ليست ذات صلة بالعبادات والشّعائر، وليست ذات هدف غيبي أو اعتقادي، ولكنّها دفعة قوية لتأكيد العلاقة بين المسلمين، وترسيخ لسلامة الإيمان وحسن المستقبل في الآخرة نتيجة للتّلاحم الودّي بين الإخوّة في الإسلام.

ولم تكن هذه المحبّة الاجتماعية قائمة بين كلّ العرب، فكيف قامت بينهم وبين العالم المؤمن لولا الإسلام؟ وألّف بين قلوبهم: ﴿**وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (63)**﴾ [الأنفال: 63].

وذكّرالله المسلمين بهذا حين أنزل: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (103)**﴾ [آل عمران: 103].

ألا ما أحوجنا اليوم ونحن نعاني- في هذه الهجمة الشرسة من كل الجبهات المعادية للإسلام- إلى الالتفاف حول عقيدتنا في حبّ وتلاحم؛ ليعود لنا من مجدنا ما قد ذهب، وما أشد حاجتنا إلى تلبية وصية رسول الله ﷺ في مجال التّضامن عندما قال لنا جميعا: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، كلّ المسلم على المسلم حرام: ماله ودمه وعرضه إنّ الله لا ينظر إلى صوركم وأجسامكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم، التّقوى ها هنا، التّقوى ها هنا، ويشير إلى صدره، ألا لا بيع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانا ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه ثلاث» أخرجه الستة إلاّ النسائي وهذا لفظ مسلم.

الخصيصة الثّانية: **هي المساواة الإنسانية**: وهو أوّل مجتمع استطاع هدم الفروق الزّائفة بين البشر وردّهم إلى حقيقتهم الآدمية الكبيرة، وإعادتهم إلى أصلهم الواحد، وهو يقرّ ذلك من أجل الإنسان فعاش المجتمع على ضوء تلك الحقيقة الكبيرة: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (1)**﴾ [النساء: 1].

وهكذا يقرّر الإسلام وحدة الأصل الذي أتى منه النّاس جميعا، ومن هنا فلا تفاوت بيت البشر في التّقدير بسبب الأصل واللّون أو الوراثة، فذلك الاختلاف في الأنساب والأجناس لا يصلح أن يكون داعيا للاختلاف في الحقوق والواجبات، ما دام الأصل يجمع بين الناس جميعا ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13)**﴾ [الحجرات: 13].

وقد حاول المترفون من أقطاب الشّرك أن يساوموا رسول الله فيجعل لهم مجلسا خاصا يطرد منه المستضعفون من المؤمنين الأوائل، فنزل عليه من الله تحذير بقوله تعالى: ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (28) وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (29)**﴾ [الكهف: 28-29].

وهكذا كفل للمستضعفين حقّا مساويا في الحياة وفي العلم والإيمان والعـــــمل.

﴿**عَبَسَ وَتَوَلَّى (1) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (2) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (3) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (4)**﴾ [عبس: 1-4].

وفي غزوة بدر كان الرسول ﷺ يسوي الصّفوف فقال **لسواد ابن عزبة**: «استو يا سواد وطعنه في بطنه فقال له سواد: أوجعتني يا رسول الله، فكشف الرّسول ﷺ عن بطنه فقال له: استقدمني»[1]، هكذا بلا حقوق مقدّسة، ولا هيبة مصنوعة فالكلّ في مجال الحقوق والواجب سواء، وفي

(1) أخرجه أبو داود في السنن، والطبراني في المعجم الكبير، والحاكم في المستدرك، بألفاظ متقاربة، ولفظه عند أبي داود: « بينما هو يحدث القوم وكان فيه مزاح بينا يضحكهم فطعنه النبي صلى الله عليه وسلم في خاصرته بعود فقال : أصبرني فقال : " اصطبر " قال : إن عليك قميصا وليس علي قميص ، " فرفع النبي صلى الله عليه وسلم عن قميصه ، فاحتضنه وجعل يقبل كشحه " ، قال إنما أردت هذا يا رسول الله».

الحديث الشريف: «أيّها النّاس من كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهري، ومن كنت أخذت منه مالا فهذا مالي»[1].

هل عرفت البشرية من آدم إلى اليوم قيادة شعبيّة صادقة أمينة عادلة كهذه؟ اللهم... وهذا هو أسوتنا الذي علينا أن نتبع سيرته ليلحقنا ربّنا إن شاء الله يوم القيامة.

وعندما سرقت امرأة مخزومية ولجؤوا إلى أسامة ليشفع لها عند رسول اللـه، قال ﷺ: «والله لو أن فاطمة سرقت لقطعت يدها»[2].

كيف وصل بلال إلى أن قال عمر: "أبو بكر سيّدنا وأعتق سيدنا"؟ كيف وصل سلمان إلى أن قال عنه رسول الله ﷺ: «سلمان من آل البيت»[3]؟ «اسمعوا وأطيعوا ولو وُلّي عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة»[4].

الخصيصة الثالثة: الحرية.

إنّ أعظم مبدأ للتّحرير الّشامل للإنسان كان" لا إله ألا الله " فهو رفض لكلّصفوف الطاغوت الذي يستبدّ بالإنسان، ويفرض عليه ما يهضم حقّه ويسلب حريته في العزّ والكرامة...فإنّ عزّة المؤمن نابعة من عزّة الله

(1) أخرجه عبد الرزاق في المصنف، والبزار في المسند، والطبراني في المعجم الأوسط.

(2) متفق عليه، أخرجه البخاري ومسلم.

(3) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى، والطبراني في المعجم الكبير، والحاكم في المستدرك.

(4) أخرجه البخاري في الصحيح، وابن ماجة في السنن، وأحمد في المسند.

تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (8)﴾ [المنافقون: 8]، ويقرّ الإسلام هذه الحقيقة في سورة الجن﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (13)﴾ [الجن: 13].

وقد كانت الدّعوة الدينية مع الرّسل جميعا نداء للتّحرير في أولى الخطوات، ألم يقل ربّنا لموسى عليه السلام ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (17)﴾ [النازعات: 17]، وقال له ولأخيه هارون -عليهما السلام-: ﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (45) قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (46) فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى (47)﴾ [طه: 45-47]. وهذا أبو جهل يتصدّى لمنع حريّة العبادة في البيت الحرام، وينذر الرسول ﷺ ألاّ يجهر بالصّلاة في البيت الحرام، وإلاّ فهو التّنكيل أو القتل، فيجيب القرآن متوعّدا عساه يدرك حقيقة نفسه ويبرأ من الاستكبار والجحود ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (6) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى (7) إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى (8) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (9) عَبْدًا إِذَا صَلَّى (10) أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى (11) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى (12) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (13) أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى (14)﴾ [العلق: 6-14].

والإذن بالقتال كان منطلقه الأوّل دفاعا عن حق الجماعة المسلمة في الحرية﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (39) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ

النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (40)﴾ [الحج: 39-40].

وقد شرع القتال لتحرير الشّعوب وكسر قيود الاستعباد: ﴿**وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا (75) الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (76)**﴾ [النساء: 75-76]، وحين بلغ رسول الله ﷺ مصرع أبي جهل غمرته الفرحة وكبّر قائلا: «الحمد لله إنّ هذا كان فرعون هذه الأمة»[1].

وما فعله أمير المؤمنين عمر مع **ابن عمر وابن العاص** مشهود، وبمناسبته قال قولته المشهورة: "متى استعبدتم النّاس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرار".

الخصيصة الرّابعة: "التكافل":

ولقد سبق لي الحديث معكم في محاضرة سابقة عن" التّكافل الاجتماعي في الإسلام"، فلا أطيل في هذا العنصر غير أنّني أقول كلمة موجزة من باب التذكير.

(1) أخرجه أحمد في المسند، وابن أبي شيبة في المصنف، والنسائي في السنن الكبرى.

إنّ التكافل في الإسلام يتجسّد في كلّ ممارسات العبادة الشّعائرية، وفي رعاية ذوي الأرحام والجيران وما إلى ذلك من أبواب البرّ، ففي صلاة الجماعة يقول رسول الله ﷺ: «صلاة الجماعة تفضل الفذ بسبع وعشرين درجة»[1].

وفي صلة الأرحام يقول تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا (36)﴾ [النساء: 36].

«ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»[2].

و قوله تعالى: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (38)﴾ [الروم: 38].

«ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل من إذا قطعت رحمه وصلها» البخاري.

والتّكافل واجب على كل فرد مسلم حسب قدرته وإمكاناته ولا يقلّل من الأجر القليل، من العطاء إذا كان جهدا لطاقة.

«على كلّ مسلم صدقة قالوا: فإن لم يجد يا رسول الله قال: يعين ذا الحاجة الملهوف، قالوا فإن لم يجد يا رسول الله، قال: يأمر بالمعروف وينهى

(1) متفق عليه، أخرجه البخاري ومسلم.

(2) متفق عليه، أخرجه البخاري ومسلم.

عن المنكر فإنّهما له صدقة»[1]، وفي حديث آخر: «يمسك شره عن الناس فإنّه له صدقة»[2]، وفي حديث آخر: «لا تحقرّن من المعروف شيئا، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق»[3].

إنّ الحلّ لما تعانيه مجتمعات العصر من روح الانفرادية الانعزالية بين الأقارب والجيران، وبالتّالي بين المواطنين، هو إحياء التّكافل الاجتماعي الذي أتى به الإسلام، والذي ما تزال بعض الأطراف من بوادينا تحافظ عليه، وهو صورة رائعة للتّضامن الاجتماعي في الأفراح والأتراح، وعندما تلم بهم الضّائقات، وقد عرفنا منه ما شدّ عزائمنا وجمع صفوفنا ووحّد جبهتنا أيّام الكفاح التحريري في هذا... حبّذا لو بعثنا هذا من جديد بما نبث من تربية الإسلام في مجتمعنا حتى نربط هذا الجيل بسلفه العظيم، والله وراء القصد.

(1) متفق عليه، أخرجه البخاري ومسلم.

(2) أخرجه مسلم في الصحيح عن أبي ذر، قال: قلت: يا رسول الله ، أي الأعمال أفضل ؟ قال : " الإيمان بالله والجهاد في سبيله " قال : قلت : أي الرقاب أفضل ؟ قال : " أنفسها عند أهلها وأكثرها ثمنا " قال: قلت: فإن لم أفعل ؟ قال: " تعين صانعا أو تصنع لأخرق " قال : قلت : يا رسول الله ، أرأيت إن ضعفت عن بعض العمل ؟ قال: " تكف شرك عن الناس فإنها صدقة منك على نفسك».

(3) أخرجه مسلم في الصحيح، أحمد في المسند، والنسائي في السنن الكبرى.

قيام الإسلام على العلم

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (31)﴾ [البقرة: 31].

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4)﴾ [العلق: 1-4].

كلّ العبادات الإسلامية ذات بعد علمي ومنها شهر الصّيام، شهر التّجنيد لتربية الإرادة المؤمنة، وقد تجنّد المسلمون مشرقا ومغربا، وبالنّسبة لنا فقد شهدت مساجدنا ومعاهدنا ومؤسّساتنا نشاطا إسلاميّا حثيثا في الدّاخل والخارج، قمنا بإرسال أئمّة وكان دوري في مرسيليا شهد لنا وتلقّونا بتقديم الشّكر، غير أنّ هناك سلبيّات تمثّلت في الانقسام على الصّيام والإفطار، والله أرادنا موحدين ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (92)﴾ [الأنبياء: 92]، وما كان لهذا الاختلاف أن يحدث لو حكمنا عقولنا في فهم الإسلام، ولقد صدرت بشأن الرّؤية واعتماد الدّليل العلمي القاطع فتوى جماعيّة، وكان ذلك معتمدا على ما تقرّر في مؤتمرات إسلامية عقدت في ماليزيا والقاهرة والكويت واسطنبول، وهي تقرّر ردّ الشّهادة بالرؤّية إذا كذبّها الدّليل العلمي، ونتج على مؤتمر اسطنبول سنة 1398هـ - 1978م، الذي شاركت فيه اثنتان وعشرون دولة إسلامية، يمثّلها فقهاء وفلكيون بغية الجمع بين الدّليل العلمي اليقيني التي ورد فيها حديث شريف: «صوموا

لرؤيته وافطروا لرؤيته»[1]، وبالمناسبة فإنّي أورد شهادة ما فعلته الجمعيّة الدّينية بمرسيليا، متّفق تماما مع ما أعلنه رئيس المجلس من رفض التّصديق برؤية لا يقرّها دليل العلم، وعلى ذكر العلم والعلماء أذكر بما كتبه شيخنا، وجوب إقامة الحياة على العلم في العقيدة والأقوال والأفعال، وقد عرّفنا بكلّ من العلم والظّن والوهم والشّك.

فذكر أنّ:

- **العلم**: وهو إدراك الشّيء على وجه لا يحتمل غيره.

- **الظن**: وهو إدراك أمرعلى أرجح الوجوه.

- **الوهم**: وهو إدراك أمر على الوجه المرجوح.

- **الشك** وهو إدراك أمر على وجهين يتساويان في الاحتمال.

إنّ التّقليد غير الاتباع، فالاتباع لا يكون إلاّ بما لنا به علم، أمّا التّقليد فهو الشّبه على غير علم وهو طبع القرود، ذلك تشبيه القرآن الكريم إنّ من الصراحة أن نقول: إنّ إخوتنا في الجوار بهذا المغرب الإسلامي لديهم كلّ الاعتزاز بعلمائهم وأهل الفكر فيهم، أما نحن فإنّ فينا من لا يقبل إلّا ما يأتيه من بعيد، دون تمحيص ولا تحقيق، ورغم ذلك فهم يفرضون على غيرهم الاقتداء بهم في محو شخصيّتهم، في حين أنّ القاعدة الإسلامية هي: "الأقربون أولى بالمعروف"؛ وذلك في غير ظلم ولا إجحاف، ولا تحيز ولا تميّز.

(1) متفق عليه، أخرجه البخاري ومسلم.

إنّ في بلادنا من العبقريات الفذّة في مجالات عدّة من يقرّ لهم الشرق والغرب بالتّفوق والبروز، غير أنّهم عند هذه الفئة المقلّدة لا يساوون شيئا، فلتتّقوا الله في أهلكم وفي علمائكم فلا تبخسوا النّاس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين.

إنّ هذا التّصرّف خطير؛ لأنّه يمسّ بوحدة الأمّة التي شرّع الله الّصيام والعيد لتوحيدها، فإذا لم يتيسّر لنا توحيد الأمة الإسلاميّة كلّها وذلك هدفنا الأسمى فلا أقل من الحفاظ على شعبنا في الجزائر. وخطير حين يتولى الإفتاء في دين الله من لا يفقه هذا الدّين، فلا يستطيع أن ينشئ جملة سليمة بلغة كتابه، نهيب بهؤلاء أن يتّقوا الله فلا يلقوا بأنفسهم في المهالك، نعظهم بقوله ﷻ: ﴿**وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (36)**﴾ [الإسراء: 36]، وننصح أمّتنا الغالية أن لا تتلقّى دينها إلا ممن يفقهه، فلا تأخذ عن الجهلة، ولا تنساق لدعوات التّمزيق والتّفريق﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (103)**﴾ [آل عمران: 103]، ﴿**لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (286)**﴾ [البقرة: 286].

ونحن بالنّظر إلى قضيّة الرّؤية نجد الآتي: إنّ الرّؤية هي المشاهدة القطعيّة، وهي بالوسائل العلمية أكثر قطعية بدليل استعمال النّظر ولضعاف البصر قليلا، وعلى هذا النّحو نرى بالمكبّرات المرصديّة، فلو هدى الله الأمّة الإسلامية لوجدت وسيلة إجماع يزيل الخلاف، وهو ما يريده الله تعالى، وإذا لم يتم ذلك فإنّ علينا أن نستوثق في إقامة شعائر ديننا والاتّفاق ألّا يكون إلّا بثبوت الرؤية، والرؤية لا يمكن إثباتها إذا دحضها الدّليل العلمي، والقرآن يحثّ على أنّ الحقيقة لا ﴿**يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ**﴾ [العنكبوت: 43]. وينكر أن يساوي بين من يعلم ومن لا يعلم ﴿**أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (9) قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (10)**﴾ [الزمر: 9-10]، والذين يتولون هذا الأمر لا يمكن أن يكونوا جهلة بل أهل علم ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾ [يوسف: 109]، وأهل الفكر تعرفهم بلادنا قديما وحديثا.

منزلة الرّيادة: وما ينبغي أن نظلّ هكذا نحمل موكبات نقص خطيرة، تجعلنا لا نقرّ إلاّ ما جاء خارج بلادنا ونتلقّى بعدم الاكتراث كلّ شيء نافع من أرضنا، إنّ هذا الشّعور فيه إهدار لشخصيّتنا وإنكار لذاتيتنا، فقد كانت الجزائر دائما قائدة ورائدة بعلمها وعملها في جهادها ونضالها في مواقفها الصّامدة في الدّاخل والخارج، وهي مع ذلك تدعّم وتطعّم كلّ جهد إسلامي

يعمل على بعث الاهتداء بالكتاب والسنة ويعيد المسلمين تبوّء مكانتهم في الأرض.

ملتقيات الفكر تعمل لذلك، وحضورنا لعدّة لقاءات وندوات إسلاميّة تندرج في هذا الإطار، والله يشهد أن إخوة لنا أقرّوا بأنّ ما قدّمناه كان في مستوى الإمامة، وليس في مستوى التقليد الذي هو من طبيعة القرود ﴿**وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (65)**﴾ [البقرة: 65].

منهج علمي من الإنسان الأول إلى الرّسول الخاتم

قبل أن ينزل الإنسان الأوّل إلى الأرض وهو آدم عليه السّلام، علّمه الله الأسماء كلّها وأسجد له الملائكة وأعلنه خليفة في الأرض: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (31) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (33)**﴾ [البقرة: 30-33].

ومن هنا نعلم أنّ التّكريم الذي منحه الله لإنسان كان تعليمه ما لم يكن يعلم، وتمكينه من فهم أسرار الكون وقوانينه، وقد وهبه الله طاقات مكّنته من قيادة الحياة التي سخّر له فيها ما في السّماوات وما في الأرض وبذلك بوّأه مكان الخلافة فيها ليقوم بأمر الله.

ومن يومئذ والرّسل تبُعث لتواصل تبليغ رسالات الله إلى الإنسان المستخلف: الرّسالات التي تدعو الإنسان إلى المزيد من التّعلّم والتّقدّم بلوغا إلى المستوى الذي تتحقّق له فيه هذه الخلافة بكل مقتضياتها، إلى أن بلغت البشرية شأوا واقتضى أن تُرسل إليها رسالة خاتمة على لسان محمد ﷺ، فكانت أوّل آية تلقّاها مشتملة على التّعلم قراءة وكتابة، والتّربية تكوينا وتقويما، والعلم الواسع العريض تمكّنا ورسوخا، ثم أخذت آيات الله تترى

وهي تحمل دفعا قويّا لأمّة الحضارة والعلم، فحوّلت الأرض الجرداء إلى خصب عمّ خيره المشارق والمغارب والبدو الأميين، إلى رسل حضارة وعلم أضاءوا الدنيا وأحدثوا انقلابا شاملا في مفاهيم البشر، كما نعمت الدنيا بنا أفاضوا عليها من هدى وما قاموا فيها من عدل، وما دمّروا فيها من ظلم وعدوان، وما أشاعوا فيها من خير وإحسان وتكريم الإنسان، وذلك وعد الله للإنسان الاستخلاف والتّمكين لدين الله، وإشاعة الأمن وإزاحة الخوف شرط الإيمان والعمل الصالح ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (55)**﴾ [النور: 55].

إنّ الآيات العلميّة في القرآن الكريم أكثر من أن تحصى، وتنويه القرآن بالعلم والعلماء زاخر، كذلك السنة النبوية والحقائق العلمية، يقول القرآن: ﴿**وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (43)**﴾ [العنكبوت: 43].

غير أنّ القرآن ليس كتاب نظريّات متغيّرة، وإنّما هو كتاب يقرّ المبادئ الثّابتة التي تبقى دائما شاهدة على ربّانيته وصدقه؛ مصداقا لقوله تعالى: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (53)**﴾ [فصلت: 53].

فما دامت هذه المبادئ قائمة فبمنطلق العقل في تأملاتّه واكتشافاته، وكلّما ارتفع شأوا رفيعا التقى مع هدي الله الذي يسدّد خطاه لبلوغ أعلى منتهاه.

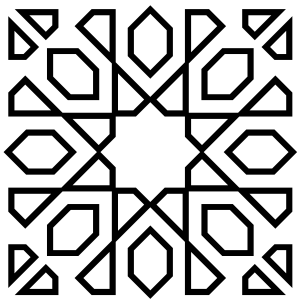

مكانة

المسجد

ودوره

المسجد

تقديم: المسجد أوّل مؤسسة في الإسلام، فعندما وصل رسول الله ﷺ إلى المدينة مهاجرا أسّس مسجده الشّريف الذي جاء ذكره في القرآن بقوله تعالى: ﴿**لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (108)**﴾ [التوبة: 108].

وظيفة المسجد:

المسجد كما يدلّ عليه اسمه مكان السّجود وهو يعني الطّاعة المطلقة لله ربّ العالمين، والسّجود أحد أركان الصّلاة إلى جانب الرّكوع وغيره من الأركان، ومن هنا فهو مكان يطاع فيه الله تؤدّى فيه شعائر الدّين كما شرعها الله، بالإضافة إلى ذلك فهو معهد للتّكوين الدّيني حيث يتلى فيه القرآن ويتدارس بين المسلمين، وقد بشّر الرّسول ﷺ الذين يتلون كتاب اللّه ويتدارسونه، بكلّ خير حيث قال: «ما اجتمع قوم في بيت الله من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلاّ نزلت عليهم السّكينة وغشيتهم الرّحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده»[1].

ولهذا كان للمسجد في صدر الإسلام، وفي العصور اللاّحقة شأن عظيم في تاريخ الإسلام والمسلمين، حيث تخرج من جوامعه الكبرى جلّة علماء الإسلام، الذين أناروا الدّنيا بالعلوم والمعارف التي كان لها الفضل

(1) أخرجه مسلم في الصحيح، وأبو داود، والترمذي في السنن.

على حضارة أوروبا انطلاقا من حضارة الأندلس غربا، وحضارة بغداد شرقا، وكانت جوامع بجاية، وتلمسان، والقيروان، والفسطاط، وغيرها موئلا لطلبة المعرفة والعلم، ينهلون منها فيرتوون، وامتدّت الحركة العلميّة الإسلاميّة في كلّ من الزّيتونة بتونس، والقرويّين بالمغرب، والأزهر بمصر، والأخضر بقسنطينة، وغيرها من المعاهد التي قامت بالمساجد، ولولاها لانقرض العلم وجفّت منابعه في مشرقنا ومغاربنا، فمهمة المساجد إذن هي الحفاظ على الشّعائر والقيام برسالة العلم والتّربية النّابعة من كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ؛ لبناء الأمة الخيرة الصّالحة التي قال الله عنها: ﴿**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (110)**﴾ [آل عمران: 110].

ولكي نعيد الاعتبار إلى المسجد ونجعله يؤدّي رسالته على الوجه الأكمل، علينا أن نجعل له نظاما يقوم على الآتي:

- قيام أهل العلم والفقه والتديّن بوضع مخطّط لتفقيه المسلمين في دينهم وبثّ الوعي الإسلامي الصّحيح بينهم وذلك باتخاذ الخطوط الآتية:

1. تعليم القرآن الكريم حفظا وتلاوة وقراءة.

2. تنظيم دروس في تلقين العلم المعلوم من الدّين بالضّرورة؛ أي الأمور التي لا يجوز أن يجهلها المسلم أبدا، وإلاّ كان إسلامه تخبّطا وتيها وضياعا، وكان عرضة للتّضليل والتّغفيل.

3. تنظيم دروس لأئمّة الأحداث المبتدئين لتقوية رصيدهم المعرفي؛ كي يستطيعوا القيام بمهمّتهم على الوجه الصّحيح.

4. اختيار من لهم القدرة على الوعظ والإرشاد من الأساتذة؛ لبثّ الوعي الإسلامي الصّحيح بين الجماهير، وأن لا يترك هذا الأمر لمن لا يحسنه، وبذلك نجنب المجتمع مخاطر البلبلة والفتنة.

5. اختيار من يملك مواهب في مجال الخطابة للقيام بخطبة الجمعة، وهذه المواهب تعني حسن الإلقاء وسلامة النّطق وفصاحة القول، وفهم نفسيّات من يخاطبهم إلى جانب التّمكن من إيراد الآيات دون خطأ، والأحاديث دون تحريف، والاستدلال في موضع الاستدلال؛ وهذا يتطلّب نصيبا معتبرا من فهم القرآن والاطّلاع على السنّة والتّمكن من الفقه، أضف إلى ذلك الورع وتقوى الله.

6. إنشاء حصّة للتّكوين التّربوي؛ لإعطاء الوعاظ والخطباء دروسا تكوينيّة حتى لا يجلس على كرسي الوعظ من لا يعرف ما هي الخطابة أسلوبا ومدلولا وهدفا.

7. قيام أهل العلم بالإشراف والمتابعة ميدانيّا قصد التّرشيد والتّسديد، حتى نتجنّب الفوضى التي ضربت أطنابها على المنابر حيث نسمع كلّ جمعة صوتا مختلفا عن سابقه، ولا ندري بماذا سيفاجئنا الخطيب الجديد من القول

الذي كثيرا ما يعتمد التشهير بالنّاس وذكرهم بأسمائهم ومن على المنابر، وقد ﴿**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (110)**﴾ [آل عمران: 110]، لا يذكر النّاس بأسمائهم؛ وإنما يقول في معرض الإنكار: "**ما بال قوم**"، ولا يقول: "**ما بال فلان**"، ثم إنّ الله عز وجل أمر بأن تكون الدّعوة إلى الله قائمة على الحكمة، والحكمة هي معرفة ما يلزم مع من يلزم وحين يلزم، وليس إطلاق الكلام على هوانه.

والموعظة لا تكون إلاّ بالقول اللّين كما جاء في كتاب الله: ﴿**فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44)**﴾ [الأحزاب: 44].

والحوار لا يقصد به التّشهير والتّحقير ومحاولة هزم الغير؛ وإنّما بذل الجهد في إيراد الحجّة، وتقديم البرهان للوصول إلى الحقيقة ومعرفة الحق، وفي ذلك قوله تعالى: ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (125)**﴾ [النحل: 125].

ومن هنا فلا ينبغي السّماح لمن لا يلتزم بهذا التّوجيه القرآني أن يجلس على كرسي الدّرس، ولا أن يرتقي منبر الخطابة؛ لأنّ هذا المنهج في الدعوة ليس خاصا برسول الله ﷺ وحده؛ وإنّما هو سبيل كلّ من اتّبعه بإحسان، وفي ذلك قوله تعالى: ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (108)**﴾ [يوسف: 108].

وفي هذه الآية مزيد وهي تشتمل على العناصر الآتية:

أوّلا: أنّ سبيل رسول الله هو الدعوة إلى الله.

ثانيا: أنّ هذه الدّعوة تقوم على بصيرة، وفي هذا تأكيد بأن لا يقوم بهذه الدعوة من لا يفقهها ولا يبصر معالمها ولا يدرك مضامينها ولا يتبيّن أهدافها ولا يحصن توجيهها.

ثالثا: ''أنا ومن اتبعني'':

إنّ هذا النهج في الدعوة ليس مقصورا على الرّسول وحده؛ بل يجب أن يكون هو سبيل كلّ من اتّبعه في كلّ زمن وفي كلّ جيل، فمن اختار سبيلا آخر غير سبيل رسول الله فقد خالف عن أمر الله.

ومن هنا يجب منع كلّ من اتّخذ سلوكا غير هذا من تولّى هذا الأمر.

رابعا: ''وما أنا من المشركين'':

والشّرك لا يغفره الله ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا (48)**﴾ [النساء: 48].

والذي نستخلصه من هذا العنصر هو أن لا ندعو الناس لأنفسنا ولا لأحزابنا ولا لزعمائنا؛ وإنّما ندعوهم إلى الله وحده.

8. رعاية المسجد بعمارته المادية والمعنوية بتوفير ما يلزم من مرافق النظافة والصحة، وتوظيف القائمين بتأدية الواجبات الدينية والعلمية على الوجه الصحيح، ومنع استعماله لأغراض لا تمت إلى رسالته بسبب. قال تعالى: ﴿**وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا (18)**﴾ [الجن: 18].

جاء في تفسير القرطبي "الجامع لأحكام القرآن" ما يأتي:

"المعنى: والمساجد لذكر الله ولا تتخذوها هزؤا ومتجرا ومجلسا، ولا طرقا، ولا تجعلوا لغير الله فيها نصيبا.

وفي الصحيح: "من نشد ضالّة في المسجد فقالوا: «**لا ردّها الله عليه" فإنّ المساجد لم تبن لذلك**»[1]" (ج19 ـ ص 22).

وقال الله تعالى﴿**فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (36) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (37)**﴾ [النور: 36-37].

وجاء في التّفسير الآنف الذكر أن معنى قوله تعالى: ﴿**وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ**﴾؛ فسّره رسول الله ﷺ بقوله لمعاوية بن الحكم السلمي: «**إنّ هذه المساجد لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير**

(1) أخرجه مسلم في الصحيح، والدارمي في السنن.

وقراءة القرآن». أو كما قال رسول الله ﷺ الحديث بطوله أخرجه مسلم في صحيحه وحسبك.

وسمع عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- صوت رجل في مسجد فقال: **ما هذا الصوت؟ أتدري أين أنت؟** وكان خلف بن أيوب جالسا في المسجد فأتاه غلامه يسأله عن شيء فقام وخرج من المسجد وأجابه فقيل له في ذلك فقال: ما تكلمت في المسجد بكلام الدنيا منذ كذا وكذا فكرهت أن أتكلّم اليوم.

انتهى كلام القرطبي (ج12 ص 226) .

9.ضبط الأوقات التي تمارس فيها العبادات والتي تلقي فيها الدروس؛ لأن الصلاة ذاتها إنما هي عملية تنظيم الوقت واستغلاله على الوجه الصحيح فيما يجلب للمسلم خير الدنيا وسعادة الآخرة، قال تعالى: ﴿**فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا (103)**﴾ [النساء: 103].

10.وفيما يخص صلاة الجمعة، أمر الله المسلمين بأن يتفرّقوا عقب انتهائها مباشرة ليتوجّه كل فرد إلى مكان عمله، قال تعالى: ﴿**فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (10)**﴾ [الجمعة: 10].

11.إن التجمعات التي تبقى في المسجد عقب الصلاة ــ صلاة الجمعة ــ خاصة بدعة منكرة تخالف عن أمر الله صراحة ويجب منع ذلك.

دور المسجد

قال الله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (36) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (37) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (38)﴾ [النور: 36-38] صدق الله العظيم.

يحتلّ المسجد في حياة الأمّة الإسلامية -منذ فجر الإسلام- مكانة بارزة، فهو أوّل عمل قام به الرسول ﷺ عندما حلّ بالمدينة المنورة، فكان للمسلمين قلبهم النّابض بالتّوحيد والوحدة، فهو محلّ للعبادة والذّكر، ومدرسة للتّربية والتّعليم والتّثقيف، وقلعة لتعبئة الجهود وتجنيد الطّاقات للجهاد من أجل نشر الحق ودفع العدوان.

كذلك كان المسجد في الجزائر منذ أنار الإسلام ربوعها بهدايته منارة تدعو إلى الاعتصام بحبل الله، كما تدعو إلى نور الهدى واليقين، وكذلك كان في عهد الاستعمار، حصنا منيعا للشّخصية، حماها من الذّوبان في كيان الاستعمار، فبقيت قويّة شامخة، متمسّكة بمقوّماتها، معتزّة بكيانها وأصالتها الإسلامية، كما كان يحارب الفهوم السّيئة للدّين، وكلّ أنواع الخرافات والبدع المضلّلة التي تشلّ الحركة والسّعي إلى النّهوض وتحقيق الذّات.

وفي عهد الحريّة والاستقلال اتّسع شعاع المسجد وقوي تأثيره واتّسع إشعاعه، فإلى جانب وظيفته الجوهريّة؛ ألا وهي غرس العقيدة الإسلاميّة

الصّحيحة، كما جاءت في الكتاب والسنة، وبثّها في قلوب المواطنين والمواطنات، حتى لا ينحرف النّاس نحو الجحود والإلحاد، واتّباع المذاهب الهدّامة باسم التّقدّم ومواكبة العصر، أو الميل إلى الجمود والتّعصّب والانغلاق والتّقليد، فإنّ المسجد عملَ دوما على إنارة الأبصار إلى المثل العليا، والخلال الكريمة التي لا ينهض مجتمع فاضل إلاّ بها، كحبّ الوطن والتّفاني في خدمته، ونكران الذّات، والإخلاص في العمل، والاعتماد على النّفس، والوفاء بالعهود والمحافظة على الأمانات، كما عمل على محاربة الآفات الاجتماعية على اختلاف أنواعها، كالخمر والقمار والسّرقة وجميع مظاهر الفسوق والاستهتار بالقيم الأصيلة.

ولا شكّ أنّ هذا الإشعاع يزداد اتّساعا وامتدادا بفضل الصّحوة الإسلامية المباركة التي يعيشها الشعب الجزائري المسلم، فقد ازداد إقباله على المسجد، للتّعبد والتّفقه في الدّين، بمختلف فئاته ومستوياته، وبخاصة الشّباب، ذكورا وإناثا، كما ازداد إنفاق المواطنين والمواطنات بسخاء على بناء المساجد، وتشييدها وترميمها، لعلمهم أنّ ذلك من أفضل أعمال البرّ التي يثيب الله أصحابها خير ثواب.

لقد أصبح المسجد أكثر المؤسّسات قدسيّة وفعاليّة في التّأثير والتّوجيه، يوحّد الصّف ويجمع الشّمل ويوطّد أواصر المودّة والإخاء، ويمتصّ كلّ خاف يمسّ كيان الأمّة أو يهدد وحدتها الجامع، وإزداد اهتمام النّاس به، وتوسيع نشاطه فبرزت رغبات متحمّسة تسعى إلى بعث الصورة التي كان عليها المسجد أيّام الرسول ﷺ والخلفاء الرّاشدين من بعده؛ أي عندما كان يقوم بجميع الوظائف التي تضطلع بها اليوم مختلف المؤسّسات، سواء في مجالات

التّربية والتّعليم والتّشريع والقضاء، أو في مجالات الصّحة والتّكوين والاقتصاد، والسّياسة والدّفاع وغيرها.

غير أنّ المسألة لا تنحصر في الإيمان القويّ والنيّة الحسنة والعزم الصّادق؛ إذ العاطفة الجيّاشة لا تكفي وحدها إذا لم تستنر بالحكمة والموعظة الحسنة، واستشارة أهل الذّكر من العلماء؛ لتضمن للأمّة سبيل الهدى والسّلام، خاصة في هذا العصر الذي سيطرت فيه قوى الكفر والطّغيان.

فهل الأصوب والأصحّ أن نلصق بالمسجد من جديد مؤسّسات موازية لجميع المؤسّسات القائمة في شتى المجالات والاختصاصات؟ ! وهل يمكن ذلك أصلا؟ !

أأم أنّ الأصح والأصوب أن يتّسع ويمتدّ إشعاع المسجد؛ لتسري قيمه في تلك المؤسّسات جميعا ؟ ! على المرء أن يتصوّر العواقب التي تنجرّ عن تبنّي هذا التّصور وتطبيقه؛ ولعلّ أبسطها للاضطراب والفوضى واهتزاز العلاقات الاجتماعيّة لتداخل الصّلاحيات والوظائف والخدمات، في مستوى المؤسّسات المختلفة.

إنّ الحفاظ على قدسيّة المسجد وحرمته أمر واجب شرعا وعقلا ليضمن أداء رسالته كاملة، فلا يعكر صفو العبادة في رحابه معكر، باعتباره الركن الأساسي للحياة الروحية والعصب الحسّاس لحركة المجتمع، إذا انتظم واستقرّ، انتظمت أحوال الناس واستقرّت، وإن ترك بلا نظام ساءت الأحوال واضطربت الأمور.

وينبغي للإمام أن يجسّد في نشاطه المسجدي هذه المعاني جميعا، فهو الذي يتّصل مثل الشرائح والفئات والمستويات والأعمار، فلا بدّ أن يكون في مرتبة عالية من التّكريم والاحترام والتّقدير، ومعلوم أنّه لا يبلغ هذه المرتبة العالية إلاّ بشرطين اثنين:

- أن يستكمل جميع الشّروط التي تتطلّبها وظيفتة المقّدسة علما، وروعا، وسلوكا، وسمعة، حتى يضمّن لخطابه المسجدي الفعاليّة والتّأثير، وأن لا يخرج أبدا من الدّعوة إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وإلى تعزيز وحدة الأمة وتوجيهها إلى ما فيه صلاحها وفلاحها في الدّنيا والآخرة.

- إن النشاط المسجدي ينبغي أن يتنزّه عن كلّ دعوة تتحيّز إلى شخص، أو فئة أو جماعة أو حزب، فلا مصلحة إلاّ مصلحة الأمة جمعاء، فالخطاب السّياسي الموجّه، بالمفهوم الضّيق مرفوض في المسجد، إذا قصد به التّقرب إلى شخص أو فئة، أو قصد به التّنفير من جماعة أو حزب؛ لأنّه في هذه الحالة يكون خطابا قد دعا مع الله غيره، وسعى في خراب المسجد بتحريف رسالته، عندما أصبح يُفرّق ولا يجمع، أمّا الخطاب السّياسي العام الذي يخدم مصلحة أمّة، فليس مرفوضا في المسجد ولا معارضا لرسالته؛ لأنّ مواصفات الخطاب السّياسي العام وشروطه معروفة مضبوطة.

إنّ المساجد بيوت الله، فهي مفتوحة لجميع المؤمنين، سواء قصدوا للتّعبد والتّفقه في الدّين، أو قصدوها للتّعليم والوعظ والإرشاد، متى

استوفوا الشّروط اللاّزمة لذلك؛ لأنّ بدون تلك الشّروط لا يستطيع أن يضمن للنّشاط المسجدي الإشعاع المنشود، والمكانة اللاّئقة في نفوس المؤمنين، نذكر من ذلك على سبيل المثال:

أن يرقى في دروسه وخطبه، شكلا ومضمونا إلى مستوى من التّأثّر، يجعل من الدّعوة نفسها وسيلة من وسائل عمارة المسجد، عندما يوجّه كلّ مصلّ إلى الأسلوب الأمثل الذي يجدب به عباد الله من غير المصلين إلى المسجد، وكذلك رفع كلّ لبس قد يسيء إلى الدّعوة، فيجعلها علامة على الإكراه والإرهاب ومعاداة المدينة والحضارة.

أن يحسّس أهل الحي أو القرية أو المدينة بما يجب عليهم نحو مسجدهم، فهم المسؤولون عن كلّ ما يعلي من شأنه، حسّا ومعنى ولا عجب في ذلك، فهو مرآتهم التّي يرى فيها الإنسان، خاصّة الأجنبي، مدى تقواهم وصلاحهم ومدى رقيهم وحضارتهم.

أن يرسخ في النفوس والأذهان آداب الاختلاف، فلا تخرج عن إطارها الصّحي السليم، الذي هو اختلاف تكامل وثراء لا اختلاف تنافر وتخاصم.

وظيفة المسجد:

إنّ كلّ تصوّر أو اجتهاد في وظيفة المسجد ينبغي أن يستند إلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، ويدرس بعمق تطوّر المجتمع الإسلامي في التّاريخ؛ ليفصل بوعي بين ما هو جوهري ثابت، ومن صميم وظيفة المسجد لا

ينفصل عنها أبدا، وبين ما هو عرضي ظرفي، ومجرّد ضرورة أملتها طبيعة مرحلة من مراحل تطوّر حياة المجتمع، ممّا لا يمكن بحال أن يفهم على أنّه تشريع أو سنّة ملزمة.

إنّ الوظيفة الأساسيّة الدّائمة للمسجد، التي حدّدها القرآن وبيّنتها السّنة، هي الوظيفة التّعبديّة بكلّ ما تحمل من معاني وما تحقّقه من أبعاد.

قال تعالى﴿**فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (36) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (37)**﴾ [النور: 36-37]، وقال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (18)**﴾ [التوبة: 18].

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه فيما بينهم إلاّ نزلت عليهم السّكينة وغشيتهم الرّحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»[1].

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما هي المساجد لذكر الله عز وجل والصلاة وقراءة القرآن»[2].

(1) أخرجه مسلم في الصحيح، وأبو داود، والترمذي في السنن.

(2) أخرجه مسلم في الصحيح، وأحمد في المسند.

والذي يجب عليه شرعا وعقلا ضمان تحقيق المسجد لهذه الرّسالة المقدّسة؛ إنّما هو ولي أمر جماعة المسلمين، أي الدّولة بالتّعبير الحديث، أنّ المساجد وقف عام، والوقف العام لا يمكن بحال أن يؤول أمره –لا حسا ولا معنى– إلى فرد أو جماعة أو حزب؛ وإنّما أمره إلى الدّولة المكلّفة والمسؤولة، لا عن امتلاكه وتوجيهه واستغلاله، لكن عن حرمته وقداسته واستقلاليّته في أداء رسالته التّعبديّة والتّعليمية والتّربوية.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

إنّ من أخصّ خصائص الأمّة الإسلاميّة، وأبرز سمات المجتمع المسلم، الأمر بالمعروف والنهّي عن المنكر، وهو كمال رسالته ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (157)**﴾ [الأعراف: 157].

فالرّسول ﷺ هو الذي أمر الله على لسانه بكل معروف، ونهى عن كل منكر، وأحل كل طيب، وحرم كل خبيث؛ ولهذا روي عنه ﷺ أنه قال: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[1].

(1) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، والقضاعي في مسند الشهاب.

وعن أبي سعيد الخدري أنّ رسول الله ﷺ قال: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[1].

ومعنى الحديث أنّ من علم منكم-معشر المسلمين المكلفين القادرين- شيئا قبحه الشّرع، فعلا أو قولا، فليزله بيده، إن كان ممّا يزال باليد، فإن لم يستطع الإنكار باليد، لخوفه من لحوق ضرر به، لكون المنهي أقوى منه، فالواجب تغييره بلسانه؛ أي بالقول، شريطة أن لا يغلب ظنّ أن المنهي يزيد عنادا، ثم إن كان المأمور ظاهرا، كصلاة وصوم، لم يختصّ بالعلماء، وإلاّ فبمن علمه منهم، وإن يكون المنكر مجمعا عليه، ولا يناقض الخير: "عليكم أنفسكم، لا يضركم من ضل إذا اهتديتم: لأن معناه: إذا كلفتم ما أمركم به لا يضركم تقصير غيركم إذا كلفتم ما أمركم به لا يضركم تقصير غيركم.

والمعروف، بإجماع العلماء، وهو ما أمر به الله رسوله، ولا منكر بعد ذلك، إلاّ ما اجتمعت الأمّة الإسلامية على إنكاره.

ومعلوم أنّ الأمر بالمعروف لا يكون إلاّ بمعروف، ومثلما أنّ النّهي عن المنكر لا يكون إلاّ بغير منكر يقول الإمام ابن تيمية: "إذا كان الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر من أعظم الواجبات، لابدّ أن تكون المصلحة فيها راجحة على المفسدة؛ إذ بهذا بعثت الرّسل، ونزل الكتب، والله لا يحبّ الفساد، بل كل ما أمر الله به هو صلاح، فحيث كانت شدّة الأمر والنّهي أعظم من مصلحته، لم يكن ممّا أمر الله به، وإن كان قد ترك واجبا، وفعل

(1) أخرجه مسلم في الصحيح، والنسائي في السنن.

محرّما؛ إذ المؤمن عليه أن يتّقي الله في عبد الله، وليس عليه هداهم، وهذا من معنى قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (105)**﴾ [المائدة: 105].

ويضيف، أنّ هناك فريقين في النّاس:

- فريقا يترك ما يجب عليه من الأمر والنّهي، تأويلا لهذه الآية، كما قال أبو بكر الصّديق ﷺ في خطبته: "أيها الناس إنّكم تقرأون هذه الآية، وإنّكم تضعونها على غير موضعها، وإني سمعت النبي ﷺ: "إنّ النّاس إذا رأوا منكرا فلم يغيرون أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه".

- وفريقا يريد أن يأمر بلسانه، ويغّير بيده مطلقا، من غير فقه، ولا حلم، ولا صبر ولا نظر فيما يصلح من ذلك وما لا يصلح، وما يقدر، وما لا يقدر، كما في حديث أبي ثعلبة الخشني:

سألت عنها -أي الآية- رسول الله ﷺ فقال: «بل ائتمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متّبعا، ودينا مؤثّرة، وإعجاب كلّ ذي رأي برأيه، ورأيت أمرا لا يدان لك به، فعليك بنفسك، ودع عنك أمر العوام، فإنّ من ورائك أيّام الصّبر، الصّبر فيهن مثل قبض على الجمر، للعامل فيهن كأجر خمسين رجلا يعملون مثل عمله»[1]، فيأتي بالأمر والنّهي معتقدا أنّه مطيع لله ورسوله، وهو معتد في حدوده، كما نصب

(1) أخرجه أبو داود في السنن، وابن حبان في الصحيح، والبيهقي في السنن الكبرى.

كثير من أهل البدع والأهواء نفسه للأمر والنهّي فكان فساده أعظم من صلاحه، (ابن تيمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر).

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب، وفرض لا يسقط مع القدرة إلا بقيام قائم به.

مواصفات المنكر:

1 ـ المنكر أعمّ من المعصية، ولا يختصّ بالكبائر؛

2 ـ أن يكون ظاهرا بغير تجسّس؛ لقوله تعالى: ﴿**وَلَا تَجَسَّسُوا**﴾.

3 ـ أن يكون متّفقا عليه، معلوما بغير اجتهاد،

وللقيام بالإنكار درجتان:

1ـ التّعريف: تعريف المزجور أنّ ما يفعله منكر، لأنّه قد يقدم عليه جهلا، فإذا عرفه تركه.

2. اللّطف: أن يكون باللّطف، واللّين، فلا تجريح، ولا تشهير، لأنّه لا يغسل الدّم بالدم ولا البول بالبول، أي لا يغيّر منكر بمنكر.

آداب القائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

1ـ العلم: ليعلم مواقع الأمر والنهي، وليقتصر على حد الشرع فيه.

2ـ الورع: ليردّه عن مخالفة معلومة، ولا يحمله غرض من الأغراض على مجاوزة الحد المأذون شرعا، وليكون كلامه مقبولا، فإنّ الفاسق يهزأ به، إذا أمر ونهى، ويورث ذلك جراءة عليه.

3. حسن الخلق: ليتمكّن به من اللّطف والرّفق، وهو أصل الباب وأساسه، والعلم والورع لا يكفيان فيه، فإنّ الغضب إذا هاج لم يكف مجرّد العلم والورع في قمعه، لم يكن في الطّبع قبول له، بحسن الخلق.

عن عائشة -رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ قال: «يا عائشة إنّ الله رفيق يحبّ الرّفق، ويعطي على الرّفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه»[1].

وبوجود هذه الصّفات، يصير الإرشاد من القربات، وبه تندفع المنكرات، وإن فقدت لم يندفع المنكر.

وقد حكي أنّ المأمون قد وعظه واعظ، وعنف له في القول، فقال: "يا رجل، ارفق، فقد بعث الله من هو خير منك إلى من هو شر مني، وأمره بالرّفق، فقال تعالى: ﴿**فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44)**﴾ [طه: 44]، "فليكن اقتداء المرشد بالأنبياء".

(1) متفق عليه، أخرجه البخاري ومسلم.

المنكر محظور ومكروه:

- المنكر المحظور هو المنكر مطلقا، ويكون السّكوت عليه، مع القدرة محظورا،

- والمنكر المكروه يكون المنع منه مستحبّا، والسّكوت عنه مكروها، ليس بحرام.

ومن الأمثلة للمنكر المحظور والمكروه، في المساجد، مثلا: إساءة الصّلاة، بترك الطّمأنينة في الرّكوع، والسّجود، وهو منكر مبطل للصّلاة، بنصّ الحديث، فيجب النّهي عنه، ومن رأى مسيئا في صلاته فسكت عليه فهو شريكه.

ومنها قراءة القرآن ملحونة، فيجب النهّي عن ذلك، وتلقين المخطئ، والذي يُكثر اللّحن في القرآن إن كان قادرا على التّعلم، فليُمنع عن القراءة قبل التعلم.

أمّا عن مكروه فمنها:

- تراسل المؤذنين في الآذان، وتطويله، بمدّ كلماته،

- ومنها التحلق، يوم الجمعة، لبيع الأدوية والأطعمة، والتّعويذات، وكقيام المستوّلين وقراءتهم القرآن وإنشادهم الأشعار، وما يجري مجراه، كّل ذلك منكر يمنعون منه.

- ومنها بيع الأدوية والأطعمة والكتب، فيطلب المنع منه، فإنّ المساجد لم تبن لهذا.

تنظيم المسجد وتسييره:

القائمون بالمسجد:

أجمع العلماء في الإسلام على أنّ ولي الأمر أولى بالإمامة في الصّلاة، إلاّ أن يأذن لغيره بذلك، اقتداءً برسول الله ﷺ والخلفاء الرّاشدين من بعده.

فقد كان رسول الله ﷺ إذا بعث أميرا جعل الصّلاة إليه، فولاية الّصلاة أصل في نفسها، كما قال ابن العربي في الأحكام.

فقد كانت السنّة أن الذي يصلي بالمسلمين الجمعة والجماعة ويخطب بهم، هم أمراء الحرب الذين هم نوّاب ذي السّلطان على الجند؛ ولهذا لّما قدّم النبي ﷺ أبا بكر في الّصلاة، قدمه المسلمون في إمارة الحرب، وغيرها.

ووجوب استعمال الأصلح من المسلمين للإمامة من باب أداء الأمانة؛ لقوله ﷺ: «من ولي من أمر المسلمين شيئا، فولّى رجلا وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين»[1].

فالأحقّ بالإمامة في حكم الشرع الأقرأ لكتاب الله، فإن استووا فالأعلم بالسنّة فإن استووا فالأقدم في الهجرة، فإن استووا فالأكبر سنًّا.

(1) أخرجه العقيلي في الضعفاء الكبير، الحاكم في المستدرك، والبيهقي في السنن الكبرى.

فعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول ﷺ: «إذا كانوا ثلاثة فليؤمهم أحدهم، وأحقهم بالإمامة أقرؤهم»[1]، والمراد بالأقرأ أكثرهم حفظا لكتاب الله، لحديث عمر بن سلمة، وفيه: «ليؤمّكم أكثركم قرآنا»[2].

وعن ابن مسعود ﷺ قال: رسول الله ﷺ: «يؤمّ القوم أقرؤهم لكتاب الله، فإن كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنّة فأقدمهم هجرة فإن كانوا في الهجرة سواء فأقدمهم سنّا، ولا يؤمن الرجل الرجل في سلطانه ولا يقعد في بيته على تكرمته إلاّ بإذنه»[3]، وفي لفظ: «لا يؤمن الرّجل الرّجل في أهله ولا سلطانه»[4].

لكن قال فيه: «لا يؤمن الرّجل الرّجل في سلطانه إلاّ بإذنه، ولا يقعد على تكرمته في بيته إلاّ بإذنه»[5].

ومعنى هذا أنّ السّلطان وصاحب البيت والمجلس أحقّ بالإمامة من غيره، ما لم يأذن واحد منهم، فعن أبي هريرة ﷺأن النبي ﷺ قال: «لا يحلّ

(1) أخرجه مسلم في الصحيح، والنسائي، والدارمي في السنن.

(2) أخرجه مسلم في الصحيح، والنسائي في السنن، وأحمد في المسند.

(3) أخرجه مسلم في الصحيح، وأبو داود في السنن، والترمذي في السنن.

(4) أخرجه ابن خزيمة في الصحيح بلفظ: «ولا تؤمن رجلا في سلطانه ولا في أهله ولا تجلس على تكرمته إلا بإذنه " – أو قال : " يأذن لك».

(5) أخرجه مسلم في الصحيح، وأبو داود في السنن، والترمذي في السنن.

لرجل يؤمن بالله واليوم الآخرة أن يؤم قوما إلاّ بإذنهم، ولا يخصّ نفسه بدعوة دونهم فإن فعل فقد خانهم»[1].

(1) أخرجه أبو داود في السنن، والحاكم في المستدرك، والبيهقي في السنن الكبرى.

الآداب المرعية في المسجد

المساجد بيوت الله مثلما يؤجر من يشيّدها ويساهم في بنائها وعمارتها، كذلك يأثم من لا يرعى حرمتها وآدابها، باتّخاذها منتديات لتحقيق أغراض شخصيّة أو جماعيّة، مما يدخل في باب المآرب الدّنيوية المحضة، فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «من سمع رجلا ينشد ضالة في المسجد فليقل لا ردّها الله عليك، فإنّ المساجد لم تبن لهذا»[1].

وعنه ﷺ أن النبي ﷺ قال: «إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد فقولوا له لا أربح الله تجارتك»[2].

فالمنهى عنه كلّ ما اشتمل على هجو مسلم، أو مدح ظالم، أو فحش أو تشهير، أو تجريح وطعن، ممّا يجعل المسجد ساحة للصّراع بين الأفراد والفئات، وذلك كله تجنيبا للمسلم كلّ خلاف يمسّ أخوة المسلمين ووحدتهم، فاستمرار وظيفة المسجد الأساسيّة، وكدار التّوحيد والوحدة هو الذي حرص عليه علماء المسلمين وأئمّتهم في كلّ عصر ومصر، فلم يتردّدوا يوما في التّضحية بكلّ خاص طارئ، عندما يهدّد هذه الإخوة وهذه الوحدة، بل إنّهم كانوا يضحّون حتى ببعض السّنن الحسنة في الدّين، متى كانت مثارا لخلاف وخصام وفرقة.

(1) أخرجه مسلم في الصحيح، وأبو داود، وابن ماجة في السنن.

(2) أخرجه الترمذي، والدارمي في السنن، والنسائي في السنن الكبرى.

فقد روى أن فريقين من المسلمين اختلفوا في صلاة التّراويح أهي عشرون ركعة، كما صليت في عهد عمر ﷺأو هي ثماني ركعات، كما ورد أن النبي ﷺ كان لا يزيد على ذلك في رمضان ولا غيره، ولما اشتدّ النّزاع، وكادت تحدث فتنة، احتكموا إلى الشيخ حسن البنا، فيما اختلفوا فيه فسألهم: "ما حكم صلاة التّراويح، قالوا سنة يثاب من فعلها ولا يعاقب من تركها، قال وما حكم إخوة المسلمين؟ قالوا فريضة ودعامة من دعائم الإيمان، قال: وهل يجوز في شرع الله أن نضيع فريضة للمحافظة على سنة؟ إنّكم لو أبقيتم على إخوتكم ووحدتكم، وانصرفتم إلى بيوتكم ليصلي كلّ منكم في بيته ما ترجّح عنده وأطمأنّ إلى دليله: ثماني ركعات أو عشرين، لكان خيرا من أن تختصموا وتقتتلوا (الصّحوة الإسلامية بين الجمود والتّطرّف، الشيخ يوسف القرضاوي).

المهمّة التّربوية والتّوجيهيّة:

ينبغي أن يجسّم المسجد مضمونه كمركز إشعاع يؤثّر فعلا في جميع الفئات والشّرائح ولأعمار، ولا يحقّق ذلك إلاّ إذا راعى ثلاثة مستويات متكاملة ونشط فيها، زيادة على رسالتها الأساسيّة والجوهريّة.

1 المستوى الأوّل:

هو النّشاط الذي يقدم للمواطنين والمواطنات عموما، ممّن يعمرون المساجد ويزداد إقبالهم عليها، للتّعبّد والتفقه في الدّين، فينبغي للقائمين على المساجد أن يستحضروا جملة من العوامل الموضوعية باعتبار نسبة الأمية

المنتشرة في هؤلاء المواطنين والمواطنات، وتحسّس مدى رضاهم بما يتلقّون في المسجد من دروس وتوجيهات، ومدى انسجام مضامينها مع همومهم وتطلّعاتهم حسب الأولويّات الملحّة؛ انطلاقا من واقع كلّ فئة، واعتبارا لتمايز الأوضاع البيئيّة والنّفسيّة الاجتماعية.

2 ـ المستوى الثاني:

موجّه للشّباب الذي يشكّل نسبة عالية من المجتمع، وهو طاقته الحيّة، وعماد نهضته المنشودة، وهو كذلك المستهدف من كلّ مخطّط يريد أن يعرقل مسيرة الأمّة أو تحريفها عن نهجها القويم الأصيل.

هذا الشّباب له همومه، ومعاناته اليومية، ومشكلاته الملحّة، من ذلك مثلا رسوبه في البكالوريا بنسبة مرتفعة، فهل من الصّحي والمعقول أن يهمل المسجد هذه الأبعاد الواقعية جميعا، ويشغل الشّباب بمسائل شكليّة لا تمت إلى واقعه النّفسي والاجتماعي بأدنى صلة، كالاهتمام بالخلافات الفقهيّة الشّكلية، على حساب ما يحتجون وما ينتظرون من رعاية ونصح وتوحيد؟ !

3. المستوى الثّالث:

المجتمع المتّزن السّليم هو الذي يضمن لجميع أفراده وجدانا صافيا وقيما ـجوهريّة موحّدة، وهذا لا يكون إلاّ في مرحلة الطّفولة، ولّما كان المسجد في المجتمع الإسلامي هو القلب النّابض بهذه القيم كان لزاما أن يهيِّء الطّفل نفسيّا ليمتّن علاقته به، ويحكمها... لأنّ المسجد هو الذي يتوّج الانسجام الذي تحقّقه كلّ من الأسرة والمدرسة في إعداد الطّفل.

إنّ المسجد جسّ يومي لنبض المجتمع الإسلامي، وصياغة متجدّدة لذهنيّته ووجدانه، ولا يكون كذلك إلاّ إذا كان القائمون عليه في مستوى هذه المهمّة العظيمة.

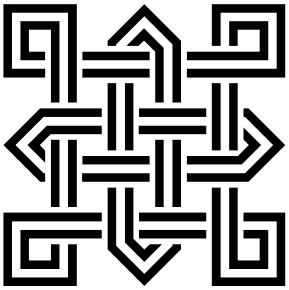

المناسبات الدّينية

الاحتفال بالمولد النبوي الشريف

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (45) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (46) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا (47)﴾ [الأحزاب: 47].

يحتفل المسلمون في كافة البلدان الاسلاميّة بحلول مولد رسول الله محمد ﷺ هذه السّنة، كما احتفلوا دائما في السّنوات الماضية عبر القرون، وكما سيستمر ذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وما عليها، وهو خير الوارثين؛ لأنّ سنّة الله في الكون اقتضت أن يعيش الخلق ذكريات الماضي وأحوال العصر وما يأتي به الزمن في المستقبل.

غير أنّ الاحتفال بما مضى إنّما يعني أن يتذكّر الإنسان ما ينبغي أن يكون؛ عبرة ودرسا يستمد منه الهدي فيما سيأتي، وذلك ما يدعو إليه الإسلام فالنّظر إلى الاحتفال بالمولد النبوي الشريف يجب أن يدخل في هذا المعنى الجليل الذي جاء في أمر الله تعالى لرسوله الخاتم الذي ورد في سورة الذريات الآية 55 وهو قوله ﷻ: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (55)﴾ [الذريات: 55]، وأي ذكرى هذه؟؟ إنّها تتربّع في قلوبنا وعقولنا على رأس كلّ الذّكريات، إنّها تعيد إلينا صفحات منيرة مشرقة من حياة رجل اختاره الله لحمل رسالته وجعله قدوة لأمّته عبر الأجيال والقرون، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (21)﴾ [الأحزاب: 21].

والآن علينا أن نقتطف قبسات من رسول الله ﷺ:

جاء رسول الله ﷺ برسالة من الخالق لهداية الخلق، فأحدثت تحولا مذهلا في حياة البشرية كانت رسالة تحريريّة في عالم الضّمير، خلَّصت الإنسان من الخرافة والوهم وزكت ضميره، فتخلّص من الشّرور وتزوّد بالنور؛ لأنّه يأوي إلى ركن شديد، حين تحرّر من عوامل التّبديد وتزوّد بالتّوحيد، وفي فترة قصيرة من الزّمن المديد لم تزد على ثلاثة وعشرين عاما تمّت تحوّلات شاملة في عوالم الرّوح والاجتماع والاقتصاد والتّجنيد العام والثقافة الشاملة والنّظام العام، ما كان ذلك ليتمّ لولا اتّصال قوّة البشر بقوة الأزل، إنّ الخوارق التي تمّت هي أعظم من ثقل الجبال وتجفّف البحار وتحويل العناصر.

رسالة تحريريّة شاملة قلبت كل الأوضاع الفاسدة التي نزلت بآدمية الإنسان إلى أدنى مستوى.

إنّها أحدثت رجّة في عالم الشّرك؛ فقضت على الوثنيّة الحجريّة والوثنية البشرية، ونزّهت الذّات الإلهية عند النِّدِّ والإشراك الذي كان عميق الجذور، وكانت البشريّة تعاني الويلات بعد مرور فترة من رسالات التّوحيد السّابقة، وكلما انحرفت البشرية عن الإدراك السّليم التقت جماهيرها بالشّرك في صورة من صوره، وما التمسّك إلاّ صورة من صوره، وإن تزيّت بزيّ الدّين، وكانت تحوّلا عن طاغوت التّعّصب ودعوة جادة لرفض التّفرقة العنصرية والمناداة بمساواة البشر وإعطاء الأفضلية للأتقى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13)**﴾ [الحجرات: 13].

ولو امتدّ التّطبيق الأمين للتّوجه الإسلامي في مجال تكريم الإنسان ورفض التّعصب والّتفرقة ما شهد العالم ما يحدث من انتهاكات للشّخصية الإنسانية جرّاء العنصريّة والجهويّة والقبلية واللّونية؛ مثل ما هو قائم في الزّنوج والهنود الحمر...ومثل ما هو معيش في أرض الإسلام حاليا من فضائع الصّهاينة وانتهاكاتها المتكرّرة، ومن الهجمات الشّرسة من كافة الجهات الحاقدة على دين الله وسنة رسوله المصطفى ﷺ، ومن هنا علينا أن نلقي نظرة على بعض المواقف التي تزخر بها الرّسالة المحمدية من خلال سيرة الرسول العطرة فنرى:

- الصّدق في أسمى تجلّياته فمنذ انطلاقة الوحي نجده ﷺ لم يخف شيئا؛ فهو قد أعلن لأمّ المؤمنين خديجة أوّل من أسلم في الأرض أنّه يخشى على نفسه من الجنون، حين لم يعلم بعد بسرّ ما سمع من أول الوحي: فطمأنته وثبّتته وذكّرته بالخصال الحميدة التي أودعها الله فيه، وأنّ مثله في عظمة وسموّ أخلاقه لا يخذل الله أبدا.

- موقفه من جماهير النّاس في مكة وعلى رأسهم أعيانهم عندما خطابهم قائلا:

يا أهل مكة هل علمتم علي كذبا؟ فأجابوا مجمعين: لا.

وعندما سأل هرقل أبا سفيان: هل علمتم عنه شيئا من الكذب؟ فأجاب بالنّفي، فقال هرقل: "رجل لم يكذب قط على النّاس فكيف ويكذب على الله؟

- إلى جملة أسئلة أخرى كانت أجوبتها كلّما تزكى رسالته أمانة التبليغ: في كتاب الله عديد من الآيات الكريمة شهر له بذلك، فحين يعاتبه الله على موقف يبلغه كما تلقاه.

نرى ذلك في موقفه من الذين استأذنوه بعذر كاذب، فقال الله له: ﴿**عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (43)**﴾ [التوبة: 43].

وقضاؤه في أسرى بدر حين قبل الفداء ميلا إلى مشورة الصديق وتركا لموقف عمر ﴿**مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (67)**﴾ [الأنفال: 67].

ومن قضية الأعمى: ﴿**عَبَسَ وَتَوَلَّى (1) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَى (2)**﴾ [عبس: 1-2]، إنّ الذي عبس هنا في وجه الأعمى هو رسول الله ﷺ؛ اجتهادا منه من إقناع الطغاة التّسوية بين النّاس في الحق والجزاء، «والله لو أنّ فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»[1] العدل في الأحكام والنّزاهة في التّطبيق «إن أوّل ربًا أضعه هو ربا عمي العباس فأضعه تحت قدمي»[2].

من خطبة الرسول في حجة الوداع:

(1) متفق عليه، أخرجه البخاري ومسلم.

(2) أخرجه مسلم في الصحيح، وأبو داود، وابن ماجة في السنن.

- رعاية الكرامة وحفظ الحقوق «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا اللّهم هل بلغت؟»[1].

- حفظ كرامة المرأة: «إن النساء عندكم عوان»[2].

- حفظ الإيمان بحفظ الائتلاف وصيانة السلام: «لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض»[3].

- في سورة آل عمران قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (105)

(1) أخرجه أحمد في المسند، وعبد الله بن المبارك، والحارث في المسند، ولفظه عند أحمد: «يا أيها الناس ، ألا إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا أحمر على أسود ، ولا أسود على أحمر ، إلا بالتقوى أبلغت " ، قالوا : بلغ رسول الله ، ثم قال : " أي يوم هذا ؟ " ، قالوا : يوم حرام ، ثم قال : " أي شهر هذا ؟ " ، قالوا : شهر حرام ، قال : ثم قال : " أي بلد هذا ؟ " ، قالوا بلد حرام ، قال : " فإن الله قد حرم بينكم دماءكم وأموالكم " قال : ولا أدري قال : أو أعراضكم ، أم لا كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا أبلغت " ، قالوا : بلغ رسول الله ، قال : " ليبلغ الشاهد الغائب».

(2) أخرجه ابن ماجة في السنن، وأحمد في المسند، ولفظه عند ابن ماجة: «استوصوا بالنساء خيرا ، فإنهن عندكم عوان ، ليس تملكون منهن شيئا غير ذلك ، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع ، واضربوهن ضربا غير مبرح ، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ، إن لكم من نسائكم حقا ، ولنسائكم عليكم حقا ، فأما حقكم على نسائكم ، فلا يوطئن فرشكم من تكرهون ، ولا يأذن في بيوتكم لمن تكرهون ، ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن».

(3) متفق عليه، أخرجه البخاري مسلم.

يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (106) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (107)﴾ [آل عمران: 105-107].

إنّ التّفرّق بعد أن تّبين الحق بالبينات يعدّ كفرا، وهو الكفر بنعمة الله الذي وصل الصف بالإسلام.

- وفي موقف عرفات إعلان للمرجعيّة التي على المسلمين أن يردّوا إليها كلّ أشكالهم؛ ليجدوا الحلّ السّليم والنّهج القويم: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبدا: كتاب الله وسنة رسوله»[1].

- إعلان اكتمال المنهج وإتمام الرّسالة وتحديد المعالم التي يتضمنها الإسلام.

هذه بعض اللّمحات المضيئة التي لوم تأمّلناها لأعطتنا دفعا نحو تحقيق ما أمرنا الله بالسّعي لبلوغه، وهو بناء خير أمّة خرجت للناس.

مراحل الدعوة:

- مرحلة التّبليغ للأقربين وهذا طبيعي ليبتدئ البناء من الدّاخل **﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (214) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (215)﴾** [الشعراء: 215]، فكان أوّل من أسلم من أهله زوجته خديجة الكبرى ﷺ، ومولاه زيد، وابن عمه علي.

(1) أخرجه مسلم في الصحيح، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجة في السنن.

- تحميل المسؤوليّة الشخصيّة ونبذ الاعتماد على الغير مهما كان مقامه ووزنه: «يا آبا عبد المطلب، يا صفية أم الزبير (وهي عمته) يا فاطمة بنت محمد أبشروا أنفسكم، لا أغني عنكم الله شيئا»[1]، كانت هذه دعوته الأولى لأهله ولقريش.

- دعوة العرب حول مكة وفي ذلك قوله تعالى ﴿**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (7)**﴾ [الشورى: 7]، وكان يعرض نفسه على القبائل في موسم الحج إلى أن كانت بيعة العقبة الأولى، وفي الثانية وقّعت معاهدة بين رسول الله وبين الأنصار، وكان ذلك بحضور عمّه العباس.

- الأمر بالتّبليغ العام لمن في عصره ولمن بعدهم: قال ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (158)**﴾ [الأعراف: 158]، فراسل قادة الدّول: قيصر وكسرى والمقوقس، والنجاشي وغيرهم، وتابع الرّاشدون بعده أمانة التّبليغ العام؛ لأنّ رسول الله ﷺ أمر كلّ من بلّغه الدعوة أن يبلّغها حين أكدّ خطبة الوداع بقوله:

(1) أخرجه مسلم في الصحيح، والنسائي في السنن، وأحمد في المسند، ولفظه عند مسلم: «لما نزلت وأنذر عشيرتك الأقربين قام رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصفا ، فقال: " يا فاطمة بنت محمد ، يا صفية بنت عبد المطلب ، يا بني عبد المطلب ، لا أملك لكم من الله شيئا ، سلوني من مالي ما شئتم».

«فليبلغ الشاهد منكم الغائب»؛ وفي ذلك قوله تعالى: ﴿**قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (19)**﴾ [الأنعام: 19]؛ أي لأنذركم بالقرآن وأنذر له من بلغ القرآن، فعم بذلك الأمر كلّ من بلغه.

ومن ثمة كانت مسؤولية التّبليغ شاملة لكلّ من دخل في دين الله جيلا بعد جيل؛ وفي ذلك قوله تعالى ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (108)**﴾ [يوسف: 108].

إنّ هذا الرّسول العظيم كان خيرا وبركة أنعم الله بها على العالمين، وبذلك أحبّه كلّ من رآه، وأحبّه كل من قرأ سيرته العطرة ووعاها فلمست عقله فاستنار، ولمست قلبه فأحب صاحبها ﷺ، ومن هنا أردت أن أتكلّم قليلا عن المحبّة عموما ومحبة رسول الله على وجه الخصوص:

إنّ الذي يحبّ لا بدّ أن يكون ذلك لحسنه أو لإحسانه، قال المتنبي: "ومن وجد الإحسان قيدا تقيدا".

وصاحب هذه الذّكرى قد جمع الأمرين معا، على أكمل وجه وأروعه، فله من الحسن ما كان به أكمل الناس؛ حتى استطاع القيام بأمانة التّبليغ وصرف التّطبيق، نرى ذلك من خلال أخلاقه وشمائله وفي كلّ مواقفه في أيّ مجال، وله من الإحسان ما أنقذ به البشريّة وكان رحمة عامة وخاصة، فمن حقّه على النّاس كافة وعلى المؤمنين خاصة أن يحبّوه كما قال ﷺ: «لا يؤمن

أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من ولده ووالده والنّاس أجمعين»[1]، وكم في النّاس من يحبّه هذه المحبة، ولم يسمع بهذا الحديث؟

إن محبة المغامرة يراها من جعل الإيمان ودخول الجنة قائمين على التحابب بين المؤمنين، قال ﷺ: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلّكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السّلام بينكم»[2]، إن الإسلام هو السّلام، وقد اشتق من فعل سلم.

جعلنا الله من أهل السّلام ورزقنا الأسوة برسول الله قولا وعملا وسلوكا إلى أن نلقى الله على الإسلام كما نسأله تعالى أن يجعلنا ممن يبوئهم دار السلام.

(1) متفق عليه، اخرجه البخاري ومسلم.

(2) أخرجه مسلم في الصحيح، وأبو داود، وابن ماجة في السنن.

من معاني العيد

واقع المسلمين ومدلول العيد

إنّ العيد في حقيقته وقفة مع التّاريخ؛ لاستعادة أمجاد الأمّة ووصلها بها، وذلك عندما تقف متأمّلا فيما تحمله أعيادها من مدلولات ومبادئ تحرص الشّعوب المتحضّرة على الحفاظ عليها حتى تظلّ عزيزة كريمة.

والأمّة الإسلامية غنيّة بهذه المعاني، عندما تسترجع ما كان عليه سلفها المعتزّ بدينه والمتمسّك بمبادئه التي تقوم عليها حياته عبر الأجيال.

وقد جعل الله للمسلمين عيدين في السّنة الواحدة، أحدهما: عيد الفطر، والثّاني: عيد الأضحى، فبالنّسبة للأوّل، فإنّه يأتي عقب صيام شهر رمضان إتماما للصّيام وإكمالا لعدّته، وشكر الله على ما أنعم على عباده من تشريع ينظّم حياتهم، وِفق المبادئ والمثل التي تحفظ كيانهم وتجدّد نشاطهم وتعزّز قواهم في كافة الميادين، مثلما يفعل الصّيام الذي يأتي بنظام تجديدي يغيّر فيه المسلم نمط عاداته فيدخل تغييرا شاملا على نظام حياته طيلة الشّهر، ويعلنها خربا على الرّوتين المتحكّم، والشّهوة المسيطرة وتحُول القيادة إلى الإرادة المؤمنة التي تقود نظام عيشه مدّة شهر كامل، وفي ذلك تجديد لكلّ خلايا جسمه وتغير شامل يعوّده على التّكيّف مع الأحداث والاستعداد للطّوارئ والتأهب لمواجهة كلّ العقبات، واليقظة الدّائمة كما يمكن أن تفاجئ به صروف الدّهر، فإذا عاش شهره كما شرع الله خرج منه كيوم ولدته أمّه زكيّا نقيّا مستعدّا للعمل الجاد والسّعي الرّشيد، وعندئذ يكبّر الله ويشكره على ما أنعم عليه بهذا التّشريع الحكيم؛ وفي ذلك قوله تعالى:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (185)﴾ [البقرة: 185].

أمّا بخصوص عيد الأضحى فإنّ مدلوله عظيم، لا يقلّ عن مدلول عيد الفطر؛ إذ هذا الأخير هو إعداد النّفس لتحمّل العظائم والإقبال على المكارم.

وأمّا الأضحى فهو تذكير بقصّة الفداء الإبراهيمي، التي وردت في سورة الصفات من الآية 99 إلى الآية 110.

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ (99) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (100) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (101) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (102) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (103) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (104) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (105) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (106) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (107) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (108) سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (109) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (110) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (111)﴾ [الصافات: 99-111]، ومن خلال النّص القرآني تستمدّ الآتي:

أوّلا: إنّ اعتماد منهج شامل للحياة يهتدي به الإنسان إلى الرّشد في كلّ المجالات؛ إنّما يستمد من الله وحده خالق الخلق وباسط الرّزق وواسع الرّحمة والكفيل وحده بالهداية، أمّا الانحراف عن هذا الخط فهو المعيشة الضّنك وسوء المصير.

يرشدنا إلى ذلك قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ (99)**﴾ [الصافات: 99]، وقوله: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124)**﴾ [طه: 124]، ثم إنّ هذه الحياة المطمئنّة التي يهنأ فيها العيش ويطيب لا تقوم إلاّ وِفق سنّة الله في الكون، تلك التي لا تغيير فيها ولا تبديل، وهذه السنّة اقتضت أنّ الإنسان هو الذي يقيم نظام عيشه، فإذا ما صحت عقيدته وصفت رؤيته وزكت سريرته، فإنّ ما ينتج عن ذلك كلّه سيكون خيرا وبركة عليه وعلى من يليه، ومنها هذا الدعاء الخاشع: ﴿**رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (100)**﴾ [الصافات: 100].

إنّ كثرة الولد في غير رشد ولا صلاح ليس مطلب أهل التّقوى؛ لأن البذرة الطّيبة هي التي تنتج ثمرا طيبا، ومن هنا فلا بد من إعداد منهج تربوي من شأنه بناء جيل صالح يضمن التّواصل بين الأجيال في هذه الأمّة الرّاشدة، ثم يأتي المدلول الكبير الذي يتمثّل في الاستعداد لتحمّل تكاليف الرّسالة مهما كانت شديدة على النّفس ومهما كان الثمّن المبذول من أجلها.

إنّه عند ما استجاب الله لدعاء الخليل عليه السلام ورزقه الابن الصّالح الذي تحلّى بالحلم ونشأ وكبر حتى استوى عوده وأصبح يسعى مع أبيه لتحمّل

مسؤوليات الحياة بكلّ تبعاتها عندها يُؤْمَر الأب بتنفيذ أمر خطير وكبير لا يخطر ببال أحد.

إنّ إبراهيم الخليل رسول الله وبنيه يتلقّى الأمر بأن يتولّى بنفسه ذبح ابنه، وهنا تأتي مجموعة من التّوجيهات المتفرّدة على طريقة القرآن في التّوجيه.

إنّ الأب يقوم فقط بمهمّة الإبلاغ ولا شيء غير الإبلاغ؛ لأنّ الولد أصبح راشدا لا يعامل بعبارة: "افعل ولا تفعل"؛ إنّما تعرض عليه القضايا باعتباره شخصا راشدا، فعليه أن يقّرر بمحض إرادته كلّ ما يتعلّق بشؤون حياته بناءً على معتقداته وقناعاته؛ وفي ذلك قوله تعالى: ﴿**يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى**﴾، وهنا نرى الرد الذي جاء نتيجة التكوين الرشيد والسعي الجاد: ﴿**يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ**﴾.

نخرج من هذه الإجابة البَرَة بالتالي: هذا الردّ البار بعبارة "يا أبت" التي هي إجابة نداء الأبوة "يا أبي"، وكلتاهما حنان وبر، ثم إنّ الابن إسماعيل –عليه وعلى أبيه السلام– لم يقل لأبيه نفّذ ما رأيته في المنام، وإنما ذهب إلى أبعد وأدقّ فقال: ﴿افعل ما تؤمر﴾، وفي ذلك إيمان بالنّبوة؛ باعتبار أن رؤيا الأنبياء –عليهم السّلام– وحي... إنهّا ليست رؤيا عادية، ولكنّه أمر إلهي واجب التّنفيذ... ثم إنّ الابن البار سار إلى أبعد من ذلك حين تحسّس ما يمكن أن يختلج بصدر أبيه من الألم جراء الخطورة التي يحملها هذا الأمر على نفسيّة الابن الذي يجد نفسه في لحظة عرضه للذبح على يد من؟ على يد

أبيه؟ فقال: لا تقلق يا أبي فإنك ستجد مني ما تقرّ به عينك وستجد منّي تحمّلا وصبرا اطمئن يا أبي.

ومضت القصّة تطوي مراحل الطّريق إلى اللّحظة الحاسمة حيث كبل الولد على الجبين، ويحمل الأب السكين، ويستسلم الابن لأمر رب العالمين عندها يأتي الفرج وينزل الفداء بذبح عظيم، ويعلن الوحي قبول الفداء وقبول الإيمان وصحّة الإسلام الذي هو التّسليم لأمر الله بلا حفظ ولا تردد ﴿**فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (103) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (104) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (105) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (106) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (107) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (108) سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (109) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (110)**﴾ [الصافات: 110].

من خلال هذه الآيات البيّنات نعلم أنّ طريق الإنسان المؤمن في هذه الحياة هو التّضحية، وأنّ الإسلام هو تسليم الأمر لله وقبول ما يأتي من شرعيّته أمرا ونهيا بلا تردّد، وإذا علم الله في نفس عبده هذا الإيمان ودلّت مواقفه على هذا الإدمان، أنزل عليه من رحماته، وآتاه من انتصاراته ما يجعل العسر يسرا، وما يشدّ من عزيمته فوجد الله معه وليّا ونصيرا.

هذا هو المعنى الكبير الذي يعطيه إيانا عيد الأضحى الذي يجتمع فيه المسلمون من كافة المعمورة على صعيد عرفات في موسم الحج الأكبر؛ ليتأملوا فيه الآيات المنزلة في كتاب والآيات المودّعة في الكون.

أمّا واقع المسلمين مع الأعياد اليوم، فهو يتّسم بالسّطحية ككّل ما يفعلون في هذا الزّمن الرّديء؛ فعيد الفطر مناسبة للأكل وإطلاق الشّهوات، وعيد الأضحى مناسبة لذبح الكباش لمن استطاع ومزاحمة عليها...

إنّ المعاني العظيمة التي جاء بها ديننا لو استلهمت لأزالت عن المسلمين ما يعانون منه من ذات وهوان؛ جراء التكالب الصليبي الجديد على الوطن الإسلامي مشرقا ومغربا، إنّه لا ملجأ من الله إلا الله ولا سبيل لتحرير الأرض واستنقاذ العرض واستعادة الأمجاد إلاّ باستلهام هذه المعاني وإعطائها تفسيرا عمليّا يجعل من خير خلف لخير سلف، ﴿**إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (101) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ (102) لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (103) يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (104) وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (105) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ (106)**﴾ [الأنبياء: 101-106].

وماذا عن اللّقاء الحاشد

للشّعوب المسلمة

أراد الله للمسلمين أن يلتقوا على كلمة سواء، تعلوهم راية القرآن وتقودهم شريعة العدل والإحسان وتكريم الإنسان، وقد شرع لهم لتحقيق ذلك كلّه ما يجمعهم ولا يفرّقهم، ففي نظام العبادات اليومي والموسمي إن طبّقوه تثبيت لوحدتهم وتدعيما لقوّتهم وتقويما لشخصيّتهم، وقد ذكرت في الكلمات السّابقة المنشورة بعض الملامح الموجزة للبعد التّربوي الاجتماعي، الذي نلمسه بوضوح في فرائض الّصلاة والزّكاة والصّوم، انطلاقا من العقيدة الرّاسخة في الإيمان بالله ورسالة النبي الخاتم ﷺ، أمّا في هذا الفصل فأنّي أتحدث بما تيسّر عن هذا اللّقاء الحاشد لشعوب الأمّة المسلمة في منزل الوحي وفي مشاهد النبوة، وفي أرض الأقداس؛ لتأدية الفريضة الخامسة، وزيارة قبر الرّسول ﷺ.

إنّ فريضة الحجّ تشتمل على مناسك شعائريّة تحمل مدلولات عميقة الدّلالة في مجال بناء الشّخصية الإسلاميّة العالميّة المتميّزة، وبالنّظر في هذه المناسك في ضوء ما يستهدفه الإسلام من إبراز الأمّة الوسط التي أرادها الله شاهدة على النّاس يتبيّن مدى العمق التّربوي في كلّ شعائر الإسلام وشرائعه.

مدلول الإحرام والتلبية:

إنّ التّجرّد من كلّ مظاهر التّفرقة بين النّاس وبروزهم جميعا في حياتهم الإنسانية، الموجدة الخالية من كلّ أصناف التّفرقة، إعلان حركي للمبدأ الإسلامي الخالد الذي نادى به الرسول ﷺ في خطبة الوداع حين خطب الجموع المسلمة قائلا: «أيها الناس، إن ربكم واحد، كلكم لأدم وآدم من تراب، لا فضل العربي على عجمي ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد»[1].

ثم إنّ الإحرام يعني تجرّد الإنسان من كلّ اهتماماته الخاصة مدّة محدّدة هي مدّة مناشد الحجّ ليعيش مع الله استعداد الهداه واستعدادا للقائه وحياة جماعيّة مع إخوة العقيدة من كلّ جنس وكلّ لون؛ لأنّ في ذلك كلّه ملأ لطاقة الإنسان المسلم الذي يمده الله تعالى ما أودع في هذا الدّين من قوّة الدّفع، لينهض بمسؤوليّاته في بناء مجتمع الخير واحتثاث جذور الشر من النّفس البشرية، وذلك ما عبّر عنه القرآن الكريم بتقوى القلوب وأنّها الهدف الذي أراد الإسلام تحقيقه من خلال ما يقدّم من قربات.

(1) أخرجه أحمد في المسند، وعبد الله بن المبارك، والحارث في المسند، ولفظه عند أحمد: «يا أيها الناس ، ألا إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا أحمر على أسود ، ولا أسود على أحمر ، إلا بالتقوى أبلغت " ، قالوا : بلغ رسول الله ، ثم قال : " أي يوم هذا ؟ " ، قالوا : يوم حرام ، ثم قال : " أي شهر هذا ؟ " ، قالوا : شهر حرام ، قال : ثم قال : " أي بلد هذا ؟ " ، قالوا بلد حرام ، قال : " فإن الله قد حرم بينكم دماءكم وأموالكم " قال : ولا أدري قال : أو أعراضكم ، أم لا كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا أبلغت " ، قالوا : بلغ رسول الله ، قال : " ليبلغ الشاهد الغائب».

صيغة التّلبية:

إنّ النّداء الخالد الذي تحجّ به كلّ البلد المقدّس حين تهتف به مئات الألوف من الحناجر د تسجيل للمبادئ التي لا مجال لسعادة الإنسان دنيا وآخرة إلاّ إذا أقام حياته عليها... وهذا النداء تتضمّنه صيغة التّلبية وهي: "لبيك الله لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك لا شريك لك".

والذي ينبغي الانتباه إليه هنا هو تكرار لفظ التّلبية، والذي أكّد علماء الأمّة فيما وصل إلينا من تفسيراتهم، إنّ معناه طاعة بعد طاعة متكرّرة متجدّدة مستمرّة تحدّد اللّيل والنّهار والشّروق والغروب، وأنّ الإنسان المسلم لا يمكنه أن يعيش لحظة إلّا وهو يذكر ربّه ويرعى عهده، ويدعّم جنده وذلك هو ضمان النّحر والعزّة وفي النّداء أيضا الالتزام بالمبادئ التي جعلت من أمّة الإسلام مجتمع الكفاية والعدل، الذي أفاض الله عليه من نعمة ما جعله المجتمع الأوّل في الأرض، وأنّ كلّ ما تمّ من انجازات باهرة في كلّ مجال إنّما كان بالله الواحد دون شريك...

محور الطواف:

إنّ البيت العتيق الذي تطوف حوله الجموع المسلمة، فهو المحور الذي جعل الله المسلمين يدورون حوله ويولون وجوههم أينما كانوا شطره.

وفي ذلك رمزيّة عظمى ذات الدّلالة البالغة لأنّ القبلة تعني الوجهة، ولأنّ المحور يعني المدار الذي انحرف عنه الجسم الدّار هلك، وفي ذلك انسجام كامل بين المنسك والشعائر والنّظام الكوني كما بدعه مدبّره تبارك وتعالى.

الحياة سعي وعمل:

أما للسّعي ففضلا عن الحدث التّاريخي العظيم الذي يذكر به، فهو دفع لأمّة الإسلام في طريق الجد والسّعي لبناء الحياة العزيزة الكريمة، التي ينعم في ظلها الإنسان بالعدل والمحبة والإحسان، وينال إلى ذلك عند لقاء الله الثّواب والرّضوان، وأنّ مجال لأي نجاح في الدّنيا وثواب في الآخرة إلاّ بالعمل الجاد والسّعي المثابر وإفراغ الجهد.

والحياة صراع بين الحق والباطل:

من سنة الله التي لا تختلف أنّ الحق لا يقوم إلاّ بالنّضال من أجله، وأنّ الباطل لا يسقط إلاّ بمكافحته والحياة بهذا صراع بين الحق والباطل، وأنّ الإنسان المسلم مدعوا إلى خوض هذا الصراع إلى جانب الحقّ ضدّ الباطل ولذلك فالإسلام بكلّ ما شرع يذكر الإنسان المسلم بهذا ويعده له، ورمي الجمرات تذكير بأن الحياة لا تصفو إذا ركن المسلمون إلى الدعة والخمول وترك الشر يستفحل، بل عليهم أن يكونوا مستعدّين دائما ليخوضوا معركتهم مع الشّيطان النبوة بينهم ﷺ وبصحابته الكرام -رضي الله عنهم-.

فكرة التّضحية:

إنّ ما يقدّم من هدي وما يتقرّب به من إيضاح؛ إنّما يذكّر بفكرة التّضحية بالمال والولد والنّفس وكلّ عزيز، في ظلّ المبادئ التي لا قيمة للإنسان بدونها، وقد تعلّمت شعوب الأرض أنّ الحق والعدل وإسقاط الظّلم والباطل لن يتحقّق كلّ ذلك بدن تضحية؛ ولعلّ خير ما يفسّر هذا إلى الجيل الحاضر هو تضحية هذا الوطن بخيرة أبنائه قبل حصوله على حقّه.

الحجّ عرفة: ومعلوم أنّ أهمّ ركن في الحج هو الوقوف بعرفات، في ذلك المشهد الحافل الذي يجتمع فيه كلّ المسلمين الحّاجين من أقاصي الأرض ومن مختلف الأجناس والأعراق والألوان، متوجّهين إلى الله بالدّعاء متبهّلين إليه تعالى أن يمنّ عليهم بالمغفرة ويكلّل حياتهم بالفوز وينعم عليهم بالجنّة والرّضوان.

هذا المشهد يذكّر المسلمين باليوم العظيم الذي يقف فيه الخلق جميعا أمام رب العالمين يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم.

وحدة في ظلّ المشاهد:

عندما يلتئم الحشد الحاشد عند المشاهد التاريخية، ويعيش الجميع في هذا الجو السّماوي الرّفيع، ويتعارف الجميع في ظل الإيمان والتّقوى؛ يتجدّد العهد، ويشتدّ العزم؛ وينطلق الرّكب لإحياء العمل النّبوي الرّاشدي الذي بنى أوّل لبنته في خير أمّة أخرجت للنّاس، وفي ذلك ما فيه من النّفع الذي ورد في أية الله البيّنة، وهي قوله تعالى لنبيه إبراهيم -عليه السلام-: ﴿**وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (27) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (28)**﴾ [الحج: 27-28].

غير أنّ هذه المعاني التي أريد لها أن تبعث في النّفوس المسلمة؛ لتشدّ من عزائمها واندفاعها لمتابعة السّيرة النّبوية الرّاشدية، فلمّا نجد لها أكثر في مسلمي العهود المتأخّرة، وحسبنا فيما نقول ونكتب أن نذكر بها عملا بأمر

ربنا عز وجل لرسوله الخاتم الذي هو في الوقت ذاته أمرنا؛ وأعني به قوله تعالى: ﴿**وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (55)**﴾ [الذاريات: 55].

لقاء تحت لواء العقيدة:

إنّ عصرنا يتميّز باللّقاءات العالميّة على أكثر من صعيد؛ لأنّ المسلم به بداهة أنّ أي بلد لا يمكنه العيش بعيدا عن التّعاون والتّبادل، خصوصا بعد أن أصبح كوكب الأرض متقارب الأرجاء بما اكتشف من رسائل الاتّصال، وبهذا الوضع يتبيّن لنا مقدار الفضل في التّشريع الرّباني الذي جعل لأمّة الإسلام لقاءً سنويّا في أرض الوحي على أساس العقيدة المشتركة، ولو استخدم المسلمون هذا اللّقاء للتّعارف الحق وتبادل الخبرات والمساهمة في حلّ المشكلات ومواجهة العدو الرّاكض قريبا من دارهم، والذي يهدّد كلّ مقدّساتهم، بل ومصادر ثرواتهم ووجودهم الفعلي فوق الأرض بالدّمارالسّاحق، لو أنّهم استغلّوا هذا لحصلوا على أعظم نفع ولمكنوا من دفع أثر الأخطار على حاضرهم ومستقبل أجيالهم، وأنهم ليقرؤون ويسمعون قوله تعالى: ﴿**لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (28)**﴾ [الحج: 28] هداهم الله.

مولد الرسول الإسلامي

كان إنشاءً لخير أمة

يحتفل الوطن الإسلامي بإحياء ذكرى مولد أعظم رجل عرفته البشريّة في الدنيا القديمة والحديثة، عامنا هذا كما كان يحتفي بهذه المناسبة الفريدة في كل عام مرّ من حياته، الحافلة بالأمجاد المفعمة بالذكريات فكيف هو هذا المجتمع الإسلامي اليوم؟ وما هي الآثار (الايجابية) النّابعة من الاحتفالات المتلاحقة في كيانه الجديد؟ هل استطاع تحطيم السّدود وتمزيق القيود؟ هل قوى على إنجاح ما بذل في سبيل استعادة سيادته ومناعته وهيبته وسط المجموعة البشريّة من جهود؟ وهل أعلنها صرخة مدويّة في سماء الكون ليضعف منها الطاغوت ويهوي الجبروت؟ وهل أوصل دعوته الإسلامية إلى المناطق الضّائعة من كرة الأرض حتى يرتوي من وابل غيرتها المدرارة؟

وهل وضع حدّ لكل صراع داخلي ونزاع عائلي؟ حتى يحثّ على تجنيد الكتائب وتعبئة الحشود من جنود الدّعوة؛ للجهاد من أجل إقامة النّظام الإلهي العادل الذي ناضل المحتفل بذكرى مولده محمد ﷺ حياته كلّها حتى خرج المنهج الإلهي من حيّز المبادئ المثالية الفاضلة التي تغلغلت في الأفئدة وغاصت في أعماق المشاعر إلى حقائق ماثلة في دنيا "الواقع الحياتي"؛ كي تقود النّاس وتسود تسود الكون ؟؟ هل استطاع أن يُقنع هذه الدنيا التي سادها الطغيان وساسها الكفران أنّه موجود (ليرد الصّاع صاعين) ويحاسب العدوانيّين على ما اقترفه وما يزالون في حقّ البشريّة من إثم وإجرام، وسلّطوا من مهلك وآلام على شعوب كانت آمنة مطمئنّة يأتيها رزقها رغدًا

من كلّ مكان، تلك الشّعوب التي انحرفت فعوقبت تلك الشعوب التي استيقظت بعد نوم عميق ومديد فوجدت الأرض غير الأرض والوضع غير الوضع، وإن كان النّاس هم النّاس والطبيعة هي هي؟؟.

للإجابة عن هذه الأسئلة يجب امتلاك رصيد ضخم من الصّدق والنّزاهة والشّجاعة الأدبية كما يقولون؛ حتى يمكننا القول بأنّ في مجتمع الإسلام يوم نهضة والتفات إلى المجد الخالد تُبشّران بالخير إذا تعمّقناهما، وكلّ ما نسأل الله تحقيقه مخلصين ومشفقين ومتلهّفين، أن يصون هذه الالتفاتة من عوامل التّراجع والانتكاس بلمس هذه النّهضة، وتلكم الالتفاتة في إقبال الجموع المسلمة في كلّ أرض مسلمة على كلّ صوت إسلامي تستمع إليه في حب وشغف وانتباه، سواء كان هذا الصّوت مقروءا أو مسموعا، ولاحظنا أيضا أن هذه الجموع تثق عميق الثقة في الدّعاة إلى الهدى ودين الحق، وهي مستعدّة أن تلتحم بهم في مسيرة طويلة نحو الهدف الأعلى الذي من أجل بلوغه أرسل الله رسوله المصطفى ﷺ إلى الناس كافة، وإخلاصا للدّعوة، وصدقا مع المؤمنين بالدّعوة، والذين يهمّهم أمرها نقول: إنّ ما عليه المجتمع الإسلامي اليوم بالنّسبة إلى أنظمة حياته وأسلوب عيشه وعلاقة أجزائه بعضها ببعض يتنافى في كلّه مع الوحدة التي أقامها الباني الأعظم ﷺ، ذلكم الذي بلغ عن ربه قوله: ﴿**إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ**﴾ [الأنبياء: 92]، ودعّم قول الله بحديثه المبين حين قال: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسّهر والحمّى»[1]، فأرادها هكذا المسلمين في كلّ

(1) متفق عليه، أخرجه البخاري ومسلم.

الدنيا أمة واحدة كأسرة واحدة، بل كجسم واحد، متألّف من البلايين من الشّرايين والأعصاب والأنّسجة المترابطة برباط محكم لا ينفصم الشّيء الذي يجعل انفصال جزءٍ من الجسم المتلاحم يؤثّر على المجموعة المتماسكة، فيحدث تصدّع وخلل يهتزّ له الكيان الذّاتي للجهاز كلّه.

وأنا والله ما ينقضي عجبي من بعض الفئات التي تحمل أسماءً مسلمة وتعدّ من بين المجتمع المسلم، تلك التي تدعو إلى "التقدمية !"، "والتّطويرية ! "والتجديدية !"إلى غير ذلك من ألفاظ هذه الأيام، ولا تضع أيّ حساب إطلاقا للنّظام الإسلامي الذي هو في حقيقته زعيم ورائد وقائد النّظم التي تؤمن، بل تدعو، بل تنشئ مجتمعا يتجدّد ويتطوّر باستمرار حسب سنةّ الله في التجديد والتّطوّر كلّه تبديلا ولا تغيرا ﴿**فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا**﴾ [فاطر: 43].

يقولون أنّ الّنظم الحديثة يمكنها استيعاب المجموعات البشريّة من عدّة معتقدات وأصول في وحدة إنسانية متسامحة، ونقول: هل استطاعت النّظم الحديثة أو ما سبقها من نظم -غير النظام الإسلامي- أن تكتل تحديد المواهب وشتى العبقريات من مختلف القارات والأقاليم الأرضيّة؛ لخدمة ونشر دعوة إلهية عالميّة شاملة، لا تؤمن بالفروق ولا بالطّبقات، ولا تعترف بالحدود ولا بالتّقسيمات، وتعتبر البشر كلّهم على اختلاف الجنس والإقليم

واللّون واللّهجة أو اللّغة إخوة متساوين (كأسنان المشط)، «وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من قُتل على عصبية»[1]، أو كما قال.

واستمعت إليه الدنيا وهو يواجه مجتمع التعّصب للقوميةّ الضيقة بقوله: «ليس لعربي فرق على عجمي ولا عجمي على عربي إلا بالتقوى»[2].

وحين أعلن: «سلمان من آل البيت»[3] وقومه يعلمون أنّ سلمان كما يدل على ذلك اسمه فارسي، ولكن المنقذ الأعظم أراد أن يقيم قيم السّماء مكان قيم الأرض.

(1) أخرجه أبو داود في السنن، والبيهقي في الآداب، ولفظه عند أبي داود: « ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية».

(2) أخرجه أحمد في المسند، وعبد الله بن المبارك، والحارث في المسند، ولفظه عند أحمد: «يا أيها الناس ، ألا إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا أحمر على أسود ، ولا أسود على أحمر ، إلا بالتقوى أبلغت " ، قالوا : بلغ رسول الله ، ثم قال : " أي يوم هذا ؟ " ، قالوا : يوم حرام ، ثم قال : " أي شهر هذا ؟ " ، قالوا : شهر حرام ، قال : ثم قال : " أي بلد هذا ؟ " ، قالوا بلد حرام ، قال : " فإن الله قد حرم بينكم دماءكم وأموالكم " قال : ولا أدري قال : أو أعراضكم ، أم لا كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا أبلغت " ، قالوا : بلغ رسول الله ، قال : " ليبلغ الشاهد الغائب».

(3) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى، والطبراني في المعجم الكبير، والحاكم في المستدرك.

ثم مدت الدعوة مدها إلى أيام الفاروق الذي أعلن وهو يتناول موضوع الرّئاسة العليا للدّولة الإسلامية بعده: "لو كان سالم مولى حذيفة حيّا لَوَلَّيته".

أنا أفهم أنّ روح الذّكرى لمولد المنقذ الأعظم إنّما تكون في العزم المصمّم على إعادة بناء المجتمع الإسلامي، على القواعد ذاتها التي وضعها ﷺ وتابع البناء عليها خلفاؤه الراشدون من بعده، وإنّ أي محاولة يبذلها القائمون على شؤون المسلمين في مجال البناء والإصلاح بعيدا عن المخطط النّبوي محكوما عليها سلفا بالاخفاق الأكيد، ذلكم عهد الهي أعلن منذ أربعة عشر قرنا على لسان أكرم رسول إلى العالمين: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (55)**﴾ [النور: 55].

وحين فهم ﷺ أنّه أكمل الرّسالة، وأدّى الأمانة، وأحسّ بأنّ الصّعود إلى الرّفيق الأعلى قد قرب أوصى المسلمين قائلا: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدي: كتاب الله وسنة رسوله»[1].

(1) أخرجه مسلم في الصحيح، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجة في السنن.

صلى الله عليك يا رسول الهدى والحق، عزّت أمتك حين تمسّكت بدينك واهتدت بهديك ووفت لسنتك وتعثرت بها سفينة الحياة حين انحرفت عن نهجك واتّبعت غير سبيل المؤمنين.

وها هي اليوم تتشوّق إلى استعادة المجد وبعث العزة التي أرادها، من أنزل عليك القرآن: له ولك للمؤمنين.

صلى الله عليك، وعلى آل بيتك الطّاهرين، وصحابتك الإكرام، وكلّ من أخلص في الاهتداء بهديك إلى يوم الدين.

الهجرة النبوية وبناء

خير امة أخرجت للناس

عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺقال: «المسلم من سلم من لسانه ويده والمهاجرين من هجرهما نهى الله عنه»[1].

الهجرة لغة التّرك وللمعنى اللغوي علاقة بالمعنى الشرعي عند التأمّل، فعندما ننظر إلى الجماعة الإسلامية الأولى وهي تتلقى القرآن من رسول الله في مكّة سماعا، ثم تتلقّاه بيانا، ثم تروض على أن تحياه واقعا ملموسا إسوة بالنبي المرسل.

نجدها تتحول نفسيّا فاجتماعيا تحوّلا لم تعرف له البّشرية مثيلا وهي تعتمد ما قرّره القرآن بقوله تعالى: ﴿**لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (11)**﴾ [الرعد: 11]، وأعظم تغييرا هنا هو قيام مجتمع العقيدة من مجتمع العصبيّة الجاهلية؛ فالهجرة في مفهومي إنّما كانت بمكّة قبل أن تتحوّل إلى يثرب، وإلاّ فيكف يمكننا تصوّر مجتمع يتخلّى عن موروثاته وتقاليده العريقة من عصبية قبلية، إلى مجتمع إيماني ملتزم يقيم عليا تصنعه صنعا جديدا؟ مجتمع كان يدين مذهب:

(1) أخرجه البخاري في الصحيح، وأبو داود، والنسائي في السنن.

ألا لا يجهلن أحد علينا..... فنجهل فوق جهل الجاهلينا [عمرو بن كلثوم].

إلى مجتمع يلتزم بضبط النّفس مع الصّمود والاستمرار على الخطّ المستقيم الذي دعا إلى الالتزام به هذا الدّين؟

الخط الذي ذكّر الله به رسوله بعد الهجرة بقوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (77)**﴾ [النساء: 77].

كما نرى ذلك في الولاء الذي كان للعصبيّة وما إليها، فصار للعقيدة ومقتضياتها من: "أنا وعمي على الغريب" ﴿**إلى وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (71)**﴾ [التوبة: 71].

وهكذا برزت في مجتمع مكّة العصبي أوّل نواة للمجتمع الإسلامي فلمّا استحكمت العقيدة، واشتدّت العزيمة وتهيأت الظّروف تفاقم الخطب إلى تحرير قتلة النبي والشّروع في التّنفيذ، أمر الله بالهجرة الكليّة، وكانت الشّرارة الأولى منها بهجرة المسلمين إلى الحبشة، ثم كانت آخر حلقاتها هجرة المصطفى وصاحبه إلى يثرب، وبهذا الصّدد فإنّ شائعة نشازا طنطنت بها

جهات استشراقية غربيّة وغريبة عندما وصفت رسول الله بالهارب "فيجيتيفLe fugitif" وهذا لا يتّفق مطلقا مع منطق الأحداث ووقائع الهجرة.

فالواقع قد شهد أنّ النبي قبل أن يهاجر كان قد عقد معاهدتين مع أهل المدينة الذين وفدوا أوّلا إلى مكّة، لعقد حلف مع قريش ضد عدوهم من الشق الآخر؛ إذ هناك عداوات وحروب... كانت تقوم سجالا بين حيين من أحيائهم: الأوس والخزرج، فلقيهم رسول الله ﷺ ودعاهم إلى ما هو خير ممّا جاؤوا إليه، فأسلموا وكانت تلك بيعة العقبة الأولى، ثم وفد منهم وفد بعد سنة فيه رجال ونساء فبايعوا رسول الله على الإسلام وعقد معهم معاهدة بيعة العقبة الثّانية، أرسل بعد ذلك دعاة لنشر الإسلام في المدينة نذكر على رأسهم (**مصعب بن عمير**) من هنا نعرف أنّ في القضية تخطيطا وإعدادا بالهام الوحي وتطبيق النّبوة؛ ليكون ذلك درسا للأجيال في مجال التّحرير.

كما أنّ رواية السّيرة النبوية المجمع عليها بين الكتّاب في المراجع المعتمدة تنصّ على أنّ رسول الله ﷺ ليلة الهجرة أوصى علي -كرم الله وجهه - أن ينام في فراشه وطمأنه علي لا يصيبه مكروه، وخرج هادئا وهو يحثو التّراب فوق رؤوس المتربّصين المسلمين خارج بيته انتظارا لساعة الصّفر لينقضوا عليه، وهو يقرأ قوله تعالى: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ** (8) **وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا**

فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (9)﴾ [يس: 8-9]، وتوجّه بعد ذلك إلى بيت أبي بكر وقال لهذا الأخير: «إنّ الله أذن لي بالهجرة»[1].

هل هذا كلّه ما يفعله الهارب الفيجيتيف؟

ثم إنّ القرآن الكريم يصف وضعه النفس وهو في الغار ثابتا مطمئنا هادئا وهو يقول لصاحبه: ﴿**إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (40)**﴾ [التوبة: 40].

أمّا المعنى الذي يستمد من الحديث الشريف الذي استهللت به محاضرتي، فهو أوّلا ذكر المسلم قبل المهاجر والإسلام؛ يعني تسليم الأمر لله، والالتزام بما شرع، وهذا يعني ذلك التّحول النّفسي الذي لا مناص منه لمن أراد أن يعيش ربانيا في هذه الأرض.

ثانيا: من سلم المسلمون من لسانه ويده: عوض من سلم النّاس كما جاء في رواية أخرى... ففي نظري أنّ السّلامة مقرونة بالإسلام الذي هو رسالة سلام إلى هذه الأرض؛ فمن أسلم فقد عصم دماءه وأمواله، ومن ذلك: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا "لا إله إلا الله»[2]؛ أي أنّ الدخّول في الإسلام وقاية للذّات والمال والعرض من كلّ موجبات النّيل

(1) أخرجه البخاري في الصحيح، وأبو داود والترمذي والنسائي في السنن.

(2) متفق عليه، أخرجه البخاري ومسلم.

منها، فالمسلم قد يضطر للدّخول في قتال مع قوى ظالمة تلجئه إلى ذلك، أمّا عندما يستقرّ فإنّ النّفس لا تأتي من الموبقات ما يجلب لصاحبها الخطر على حياته أو ماله أو حريته وكرامته، وذلك مضمون، وأعلن الرسول ﷺ في خطبة الوداع: «إنّ دماءكم، وأموالكم، وأعراضكم، حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا»[1]، ثم إنّ اللّسان واليد أداتان رئيسيتان في حياة الإنسان؛ فالأولى تعني حريّة التّعبير، علما بأنّ الإسلام قد طهّرها فلا تنطق إلاّ خيرا، والثّانية تمثّل القوة، غير أنّ الإسلام يجعلها معمّرة لا مدمرة وفي نصرة الحق ودحر الباطل.

فهم قد سكنوا دار الهجرة كما سكنوا الإيمان، فعقيدتهم هي منطلقهم، وهي مرجعهم مثل الدّار التي هي منطلق الإنسان إلى العمل، وثباته حين يعود.

ومن هنا هذا الاستقبال الرّائع وهذه المحبّة الغامرة التي جعلتهم يتقاسمون كلّ شيء مع إخوانهم المهاجرين، دون أن يشعروا بحاجة وهم يبذلون هذا البذل لما هم بحاجة إليه، وهذا يدلّ على أنّ لا أثر لأيّ غضاضة

(1) أخرجه أحمد في المسند، وعبد الله بن المبارك، والحارث في المسند، ولفظه عند أحمد: «يا أيها الناس ، ألا إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا أحمر على أسود ، ولا أسود على أحمر ، إلا بالتقوى أبلغت " ، قالوا : بلغ رسول الله ، ثم قال : " أي يوم هذا ؟ " ، قالوا : يوم حرام ، ثم قال : " أي شهر هذا ؟ " ، قالوا : شهر حرام ، قال : ثم قال : " أي بلد هذا ؟ " ، قالوا بلد حرام ، قال : " فإن الله قد حرم بينكم دماءكم وأموالكم " قال : ولا أدري قال : أو أعراضكم ، أم لا كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا أبلغت " ، قالوا : بلغ رسول الله ، قال : " ليبلغ الشاهد الغائب».

في أنفسهم وهم يبذلون ما يبذلون، ثم يخلص النّص إلى إثبات هذه الحقيقة، وهي أنّ الخلاص من كلّ الأزمات والفوز في كلّ المجالات؛ إنّما يكمن في البذل السّخي النّاتج عن الإيمان والمحبّة في الله، وعكس ذلك فالحصار والبوار مصير أهل الكزازة، والشّح وكذلك الذل والهوان.

وقديما قال الشّاعر: أذلّ الحرص أعناق الرّجال، وهكذا كانت الهجرة ذلك المنطلق الرّائد للدّعوة الإسلامية التي أشعت على العالم بنور الهداية، وانساحت من دار الهجرة كتائب الحق فبلغت المشارق والمغارب وعلّمت البشرية شريعة العدل والإحسان وتكريم الإنسان تحت راية القرآن.

وكانت الهجرة بالفعل درسا تعلّمته الأجيال وسارت على خطّه كلّ حركات التّحرّر في العالم قديما وحديثا، فبغضّ النّظر إلى أي منها نجد أنها في حال اشتداد الأزمة ترسل دعاتها إلى المناطق الآمنة كي تعمل من هناك، لدعم النّضال التّحريري في الوطن إلى أن يأتي نصر الله والفتح، وذلك ما فعلته الجزائر في معركة تحريرها منذ الاحتلال إلى أن أتاها الله بالنّصر.

فلم ينفكّ رجال التّحرير فيها بتوجّهون إلى المشرق والمغرب للعمل هناك في جو أكثر حرية وأمنا لدعم الصّامدين في الدّاخل، وإن ننس فلا ننسى ما قال ماوتسي تونغ لوفد فلسطين عندما سأله عن نصيحة مستمدّة من تحرير في مسيرة الصّين الكبرى فقال لهم: "لو سألني غيركم ما دهشت؛ لأنّ مسيرة نبيّكم أعظم مسيرة في تاريخ البشر، ولن تجدوا أسوة في مسيرة غيرها أفضل منها".

والغريب في أمرنا أن نتجاهل هذه النّقط المضيئة من تاريخنا الحافل، فيكتب مؤرخين بالتّاريخ الميلادي متجاهلين التّاريخ الهجري الذي بدئ العمل به من عهد الخليفة عمرﷺ الذي قال: "كنا قبل الهجرة قلّة فكثّرنا الله وأذلاّء فأعزّنا الله، ومضطهدين فنصرنا الله".

إنّ في الهجرة لإعدادا نفسّيا نحن بحاجة إليه في هذا الزمن الرديء الذي تكالبت فيه قوى الشّر على أمّتنا في مشرقها ومغربها، والذي اندست فيه الشياطين لبث الفتنة في صفوف المسلمين، وضربهم في جميع الميادين حتى لا يبقوا فيهم على شيء صالح من دنيا أو من دين ولا نجاة لنا ممّا نحن فيه إلا بالعودة الأمنيّة الصادقة إلى كتاب ربّ العالمين، وسنّة سيد المرسلين.

وبذلك أوصانا رسول الله ﷺ عندما أنذر بإقبال الفتن كقطع الليل المظلم، إذا أخرج الإنسان فيها يده لم يكد يراها، فقيل له: وما المخرج منها يا رسول الله؟

قال: «كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم وخير ما بعدكم وحكم ما بينكم»[1]، وفي خطبة الوداع جاء قوله ﷺ: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدي: أمرا بينا كتاب الله سنه رسوله»[2].

نخلص من كلّ هذا إلى القول بأنّ الهجرة عيد بمدلولها الشّامل، ولا مندوحة عنها وذلك عندما يعيش المسلمون حياة خانقة، لا يستعطون فيها

(1) أخرجه الترمذي، والدارمي في السنن، وأحمد في المسند.

(2) أخرجه مسلم في الصحيح، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجة في السنن.

ممارسة حياتهم الإسلامية بحريّة وكرامة، وفي ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (97) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (98) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (99) وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (100)﴾ [النساء: 97-100].

فما هو المراغم: المتزحزح عما يكره المنبع الذي يخلص به ويراغم الأعداء، غير أن رسول الله ﷺ أعلن: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية، وإذا استفرتم فانفروا»[1].

هذا ولعلّ من وحي الهجرة ونحن نستقبل اليوم سنتها الثّانية عشرة بعد الأربعمائة والألف، أن نهجر كلّ السّلبيات نفسيّا واجتماعيّا تلك التي تحول بيننا وبين إقامة المجتمع الذي جاهد نبيّنا وصحابته الكرام لإقامته في الأرض، المجتمع الذي يحمل رسالة الله المنقذة للبشرية كافة، تلك التي حوّلت أسلافنا من رعاة الإبل إلى قيادة البشرية وإنشاء أرقى حضارة وخير أمة أخرجت للنّاس، إنّه ليس من المستحيل أن يبرز هذا المجتمع في وطن مسلم مجاهد كالجزائر التي تعاني اليوم آلامًا حادة، وتعيش ظروفا حرجة غير أنّ إيمانها

(1) متفق عليه، أخرجه البخاري ومسلم.

بربّها وإخلاصها لدينها ووفاءها لشهدائها والتزامها بالمحجة البيضاء، كل ذلك كفيل بأن يجعل منها بلدا طيّبا يخرج نباته بإذن ربّه ويستعيد صحّته وعافيته ويستأنف مسيرة النّبوة فوق الآلام والجراح إلى أن يصل إلى برّ الأمان والاطمئنان إن شاء الله.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (218)﴾ [البقرة: 218].

بمناسبة موسم عاشوراء[1]

الرسالة الخاتمة. . .وبنو إسرائيل

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (48)﴾ [المائدة: 48].

وهكذا كانت رسالة محمد ﷺ خاتمة الرّسالات الإلهية، وبها اكتمل دين الله إلى الخلق، وبالآية التي تلاها رسول الله ﷺ على الجموع الحاشدة في موقف عرفات، ثم إبلاغ كلمة الله النّهائيّة إلى خلقه جميعا وهي قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (3)﴾ [المائدة: 3].

وهكذا أتمّ الله نعمته على الأمّة التي أرادها خير أمّة أخرجت للنّاس بكلّ صفاتها التي تؤهّلها؛ لحمل هذه الأمانة التي أوكلت إليها من ربّ العالمين.

عاشوراء وبعدها الرسالي:

(1) البصائر: 28/ 02/ 2005م عدد: 229.

لما وصلى رسول الله ﷺ إلى المدينة مهاجرا وجد يهود يثرب يصومون يوم عاشوراء، فسألهم عن سبب ذلك ومناسبته التّاريخية فأجابوه بأنّهم يفعلون ذلك شكرا لله؛ لأنّه اليوم الذي أغرق الله فيه فرعون وجنوده ونجى موسى ومن آمن به من بني إسرائيل، فقال لهم رسول الله: «نحن أحق بموسى منكم»[1]، فصامه وأمر بصيامه، وأخبر أنّه إن أدرك عاشوراء في قابل ليصومن التّاسع، لكنّه ﷺ لم يمهله الأجل إلى تحقيق ذلك في قابل.

أهميّة هذا الموقف:

استمدادا من هذا البيان النّبوي الشريف، ندرك أنّ أمّة الإسلام هي الوارثة القيمة على رسالات الله في الأرض، فهي التي أعطت ذلك النّموذج الرّفيع لمجتمع يعيش على الأرض بمنهج السّماء، فكانوا بشرا يعيشون في الأرض، يأكلون الطّعام ويمشون في الأسواق، غير أنهم يتصرّفون فيها كالملائكة، طهرا وزكاة، وصفاء، ووفاء وعدلا، وإحسانا وصدقا، وفرقانا ، فأينما حلّوا حلّت معهم البركة، وفاض الخير، أولئك الذين قال عنه رسول الله ﷺ: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»[2].

كلّ ذلك كان ثمرة الرّسالة التي اصطفى لها الله أكرم خلقه وخاتم أنبيائه، فبلّغها بأمانة مثلى، وأعطاها من جهده وجهاده ما زوّدها بالطّاقة المنيرة التي لا تنفذ؛ لأنّها مدد من عند الله تلقّاها محمد خير خلق الله، وهو الذي ردّ على بني إسرائيل بأنّه ومن اتبعه بإحسان هم الوارثون لرسالات

(1) أخرجه البخاري في الصحيح، وابن ماجة في السنن، وأحمد في المسند.

(2) أخرجه الآجري في الشريعة، وابن بطة في الإبانة، وأبو عبد الرحمن السلمي في آداب الصحبة.

الله والأحقون برسل الله ومنهم موسى عليه وعلى أنبياء ورسل الله الصلاة والسلام.

هذه الوراثة أثبتها الله في كتابه الكريم وقال: ﴿**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (32)**﴾ [فاطر: 32].

إنّ هذه الفئة الثّالثة هي من التفّ حول رسول الله هجرة ونصرة ومؤازرة واتّباعا أمينا وصادقا، وممّا قاله سلفنا العظيم في تفسير الآية: إنّ الذين بدئ بذكرهم هم الأكثر عادة، والذين توسّطوا، هم من تساوت حسناتهم وسيئاتهم، وأمّا الفئة التالية فهي الدّفعة الأولى والجماعة المثلى في تبوء منزلة الإمامة في الأمّة قدوة برسول الله ﷺ، هذا وإنّ موقف بني من إسرائيل مـــــــن رسالات الله تزخر به آيات الله البينة في القرآن الكريم، وتشغل مساحات شاسعة منه للاهتداء وللعبرة، حتى لا يقع المسلمون فيما وقعت فيه بنو إسرائيل مع أنبيائهم وخاصة مع موسى عليه السّلام... نذكر منها بعض ما قصّه القرآن الكريم، وخاصة ذلك الموقف الذي اتخذوه من نبيهم حين أمرهم بعد أن نجاهم الله من ظلم وطاغوت فرعون، وأوصلهم إلى مشارف الأرض المقدّسة... حين أمرهم نبيّهم بدخول تلك الأرض والمواجهة الصّادقة، ورفض التّراجع والارتداد على الأدبار، ولكنهم أبوا أن يدخلوها خوفا ممّن استولوا عليها من أولي القوّة والسّلطان؛ وفي ذلك قوله ﷻ: ﴿**قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (22)**﴾ [المائدة: 22].

موقف شبيه من أمة متخاذلة:

أليس هذا الموقف من نبي إسرائيل مع نبيّهم بالأمس البعيد شبيها بموقف أمّتنا في هذا العهد الذّليل المهين؛ وذلك عندما يطلبون انسحاب إسرائيل من الأرض المقدسة؟

أليس الواجب المفروض على المسلمين أن يهبّوا لنجدة المسجد الأقصى المبارك وما حوله؟ ولكن لم يفعلوا وبدل ذلك فهم يخشون القوّة المعتدية هناك، ويجمعون على أنّ فيها أيضا قوما جبّارين، ولكن الجبّارين اليوم غير الجبّارين بالأمس، إنّ الجبروت اليوم يتجسّد في الصّهاينة ومن يساندهم ويدعّمهم ويحميهم بالأموال والأجناد والأسلحة والعتاد... وكل وسائل الدّمار والفساد.

إنّ الحقيقة هي، وإن اختلفت الأشكال؛ إنّها التّصديق لما أنبأ رسول الله ﷺ: «لتتبعن سنن من قبلكم، شبرا بشبر، وذراعا بذراع حتى لو أنهم دخلوا جحر ضب لدخلتموه»[1] صدق رسول الله ﷺ.

(1) متفق عليه، أحرجه البخاري ومسلم، ولفظه عند البخاري: «لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر، وذراعا بذراع، حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه "، قلنا يا رسول الله: اليهود ، والنصارى قال: " فمن؟».

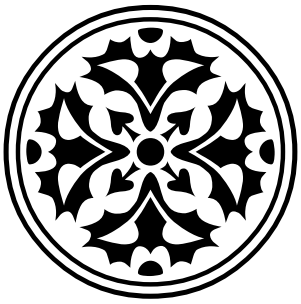

الدُّروس الحسنيَّة

-محاضرات ومناقشات-

بسم الله الرحمن الرحيم

وصل الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه

درس

للأستاذ: محمد الأكحل شرفاء

باحث وداعية ومحاضر بنادي الترقي بالجزائر

موضوعه:

خصائص الشخصية الإسلامية المتميزة

انطلاقا من قول الله ﷻ: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (177)﴾ [البقرة: 177].

الاثنين 6 رمضان 1410هـ

الموافق لـ: 2 أبريل 1990م

خصائص الشخصية الإسلامية المتميزة

بسم الله الرحمن الرحيم أحمد الله تبارك وتعالى، حمدا طيبا مباركا، وصلى الله وسلم على الرسول الخاتم، سيدنا محمد بن عبد الله وآله وصحبه ومن دعا بدعوته.

إنّ الموضوع الذي اخترت أن أتحدّث فيه هو موضوع أمتنا هذه الأمة الإسلامية الوارثة لرسالات الله، القائمة بمسؤوليتها باعتبارها وريثة للرّسالة الخاتمة التي جمع الله فيها كلّ رسالات السماء، إنّ رسول الله ﷺ في حجة الوداع، وفي الخطاب الذي ألقاه يوم الجمعة من السنة العاشرة للهجرة يوم الوقوف بعرفة أمر الأمة الإسلامية جيلا بعد جيل أن تبلغ هذه الرّسالة بقوله ﷺ: «فليبلغ الشاهد منكم الغائب».

إنّ أمّتنا مسؤولة عن هذا البلاغ، وهذه المسؤولية لن تتوقّف إلى أن لا تكون في الأرض فتنة، ويكون الدّين كلّه لله، وخصائص هذه الأمّة التي يجب أن تتوفّر لها؛ لتقوى على النّهوض بهذه المسؤولية خصائص متفرّدة:

أولى هذه الخصائص أنّها الأمّة الربانية التي تتلقى من الله سبحانه وتعالى، وتستمدّ من هداه، وتلتزم بشرعه وتقود البشرية إلى رضوانه تعالى: ﴿**وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (79)**﴾ [آل عمران: 79]، ثم إنّ هذه الأمة عالميّة مسؤوليتها ليست محدودة في وطنها الخاص؛ وإنّما هي مسؤولية عالمية باعتبار أنّها تحمل منهجا أراده الله منهجا للعالم إلى يوم القيامة ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (107)**﴾ [الأنبياء:

107]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (28)﴾ [سبأ: 28]، إنّ الذي جعل من هذه الأمّة أمّة رائدة، وأمّة شاهدة على النّاس، هو ما تتوفّر عليه من الفضائل، وما تتوفّر عليه من المكارم، وما تتوفّر عليه من الصّفات التي أودعها الله في رسالتها، وهي إن التزمت بهذه الرّسالة واعتصمت بها ستكون هذه الصّفات بارزة فيها، إنّ الحلول التي شاهدناها في العصور المتلاحقة والتي تحاول أن تبعد النّاس عن الله سبحانه وتعالى، بهذا الزعم أو بذاك قد ثبت بالتّجربة القطعيّة أنّها حلول فاشلة، وإنّ العالم كلّه يبحث عن بديل، وإنّ البديل الوحيد هو هذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وهو الوثيقة الإلهية الوحيدة السّلمية القويمة التي حفظها الله من التّزييف، وحفظها الله من التّحريف، هذا الكتاب هو القرآن الكريم، اخترت هذا الكتاب العزيز آية سماها السّلف الصّالح جماع البر؛ وهي تجمع إلى جانب العقيدة الصحيحة المنهج العملي السّليم والخلق الكريم.

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (177)﴾ [البقرة: 177]. صدق الله العظيم.

فيما يخص قراء هذه الآية، قرأ حمزة وحفص بنصب كلمة البر؛ باعتبار أنّها خبر مقدّم، وأنّ الجملة بعدها في محلّ رفع اسمها مؤخّر، وقرأ غيره برفع

البر، ولكلا الفريقين دليله النحوي، أمّا سبب نزول هذه الآية على أرجح ما نقلته إلينا الرّوايات فهي الجو الذي نشأ عقب الأمر الإلهي الذي تلقاه رسول الله ﷺ أن يتحوّل عن القبلة الجديدة إلى الكعبة المشرفة إلى المسجد الحرام، وهذا الأمر أتى في قوله تعالى: ﴿**قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (144)**﴾ [البقرة: 144]، وإن كان سبب نزول الآية ليس ضروريا في كلّ الآيات؛ وإنّما هنا في الموقع، وفي هذا الموضوع أحسبه ضروريّا؛ لأنّه يتعلّق بأمرعظيم كانت له أبعاده من عهد رسول الله ﷺ إلى أيّام النّاس هذه، قال النّصارى معترضين على تحويل القبلة؛ بأنهّا ليست القبلة التي كان عليها الأنبياء، وقد كانوا يتوجّهون شرقا، وقال اليهود: إنّ هذه مخالفة لعبادة الأنبياء وكانوا يتوجّهون غربا.

وردّ المسلمون بأنّها هي القبلة السّليمة الصّحيحة بأنّ بيت الله الحرام هو أوّل بيت وضع للنّاس وفيه مقام إبراهيم: ﴿**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (96) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (97)**﴾ [آل عمران: 96-97]، غير أنّ رسول الله ﷺ – الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى– انتظر وحي الله فهاهو الوحي قد نزل، ووضع الأمور في نصابها، جاءت هذه الآية الكريمة تقول: ﴿**لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ**﴾ إلى آخر الآية.

إنّ هذا التّوجيه الإلهي للنّاس جميعا يعطينا معاني منفردة، وهي أنّ البر عند الله؛ أي الخير عند الله، الخير الواسع العميم الذي يشمل النّاس جميعا في حاضرهم ومستقبلهم، وفي كلّ مجالات حياتهم، كما قال الرّاغب: "إن الكلمة أخذت من البر؛ لاتساعه وانفساحه"، هذا العمل الخير العميم الذي يريد الله أن تقوم عليه الأمّة لا يتمثّل في الشّكليات ولا في المظاهر، لا يتمثّل في التّوجّه إلى ناحية المغرب، أوفي التّوجّه إلى جهة المشرق؛ لأنّ الله يوجد في المشرق ويوجد في المغرب. ﴿**وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (115)**﴾ [البقرة: 115].

وإنّما العبرة في هذا هو ما يتضمّنه العمل، وهو ما تنطوي عليه النّفس، وهو ما يستقرّ عليه الاعتقاد هو ما تعتزمه الأمّة، وما تتحلّى به وما تفعله، أمّا هذه الأوامر مثل: الأمر بالتّحوّل من البيت المقدّس إلى البيت الحرام فإنّه أمر توقيفي، علينا أن نتلقاه من الله من دون فلسفة؛ لأن الله هو أعلم بما فيه الخير، إنّ الخير كلّ الخير في هذا الانقياد، وفي هذا الالتزام، وفي هذا النّظام؛ وفي هذا الاتباع الأمين الوثيق لما جاء من عند الله على لسان رسول الله ﷺ إنّ العبرة كلّها في حادث الإسراء والمعراج عندما خرج أبوبكر ﷺ فلقيه المشركون وأخبروه بأنّ رسول الله أخبر أنّه قد أسري به من مكّة إلى البيت المقدّس، ثم عرج به إلى السّماوات، ثم رأى من آيات ربه ما رأى، ثم عاد ولم يبرد فراشه، فقال أبو بكر: "لعلّكم تكذبون عليه"، فقالوا له: لا، إنّه بجانب المسجد يحدّث النّاس، وبإمكانك أن تسمع منه شخصيّا، قال أبو بكر: "لئن قال ذلك فقد صدق، أليس يأتيني بخبر السّماء فأصدّقه".

إنّ الأمر هنا هو أن نتلقى من الله ونلتزم بهديه، ونأخذ أنفسنا بمنهجه، أمّا أن نتمسّك بالمظاهر، لماذا كنّا نتوجه إلى البيت الحرام؟ إنّ الله تعالى يقول: إنّ البر الذي يريده أن تكون عليه أمّة الإسلام وأن يكون عليه العالملا يتمثل في هذا التولي شطر المشرق أو في التولي شطر المغرب، إنّ البر يتحقّق فيمن كانت عقيدته الإيمان بالله وما تبع ذلك، وفي هذا الإخبار عن المعنى وهو البر بالذات، وهو من آمن، وذلك معلوم في الكلام العربي الفصيح، والقرآن جار على أفصح الأساليب البيانية في اللّسان العربي، لا على المقرّرات التي يصطنعها النّحاة والبلاغة في مثل هذا الأسلوب تستهدف إيصال المعنى المقصود إلى الذّهن في أوضح بيان يريده المتكلّم، وأعمق تأثير يقصده مثل هذا التّعبير مألوف عند العرب، رغم طروء اللّحن على ألسنتهم، فعندما دخلت في دولة الإسلام شعوب أخرى، وجاءت معها بلهجاتها، ومن أقوالهم في ذلك: ليس العدل أن نسوّي بين البريء والمذنب، ولكن العدل من أثاب المحسن وعاقب المسيء، والنّكتة في اختيار ذلك ونحن مع الآية الكريمة ﴿وَلَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ﴾ إلى آخر الآية. مفهومة من العبارة؛ وهي تمثل المعنى في نفس الموصوف، فتفيد أنّ البر هو الإيمان، وما ينتج عن الإيمان من الأعمال؛ باعتبار اتحادهما، وتلبس نفس المؤمن البار بهما؛ حيث إنّ الإيمان باعث على الأعمال وهي منبعثة منه و أثر له، تستمدّ منه وتتحرّك من طاقته؛ أي إنّها تمثّل المعنى في الشّخص، أو الشّخص عاملا بالبر، وهذا من إسناد المعنى إلى المعنى أو إسناد الذّات إلى الذّات.

هذا وفيما يخصّ عظمة المدلولات الواردة في الآية، قال الحافظ ابن كثير في تفسيره: اشتملت هذه الآية على جمل عظيمة، وقواعد عميمة،

وعقيدة مستقيمة، كما قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبيد الله بن عمرو عن عامر ابن شفي عن عبد الكريم عن مجاهد عن أبي ذر أنه سأل رسول الله ﷺ ما الإيمان؟ فتلا عليه: ﴿**لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ**﴾، ثم سأله فتلاها عليه، ثم سأله فقال: إذا عملت حسنة أحبها قلبك، وإذا عملت سيئة أبغضها قلبك، وعلق ذلك بقوله: هذا منقطع؛ لأنّ مجاهدا لم يدرك أبا ذر، وقد مات قديما، وأورد حديثا آخر عن القاسم بن عبد الرحمن وقال: وهذا أيضا منقطع.

ما قيمة الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والنبيئين؟

أولا: الإيمان بالله نقطة تحوّل في حياة الإنسان فردا ومجتمعا، من العبوديّة لشتى القوى إلى العبدية لله خالقه.

تحوّل ينشئ الإنسان تنشئة أخرى؛ حيث تجتمع قواه وتعتدل موازنه، ويستقيم اتجاهه ويقف موحّدا، موحّدا مع الصّف المؤمن للسّير في الاتّجاه السليم نحو مصير سعيد، بدون الإيمان بالله تصبح الحياة سدى وتيها وتفكّكا وأغلالا، إنّ الإيمان بالله هو نقطة الارتكاز تتجمّع حولها البشرية في جدّ ومساواة، كما يتجمع الوجود كلّه، واضح النّسب والارتباط، وموحّد الاتّجاه، وفي هذا المعنى يقول السيد محمد رشيد رضا في تفسير المنار: الإيمان المطلوب معرفة حقيقية، تملك العقل بالبرهان، والنّفس بالإيمان؛ حتى يكون الله ورسوله أحبّ إلى المؤمن من كلّ شيء، ويؤثر أمرهما على كل شيء ﴿**قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ**

وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (24)﴾ [التوبة: 24].

والإيمان المطلوب هو معرفة قبل أن يكون إعلانا تطمئن بها القلوب، وتحيى بها النّفوس، وتخنس معها الوساوس، وتبعد بها عن النّفس الهواجس، فلا تبطر صاحبها نعمة، ولا تأتيه نقمة **﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (28)﴾** [الرعد: 28]، **﴿لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (23)﴾** [الحديد: 23]، وإيمان التّقليد يقول فيه السيد محمد رشيد رضا: إيمان التقليد لا يفتأ صاحبه مضطرب القلب ميّت النّفس، إذا مسّه الخير فهو فرح فخور، وإذا مسّه الشرّ فهو يؤوس كفور، ومن هنا يفهم قول بعض العلماء: إنّ الإيمان هو العلم؛ إذ إنّ الله ﷻ قبل أن يأمر آدم بالهبوط إلى الأرض علّمه الأسماء كلّها، يقول السيد مصطفى صادق الرافعي الكاتب الإسلامي المعروف – رحمه الله –: إنّ هناك آدمين في الأرض، هناك آدم الأول الذي أخرج البشرية من الجنّة، وآدم الخاتم الذي أرسله الله ليعيد البشرية إليها، آدم الخاتم محمد ﷺ أنزل الله عليه أوّل آية قامت على التّربية والتثقيف، واستعمال القلم، واقتحام ميادين العلوم، هذه معجزة المعجزات عندما نعلم أن رسول الله ﷺ كان أميّا، وأنّ البيئة التي نشأ فيها هي بيئة أمية **﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (2)﴾** [الجمعة: 2].

أوّل آية من كتاب الله دعت إلى التّربية والتّعليم والكتابة وتلقي العلوم، قبل أن تدعوا إلى الإيمان وإلى التّصديق وفي سورة محمد ﷺ قوله

تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (19)﴾ [محمد: 19] إعلان الشّهادة، وإعلان التّوحيد والاستسلام للرّبوبية العليا، لربوبية الله تعالى، يمرّ عن طريق العلم؛ بأن تعلم أوّلا ثم تؤمن ثانيا.

أمّا الإيمان باليوم الآخر، فهو المرتكز الثاني الذي جاء في الآية، وهو الإيمان بالعدالة الإلهية في الجزاء، إذ أنّ كثيرا ما يأتي التّعبير عن يوم القيامة في كتاب الله يوم الدين، ولكي لا ننسى هذا المبدأ وهذه العلاقة الرّاسخة بالله، فإنّ الله جعل سورة الفاتحة واجبا أكيدا في كلّ ركعة من ركعات الصّلاة، سواء كانت مكتوبة أو مسنونة.

وفي أوائل هذه السورة، بعد بسم الله الرحمن الرحيم﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (3) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4)﴾ [الفاتحة: 1-4]، يوم الدين حتى يترسخ فينا، وحتى لا ننسى أن بيننا وبين الله لقاء.

إنّ كلّ نشاط وكلّ عمل يقوم به الإيمان في هذه الحياة، وكلّ جهد يبذله، وكلّ عرق يتصبب منه، وكلّ كدّ وكلّ تعب، جعل الله له هدفا وحيدا يجب أن ينتهي إليه، فإذا لم يجهد الإنسان ولم يتعب ولم يعرق ولم يبذل أقصى طاقاته من أجل هذا الهدف، فقد خسر الخسران المبين، هناك نظم تدعى بالطّبقة الكادحة، لكن الإسلام لا يقول بالطّبقة الكادحة؛ وإنّما يقول بالمجتمع الكادح، المجتمع الكلي، وفي مقدمته رسول ﷺ ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ (7) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (8)﴾ [الشرح: 7-8]، ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (6)﴾ [الانشقاق: 6]، هذا الكدح، وهذا التعب، وهذا العرق، وهذا الجهد، يجب أن تكون له غاية؛ هذه الغاية أبعد وأوسع وأشسع

وأجمع من الجهد من أجل الطعام ومن أجل الشّراب ومن أجل اللّذة، إن غايتها هي أعلى من كلّ ذلك وأبعد من كلّ ذلك؛ وهي لقاء الله تعالى ﴿**إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ**﴾.

الإيمان بالعدالة الإلهية في الجزاء، وأنّ حياة الإنسان ليست فوضى ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115)**﴾ [المؤمنون: 115]، إنّ عمر الإنسان قصير ومسؤولياته عظيمة، إنّ مسؤوليّات الإنسان هي كلّها تندرج تحت هذا الأمر الإلهي الذي صدر إلى آدم؛ باعتباره خليفة ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30)**﴾ [البقرة: 30].

وهذه الخلافة معناها: السفارة أن وجود الإنسان فوق الأرض هو سفير، وأنّ السّفير يكلف بمهمة، وأنّ هذه المهمّة يحاسب عليها، ولا يدري متى يدعى ليقدّم حساب أعماله، وإنّ الإنسان هنا سفير، وكثيرا ما يحسن الإنسان وينجز أعملا باهرة، ثم يأتي أجله فيموت ولم ينل عقابا؛ يعني لا ثواب ولا عقاب، إنّ الله تعالى يأمر بالعدل، فقال ﷺ: «**يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما، فلا تظالموا**»[1].

كيف يأمر الله بأنّ تؤخذ الحقوق وتحمل الواجبات؟ ثم أنى أن يترك عباده يقومون بالواجبات فلا يثابون أو يذنبون فلا يعاقبون أبدا؟ إنّ الجزاء يبدو في مواقف كثيرة في هذه الحياة...وأنّ الإنسان لا ينال جزاءه، ولكن هذه

(1) أخرجه مسلم في الصحيح، ومعمر بن راشد في الجامع، والطيالسي في المسند.

العقيدة الصّحيحة تسدّد المسار، وتقنع الإنسان بأن هناك جزاء، ثم إن هناك دليلا علميا يلهمنا إليه القرآن، وهو هذه الرؤيا التي نراها في المنام، هذه الرؤيا تكلّم فيها العلماء كثيرا وتكلّم فيها الباحثون، ولكن أصدق قول هو قول الله سبحانه وتعالى ﴿**اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (42)**﴾ [الزمر: 42]؛ يعني أن الله يرينا يوميّا يوم القيامة، كلّما نمنا رأينا يوم القيامة؛ لأنّنا موجودون في مكان بأجسادنا، ثم نجد أنفسنا نعيش في عوالم أخرى، أليس ذلك دليلا على أنّ هناك حياة أخرى سنحياها؟ لماذا نصدق تأويلات النّاس، ونتجاهل قول الله سبحانه وتعالى في مثل هذه الآية؟

هناك المرتكز الثالث، وهو الإيمان بالملائكة.

والإيمان بالملائكة طرف من الإيمان بالغيب، وهو مفرق الطّرق، مفرق الطّرق بين إدراك الحيوان المقيّد بحسّه، والذي لا يملك أن يتجاوز هذا الحس، وبين إدراك الإنسان الذي يتجاوز حسه إلى آفاق عليا، حيث تتجلّى له أسررا إلهية أودعها الله فيه؛ باعتباره مخلوقا متفرّدا أرسله ليقوم بالخلافة عنه، وإنّ الإيمان بالملائكة هو الأصل للإيمان بالوحي، فمن كذب الملائكة فقد كذب الوحي، وقد كذب النبوة، وقد كذب اليوم الآخر، ملك الوحي روح عاقل يفيض العلم بإذن الله على قلب النبي بما هو موضوع الدين؛ ولذلك قدم ذكر الملائكة على ذكر الكتاب وعلى ذكر النبيئين ﴿**تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (4)**﴾ [القدر: 4]، ﴿**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (195)**﴾

[الشعراء: 193-195]، فإنكار الملائكة –كما قلت–إنكار للوحي وإنكار للنبوة وإنكار للرّوح، وبالتّالي إنكار لليوم الآخر.

وقضية الإيمان بالملائكة بالغة الأهمية عند عرضها على واقع الحياة البشريّة منذ عصر رسول الله ﷺ إلى أن يرث الله الأرض، فبالإضافة إلى سفارة الوحي فهم جند الله وجيش الله ﴿**وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ (31)**﴾ [المدثر: 31]، ﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (9)**﴾ [الأنفال: 9]، ويوم حنين بعد فتح مكة، وعندما أقامت قبائل هوزان ذلك الكمين للجيش المسلم، فكان من نتيجة هذا الكمين أن فرّ العديد وولوا مدبرين، وتركوا رسول الله ﷺ مع القلّة الصّامدة في موقع القتال، عندئذ أنزل الله سبحانه وتعالى ملائكة، وقرر مبدءا وهو كسب المعركة في المفهوم الإسلامي، لا يعتمد على القلّة ولا على الكثرة؛ لأنّ المسلمين في ذلك تخلّوا عن مبدأ من مبادئ النّصر، وهو أنّ النّصر من عند الله فقط ﴿**وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (126)**﴾ [آل عمران: 126]، لا بالعدة ولا بالعدد ولا بالكثرة ولا بالتجييش، ومع ذلك فإنّ الإعداد واجب، وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة، ونحن عندما نعد فليس البر في الإعداد ذاته، إنما البر في الالتزام بأمر الله وفي تنفيذ أمر الله ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (60)**﴾ [الأنفال: 60]، وإعدادنا للقوة ليس من أجل القتال تماما لترهبوا، السرّ هو أن يعلم العدو أنّ جيش الإسلام قوي، وأنّ الدّولة الإسلامية حصينة، وأنّها متيقّظة،

إنّ ذلك يمنعه من العدوان، فإذا علم أنّنا أقوياء لم يعتد علينا فلم يقل لتقاتلوهم ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾، وفيما يخص معركة حنين: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (25) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (26)﴾ [التوبة: 26].

والإيمان بالملائكة سند روحي يثبت المؤمنين في ساعة العسر ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (12)﴾ [الأنفال: 12]، وفي واقعنا المعاصر كان هذا الإيمان بالغيب سندا في معارك التّحرير؛ لاسترجاع الوطن؛ ولاسترجاع السّيادة؛ ولإسقاط الظّلم، بهذا المبدأ بهذه العقيدة، بهذا اليقين في نصر الله.

لقد جعل الله في هذه العقيدة قوّة غالبة أطاحت بالجبروت الأراضي أيام رسول الله ﷺ والراشدين ومن تبعهم بإحسان، فكأنّ الله تعالى أراد أن يذكّرنا بأيّام الجهاد بالسّيف، فمكّن إخوة لنا من أبناء كنانة اقتحام خط برليف، وكان ذلك في شهر الجهاد، الجهاد النّفسي، والجهاد الميداني، شهر رمضان، من معركة الفتح الأعظم إلى معركة حطين، إلى معركة عين جالوت، إلى معركة رمضان في مصر.

الإيمان بالكتاب، جاء الإيمان بالكتاب بصيغة المفرد؛ لأنّه اسم جنس يشمل الكتب المنزلة جميعها من الله على الأنبياء والمرسلين، فختمت بأشرفها

وأكملها، وهو القرآن المهيمن على ما قبله من الكتب، وهو الذي انتهى إليه كلّ خير، واشتمل على السّعادة في الدّنيا والآخرة، ونسف كلّ ما سواه من الكتب قبله، وآمن بأنبياء الله كلّهم من أوّلهم إلى خاتمهم صلى الله عليهم جميعا، يقول الشيخ الطاهر بن عاشور في كتابه: التّحرير والتنوير: "ووجه التّعبير بصيغة المفرد، أنّها أخف مع عدم التباس بأن يكون للعهد؛ لأنّ عطف النبيئين على الكتاب قرينة على أنّ اللاّم للاستغراق، فأوثرت صيغة المفرد طلبا لخفة اللفظ، والذي أطمئن إليه شخصيّا أنّ رسالات الله حملت الدّين الواحد الذي تنزل نجوما؛ قصد بناء الأمّة الواحدة تدرجا مع تطوّرها الحضاري، إلى أن جاءت مرحلة النّضج فجاء الكتاب الشّامل الكامل الذي شهد الله له بالتّمام، وشهد الله له بالكمال ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (3)**﴾ [التوبة: 3]، إنّه التّتويج لرسالة الله، ثم إنّ ما انتهى إليه البحث العلمي يقرّر العمل بالأحدث والأجد، فكيف لا يكون القرآن–وهو كلمة الله الأخيرة–هو المهيمن على الكتب جميعا.

وأودّ الآن قبل الانتقال إلى المحور الثاني أن اعلق على تحويل القبلة بمنظور ما حدث في أيّامنا هذه، وهو احتلال القدس الشّريف، فعندما نزلت هذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿**قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (144)**﴾ [البقرة: 144] دائما، قال المفسّرون: إنّ

رسول الله ﷺ كان يرغب لأن يحول إلى البيت الحرام؛ واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿**قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ**﴾، وكأنّه يبحث عن قبلة غير هذه التي كان عليها، كان يرغب لو يحول إلى البيت الحرام، هل كان ذلك شوقا إلى البيت الحرام فقط، أم أن هناك أمرا آخر؟ نحن لا نجتهد على الله تبارك وتعالى، ولكن لا يمنعنا هذا أن نتدبّر، بالنّسبة لما حدث يمكن أن يكون رسول الله ﷺ وقد أعلم بشيء، ولم يؤمر بأن يخبر به، أو أنّ وقته لم يحن حتى يخبر به، علما أنّ المسجد الأقصى المبارك يقع الآن أسيرا، وأنّ القدس تقع الآن تحت الاحتلال، ماذا لو لم تحوّل القبلة؟ لو لم تحوّل القبلة لصارت الأمّة الإسلامية تتّجه في قبلتها إلى مكان محتل.

المحور الثاني في الآية، وهو تكاليف المال.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿**وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ (177)**﴾ [البقرة: 177]، الكثير ممّن يهاجم الفكر الإسلامي والمنهج الإسلامي يتّهمون الإسلام، يتهمون الإسلام بأنّه لن يهتمّ بقضايا الاقتصاد وقضايا العدالة الاجتماعية، وقضايا الإنسان المحروم وقضايا المسحوقين كما يقولون، غير أنّ الواقع أنّ الإسلام لم يهمل شيئا ممّا يضمن للإنسان عزّته، وممّا يضمن للإنسان كرامته، وممّا يحقّق العدل، فإنّ كانت بعض النّظريات تدعي أنّها تعمل لصالح الإنسان، ولتحقيق العدالة والمساواة بين النّاس، فإنّ الإسلام لا يقترح العدالة اقتراحا؛ وإنّما يأمر بها أمرا: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (90)**﴾ [النحل: 90]، روى الحكم في المستدرك من حديث

شعبة والثوري عن منصور عن ويد عن مرة عن ابن مسعود قال، قال رسول الله ﷺ: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ أن تعطيه وأنت صحيح شحيح تأمل العيش وتخشى الفقر، وحديث فاطمة بنت قيس مشهور التي روت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «في المال حق سوى الزكاة»، للشيخ محمد عبده كلمة في هذا الموضوع يقول: واجب الزكاة إيتاء المال على حبه واجب، كالزّكاة عندما يرى مضطر بعد أداء الزكاة أو قبل الحول، ولا يشترط فيه النّصاب، إذا كان له رغيف ورأى محتاجا إليه، وهو مستغن عنه لنفسه، أو لمن تلومه نفقته وجب بذله، وليس المضطر فقط، بل أن الله يعطى من غير الزّكاة لذوي القربى، وهم أحق النّاس بذلك حماية لصلة الرّحم، وشدا للأواصر، ومنعا لتفكّك الأسرة وانعدام الثّقة بين أعضائها، إنّ رسول الله ﷺ ثبت عنه قوله: «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي»[1].

فيما يتعلق باليتامى لتعويضهم وحمايتهم من التّشرّد والإفلاس، والحقد على المجتمع عندما يجدون أنفسهم بمضيعة، لا يرحمهم أحد ولا يرعاهم أحد، فيتربّى فيهم الحقد وكراهية المجتمع؛ وهذا ممّا يؤدّي إلى الجنوح وإلى الإجرام.

المساكين الذين لا يجدون ما ينفقون ومع ذلك هم ساكتون، لا يسألون ضنّا بماء وجوههم، وقد وصف الله هذه الفئة من النّاس الذين يستحقون المساعدة ويستحقّون أن يأتوا الأموال قال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (273)﴾ [البقرة: 273]، ومعروف أنّ للعلماء تفسيرين فيما

(1) أخرجه الترمذي، وابن ماجة، والدارمي في السنن.

يخصّ الفقير، وفيما يخص المسكين، فمنهم من رأى أنّ الفقير له مال لا يكفيه، وأن المسكين من لا شيء له **مسكينا ذا متربة**، ومنهم من يرى عكس ذلك، ومن لا يملك الكفاية.

أمّا ابن السّبيل فهو داخل في نطاق اهتمام هذا المجتمع الإنساني، هذا المجتمع المرحمي، هذا المجتمع الذي يؤمن بالإنسان بأنّه أخو الإنسان، فعندما ينقطع الشّخص عن أهله أو عن ماله أو عن بلده، ويأتي إلى بلد الإسلام فإنّه يجد الرّعاية ويجد الحماية، ويجد أرضا بأرض وقوما بقوم ومالا بمال.

والسائلين الذين تدفعهم ظروفهم وتدفعهم أحوالهم إلى المسألة، وربما تكون المسألة بأحوالهم كما قال تعالى: ﴿**تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا**﴾ تعرفهم بسيماهم، ربّما تكون وضعيته وهيئته وسحنته تدلّ على احتياجه، وهو لا يعلن هذا الاحتياج ولا يطلبه، ورعاية السّائل واحترامه وعدم نهره جاء الأمر به في الآيات المبكرة التي نزلت في أيام النبوة الأولى ﴿**فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (9) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (10)**﴾ [الضحى: 9-10].

أمّا إيتاء المال لهذا الصّنف الذي يقول الله عنه: ﴿**وَفِي الرِّقَابِ**﴾ فمنها هذه الفئة من النّاس هم الذين أوقعهم سوء طالعهم في الرق؛ لأنّهم حملوا السّيف في وجه الإسلام، وهنا حلاّن: إمّا بشراء الرّقيق وعتقه، وإمّا بإعطائه ما يؤدّي به ما كاتب عليه، لماذا؟ وهنا كلمة فيما يتعلق بمسألة الرّق، هناك كتّاب تأثروا بالفكر الإلحادي أو بالفكر المادي أو بالفكر الذي يتصيّد كل شيء ليطعن الإسلام، لماذا لم ينزل حكم في الإسلام لإبطال الرّق جملة وتفصيلا، ولو بآية أو بحديث؟ الجواب عن ذلك أنّ الرق وإنّ الحروب التي كانت تقوم بين النّاس هي التي فرضت أنّ الذين يقعون أسرى في يد العدو

يتعرّضون للعبودية ويتعرّضون للرّق. إنّ الإسلام إذا قرّر أن يحرّر النّاس ومنع الرّق، فإنّه هنا كما تقول لغة العصر الحاضر: يخل بالتّوازن الاستراتيجي بين دولة الإسلام وبين أعداء الإسلام، فعندما يقع المسلمون أسرى في يد العدو يسترقون، وعندما يقع الأعداء في يد المسلمين يحرّرون وهذا إخلال بالتوازن، والله سبحانه وتعالى يعلم السر وهو الحكيم العليم.

نأتي بعد إقامة الصلاة.

ما تأثير إقامة الصلاة في مجال البر؟ إن إقامة الصّلاة أيضا ليست التولي، ولكن توجه الإنسان إلى الله بكليته، إنّ الصلاة تلخّص فكرة الإسلام الأساسية من الحياة؛ بحيث تتوجّه قوى الإنسان مجتمعة إلى خالقها في ترابط واتّساق ربطها بالإقامة، بترسيخ للمعنى المراد من ربط الصّلة المستمرّة بالله لنتذكّر العهد مع الله، ومسؤوليّتنا نحو رسالته؛ وذلك ما يبقي الاتّجاه صحيحا والسّلوك قويما، وبعكس ذلك كلّه التزام الإنسان المسلم بالطّاعات، وابتعاده عن الفواحش و المنكرات ﴿**اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (45)**﴾ [العنكبوت: 45]، إنّ أفعال الصّلاة جاءت تامة حسب مقرّرات الفقهاء لا تحقق إقامة الصّلاة؛ لأن ما يذكره الفقهاء هو صورة الصّلاة وهيئة الصّلاة، وإنّما البر والتقوى في سرّ الصّلاة وروحها الذي تصدر عنه آثارها من النهي عن الفحشاء والمنكر، وقلب الطّباع السّقيمة والاستعاض عنها بالخلال القوية، لقد قال تعالى:

﴿**إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (21)**﴾ [المعارج: 19-21]، فتوجه الإنسان إلى الله سبحانه وتعالى

توجّها كليا بكلّ طاقاته تمثّله الصلاة ممن بين جميع الشّعائر، فالصّلاة توجه إلى الله بالروح عندما نخشع، ونتوجّه إليه متبتّلين، نتوجّه إلى الله بالعقل عندما نتدبّر آية الله البينة.

أمّا الزّكاة فهي الرافد الاجتماعي الذي أراد به الله سبحانه وتعالى أن يحقّق مجتمع التّوازن والعدل، وإنّ الذين منعوا الزّكاة، نعلم أنّ الصديق ﷺ قد حاربهم، وأجمع الصّحابة على حرب مانعي الزّكاة، ولم يشذ عن ذلك أحد إلا عمر ﷺ عندما سأل الصديق في ذلك قال: "أتقاتلون قوما قالوا لا إله إلا الله، وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أمرت أن أقتل النّاس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإن قالوها منعوا مني دماءهم وأموالهم إلاّ بحقها، وحسابهم على الله تعالى»"، فقال الصديق: "والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزّكاة"؛ لأنّ الزّكاة حق المال.

وهنا بعد الزكاة يأتي المحور الثّالث وهو محور الأخلاق، وجاء بصفة مغايرة للصفة الأولى ﴿**وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (177)**﴾ [البقرة: 177].

كانت الصّفات أفعالا: آمن بالله وآتى المال على حبه وأقام الصلاة وآتى الزكاة – ثم جاءت الصفة هذه بصفة، ثم جاء هذا المحور بصفة الوصف، وهنا انتقال من البر في الأعمال إلى البر في الأخلاق والأعمال الاجتماعية، وأهمّ أصول البر هو الوفاء والصّبر بضروبه، وذكر الأعمال بصيغة الفعل، والأخلاق بصيغة الوصف؛ لأنّ الأعمال أفعال، والأخلاق

صفات، وفيه التّنبيه إلى أنّ من أوفى وصبر تكلّفا لا يكون بارا حتى يصير الوفاء والصّبر من أخلاقه.

﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ وأوّل وفاء هو الوفاء بعهد الله.

﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ وجاءت هذه الصّفة منصوبة على الاختصاص تنويها بفضيلة الصّبر في الفقر وفي المرض، وعند الشدة والقتال، وهؤلاء الذين توفّرت فيهم هذه الخصائص من العقيدة الصّحيحة والعمل المستقيم والخلق الكريم، هم الذين صدّقوا الله في إيمانهم، وصدقوا الله في إسلامهم، وجعلوا بينهم وبين الله وقاية تقرّبهم إليه، وتحفظهم من عذابه، وتوصّلهم إلى رضاته.

نسأل الله ﷻ أن يعيد إلينا عزّتنا وأمجادنا، ويحرر مقدّساتنا، ويعيدنا سيرتنا الأولى كما كنا عهد رسول الله ﷺ وخلفائه وصحابته، ومن اتّبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (104) وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (105) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ (106) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (107)﴾ [الأنبياء: 104-107].

تعقيب الشيخ شرفاء

على تدخلات نظرائه حول المحاضرة

التي ألقاها بعنوان:

خصائص الشخصية المتميزة

رمضان 1410هـ

تعقيب فضيلة الأستاذ المحاضر:

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على رسوله سيدنا بن عبد الله وآله وصحبه ومن ولاه.

فضيلة رئيس الجلسة

صاحبي الفضيلة عضوي اللجنة التوجيهية

أصحاب الفضيلة مشايخنا الموقرين:

أحييكم جميعا تحية من عند الله مباركة طيبة.

بادئ ذي بدء، أقدّم شكري الجزيل لكلّ أصحاب الفضيلة ابتداءً من المنصة الرّئيسيّة إلى كلّ فرد من مشايخنا وفضلائنا وعلمائنا، الذين شرّفوني بهذا الاهتمام الفريد بالدّرس الذي يسّر الله لي إلقاءه بالأمس.

إنّني معجب بالذين أثنوا على الدّرس؛ لأنّ الثناء في الواقع، وإن كنت أقدّر كلّ التّقدير لأصحابه، أقدّر لهم حسن ظنّهم بأخيهم هذا، وأقدّر لهم ما ارتأوه صوابا، غير أنّ الذي يفيدني أكثر، هو أن أعرف المواطن التي يجب أن ينتبّه إليها الإنسان فيما يكتب الله له من عمل مستقبلي، ومع ذلك أرى أن أقول كلمة فيما يتعلّق بتحويل القبلة، هذا الموضوع الذي أثاره شيخنا عبد الرفيع البصري، وأنا أتّفق معه في الكثير ممّا أورده من أن أوّل بيت وضع للنّاس –كما قال الله ﷻ: ﴿**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (96) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (97)**﴾ [آل عمران: 96-97]، فقد ذكرت في الدّرس أن المسلمين

أجابوا اليهود، وأجابوا النصارى قبل أن تنزل الآية موضوع الدرس، أجابوا بأنّ القبلة الصّحيحة التي يرتضيها الله، هي قبلة إبراهيم.

غير أنّ موضوع تحويل القبلة على ضوء ماجد الآن على ضوء الحدث الكبير الذي شهده العالم، من حرب سبع وستين، ذكرت هذا في المسجد النبوي، وأنا ألقي درسا فيه، سنتين متواليتين فوجدت تدعيما وتأييدا، نحن لا نجترئ على الله، لا نقول: إنّ هذا قد حدث، فأنا ذكرت هذه العبارة بنصّها أمس: "لا نجترئ على الله"، طالما أنّنا ليس عندنا نصّ من كتاب أو سنة فلا داعي لأن نجزم بشيء؛ إنّما هو احتمال، أنا أقول استمدادا من قول رسول الله ﷺ عن القرآن الكريم: لا تنقضي عجائبه، وأنّ آيات القرآن يفسّرها الزّمان ويفسّرها المكان، وأنّه ثبت أنّ رسول الله ﷺ يسأل عن بعض الأشياء فيسكت؛ إمّا لأنّه لم يؤمر تبليغها، وإمّا لأنّ وقتها لم يحن بعد، ولو ذكرها لحدثت فتنة، ماذا لو قال رسول الله ﷺ إن إسرائيل ستحتل القدس بعد أربعة عشر قرنا من الزمان؟ إنّ الله أمرنا أن نتدبر في القرآن الكريم ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (24)**﴾ [محمد: 24]، قلت على ضوء المستجد الآن نجد أنّ من خير الأمة الإسلامية أنّ الله سبحانه وتعالى حول القبلة، هذا احتمال حول القبلة، لو بقي المسلمون يتوجهون في صلاتهم إلى القدس وهو أسير؛ يعني أنّ هناك شيئا يحسّ به المسلمون أنّهم ليسوا مرتاحين، لاسيما وأنّ الوضع الذي تعيشه الأمة الإسلامية الآن هو وضع ضعيف وهزيل، وفيه تفكّك وتشتّت؛ يعني بالنسبة لي أنا كمسلم وأنت مسلم والأمة الإسلامية لو أنّ القبلة هذه لم يحدث تحويلها نصبح الآن مضطرّين أنّنا نتوجه إلى هناك، في حين أنّ عدو الله وعدونا يحتّل القدس،

ويدنس المسجد الأقصى، هذا احتمال؛ وممّا يمنعني أن أفكّر هذا التّفكير، لم أجزم، لم أقطع، لم أثبت، لم أقل أنّ هذا فعلا هو التّفسير تصوّر، ومن ثمرات الهدي الإلهي أن نحاول أن نستمد منه ما ينفعنا، وما يهدينا سواء السّبيل؛ يعني لماذا لا أحاول أنا أن أعرف الخير الكثير، الذي نتج من تحويل القبلة؟

هذا الخير من جملة هذا الخير الذي نشهده الآن أنّنا نتوجّه إلى البيت الحرام القبلة الأولى، وأنا لا أنكر هذا، وقد ذكرته ولكن مجرّد احتمال، ولماذا الأقفال ونقفل على أنفسنا فلا نفكّر ولا نتدبّر ولا نتأمّل؟

فيما يخص الصّلاة، فضيلة الشيخ المقدم بوزيان، - وأنا احترم الرّجل كثيرا وأقدّره، وأحترم حفظه وعلمه-

الإقامة نعم، إقامة الصّلاة وردت في القرآن الكريم بأساليب متعددة ووردت –أحسب –في سورة الكهف: ﴿**فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ (77)**﴾ [الكهف: 77]، هذا داخل في المعنى الذي ذكرتموه، غير أن هناك معنى له بعد اجتماعي جاء في سورة الماعون قوله تعالى بعد بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿**أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (1)**﴾ [الماعون: 1].

ما الذي يتبادر إلى الأذهان، عندما نسمع هذا السؤال؟ من ذا الذي يكذب بالدين؟-يوم القيامة-الذي يتبادر إلى الأذهان أن الذي يكذّب بالدّين؛ وهو الذي ينكر البعث وينكر الحياة بعد الموت، وينكر الثّواب والعقاب، وينكر محكمة القيامة أنّ الناس سيقفون أمام ربّ العالمين، الذي يكذب بيوم الدين هو الذي لا يؤمن بيوم القيامة، لكن الجواب الإلهي أعطى للآية بعدا اجتماعيا مديدا، بعدا اجتماعيا فيه العدالة الاجتماعية فيه المرحمة، فيه بناء مجتمع التّكافل والتّضامن، والتّعاون فيه البرّ بالضّعيف﴿**فَذَلِكَ الَّذِي**

يَدُعُّ الْيَتِيمَ (2)﴾ [الماعون: 2]؛ يظلم اليتيم، ﴿**وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (3)**﴾ [الماعون: 3] ليس فقط لا يطعم المسكين، لا يدع ولا يحثّ النّاس أن يساعدوا المساكين ويقاوموا المسكنة.

﴿ **فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (4)**﴾ [الماعون: 4]، هناك الذي يقفون عند هذه الآية كما يقولون فويل للمصلين ثم توقف هناك ﴿**الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (5)**﴾ [الماعون: 5] من الفقهاء من قال: السّهو هو ترك الصلاة، يصلّي وقتا وترك وقتا، ولا يؤديها في أوقاتها، ويغفل عنها ولا يحافظ عليها، ولكن هناك بعد آخر في هذه الآية عن صلاتهم ساهون غافلون عن معنى الصّلاة ومدلول الصلاة، وحكمة الصّلاة، وأثر الصلاة في إصلاح النفس البشرية، وأثر الصّلاة في توحيد المجتمع، خاصة أن رسول الله ﷺ يحث على صلاة الجماعة، ويعتبرها أنّها تفضّل صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة، وصلاة الجمعة، وتسمية الجامع نفسه؛ لأنّه يجمع، وأنّ المسلمين عندما يحيّرهم أمر يبعثون مناديا ينادي في النّاس: صلاة جامعة، فيجتمعون ليلقى إليهم الخبر.

اكتفيت أمس بالإشارة إلى أنّ الصّلاة ليست هيئة الصّلاة، ولا أشكال الصّلاة ولا حركة الصّلاة، ولكن مضمون الصّلاة، الإمام أبو حامد الغزالي، –رحمه الله ورضي الله عنه–، ينظر في قوله تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2)**﴾ [المؤمنون: 2]، فيقول: إنّ للآية منطوقا ومفهوما، أما المنطوق وهو أنّ الصّلاة النّاجحة هي الصّلاة التي يصاحبها الخشوع، وأمّا المفهوم غير المنطوق فهو أنّ الصّلاة إذا صليت بغير خشوع، واتّصال وثيق بالله سبحانه وتعالى غير مفلحة غير ناجحة.

واكتفيت –عفوا سيدي الرئيس هذه الكلمة الأخيرة –بإعطاء هذا المفهوم، أنّ الصّلاة تمثّل الفكرة الكلية للإسلام، الصّلاة الإسلامية تختلف عن صلاة النصارى-إن جاز أن نسميها صلاة-تختلف عن الطّقوس التي يسمّونها صلاة الوثنيين؛ لأنّ الأولين جعلوا الاتّصال بالله اتّصالا روحيا، لا علاقة للجسد به، فإنّنا نراهم لا يتركون عندما يؤدون هذه الصّلاة، والوثنيون عقيدتهم نابعة من الأرض ولا علاقة لها بالّسماء، نجد حركة جسد وهياج وهرج ومرج وصياح ونيران وتحريك أجساد، أمّا الصّلاة الإسلامية، فهي هذه الصّلاة التي تتمّ بالشمولية الكاملة، حركة جسد، حركة عقل، حركة روح، فهي حركة جسد بركوعها وسجودها وقيامها، وكل الحركات الجسدية، وهي حركة عقل بالتّدبّر؛ عملا بقول رسول الله ﷺ: «ليس لك من صلاتك إلا ما وعيت»[1]، فهي وسلة وعي، كلما تلونا آيات الله البينة، إلاّ ووجب علينا التّدبّر، وبالتّدبّر يحرك العقل، وهناك حركة عقل تمشي في وقت واحد مع حركة الجسد، أمّا الروح فهي في الخشوع والترقي والتوجه إلى الله سبحانه وتعالى.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (8)﴾ [آل عمران: 8].

وأجدّد شكري والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

(1) لم أعثر على تخريجه.

تدخل الشيخ شرفاء في إطار مناقشة درس

الأستاذ الحسن بن الصديق

عضو المجلس العلمي بطنجة

في موضوع:

حجية أفعال الرسول (ﷺ)

وموقعها من الأدلة الشرعية

رمضان 1415هـ

*** تدخل فضيلة الأستاذ محمد الأكحل شرفاء، من علماء الجزائر**

بسم الله والحمد لله، وصلى الله وسلم على رسول الله سيدنا محمد ابن عبد الله، وآله ومن ولاه.

معالي الأخ الوزير، السيد الرئيس، مشايخ العلم الموقرين، تحية من عند الله مباركة طيبة.

إنّني من منطلق التوجيه النبوي الشريف: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله»[1]، فإنني أنوه بالدرس القيم الذي تابعته مع حضرتكم أمس لشيخنا الموقر الحسن بن الصديق، وإنّه لنوعيّة فريدة من رجال العلم، مثل هذا الشيخ الجليل الذي قل نظيره من أهل التحقيق، شكر الله له جهده، وإني أضيف إلى ذلك، إنّني لاحظت أنّ درسه تميّز بالإقناع وبالإمتاع معا، إقناع بالحجة، وإمتاع بالبيان، وتلك هي ثمرة مدارسة القرآن، ومدارسة سنة رسول الله ﷺ ولا نناقش الدرس؛ لأنّ الفترة الزّمنية المحدّدة لنا لا تسمح بذلك أوّلا؛ ولأنّ ما اشتمل عليه يستحق أن نبقيه في أذهان المستمعين، ولا نضيف إليه الكثير؛ إنّما هناك الجزء الأخير من الآية الكريمة التي اعتمدها منطلقا لدرسه: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (21)**﴾ [الأحزاب: 21].

لئن سمجتم فسأتحدث عن هذا الجزء الأخير، الذي قلّما يلتفت إليه الدّارسون، وقلّما يتناوله المحاضرون، أو الكاتبون، قضية ترسيخ العقيدة في نفوس النّاس، عقيدة الإيمان باليوم الآخر، كثيرا ما يتحاشاها النّاس، ولا

(1) أخرجه الترمذي في السنن، وأحمد في المسند.

يتحدثون عنها، باعتبارها غيبا، ونحن مطالبون بأن نؤمن بالغيب وكفى، ولكن التركيز على هذه النّقطة كذات إيمانية.

الإخوة الكرام، إنّ التّركيز على الإيمان باليوم الآخر في نفوس النّاشئة ومتابعة هذا التّركيز في مختلف مراحل الدّراسة، من الدّراسة الأوّلية إلى الدّراسة الجامعية المتخصّصة، من شأنه أن يعالج كثيرا من الأدواء، التي تعيشها أمّتنا مشرقا ومغربا، مشكلة ضعف الاتّصال بالله، وضعف هذه الرّابطة التي تحقّق الفوز في الدّنيا، والنعيم في الآخرة، وإنّ ذلك لمن صميم ما يجب أن نهتم به، لأنّه أولا يعطينا الأمل، ويعطينا الرّجاء ويخلصنا من هذا الإحباط ومن هذا التّخبط الذي يعيشه هذا الجيل، الذي بقي حائرا لماذا أنا موجود؟ ولماذا أنا في هذه الحياة؟ وهل توجد هذه الأشياء الغيبية؟

حتى إن هناك من يشن حملة شريرة على الاتجاه الإسلامي وينعت أصحابه بالغيبيين، وإنّ كاتبا عظيما من كتاب هذا العصر، قال: "لئن صحّ شيء ممّا يسمى علما في هذا العصر، فهو هذا الغيب".

والله سبحانه وتعالى لا يقبل منّا أو نتناول هذا الجانب سلبا لأنه من أول سورة، وفي أوّل سورة البقرة قوله تعالى: ﴿**الم (1) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4)**﴾ [البقرة: 1-4]،

يجب أن يبلغ الإيمان إلى درجة اليقين أو الإيقان؛ حتى يوتي ثمراته حياة طيّبة في الدّنيا، ونعيما مقيما في الآخرة.

اسمح لي سيادة الرئيس، هناك جملة أريد أن أضيفها في هذا العصر، شاعت إيديولوجية تهتمّ بتقسيم الشّعوب إلى طبقات، الإسلام لا يعترف بالطّبقات، ومن هذه الطّبقات ما يسمى بالطّبقة الكادحة، وأنا مع قوله تعالى في سورة الانشقاق: ﴿**يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (6)**﴾ [الانشقاق: 6].

إنّ الإسلام يريد أن يصبح المجتمع كلّه مجتمعا كادحا؛ ولكي يتمّ لنا الموظف الشّريف، والمسؤول النّظيف، ومن يعمل عملا لا يخون فيه دينه، ولا أمّته ولا شعبه، فعلينا أن نبني هذا الجيل الذي يعمل لله والذي يكدح ويكدح ويعرق ويعرق، ويتعب ويتعب، ويعمل ويعمل ويجتهد ويجتهد... لا من أجل لقمة العيش كبهيمة، ولكن لا بد أن يعرف الخطة التي يسير عليها.

وهذه الخطة موجودة كلّها في رسول الله ﷺ، وفي كل مجال من مجالات الحياة.

ومن منطلق الشّكر، أتقدّم بالشّكر الجزيل لصاحب الجلالة، أمير المؤمنين على إتاحته الفرصة الكريمة التي نجتمع فيها، لنذكر القرآن في شهر القرآن، ولا أنسى أن أقدم شكري لمعالي وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية، على ما أتاحه لنا من كرم الضيافة، وحسن الاستقبال، وتنظيم هذه الأشغال، والسّهر عليها بالأقوال والأفعال، والله وراء القصد، وهو مولانا ونعم النّصير، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

*تدخل الشيخ شرفاء في إطار مناقشة درس

الأستاذ محمد الحبيب ابن الخوجة

من علماء تونس

في موضوع:

العلماء الربانيون والمجاهدون الصادقون

رمضان 1419هـ

***تدخل فضيلة الأستاذ محمد الأكحل شرفاء، من علماء الجزائر**

بسم الله الرحمن الرحيم، أحمده سبحانه وتعالى حمدا طيبا كثيرا وصلى الله على رسوله وعبده، وخاتم أنبيائه ورسله، سيدنا محمد وآله وصحبه ومن دعا بدعوته.

سيادة الكاتب العام لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

السّادة أهل العلم في المشرق والمغرب، الذين وفدوا إلى هذه الدّروس الجامعة، تحية من عند الله مباركة طيبة.

إنّ الدرس الذي استمعنا إليه أمس من صاحب الفضيلة الشيخ الحبيب ابن الخوجة ذكّرني بالحلقات التي كنا نتابع فيها دروسنا بجامع الزيتونة المعمور أيّام الصبا، ويذكّرني ذلك بهيأة الشيخ وسمته ولغته، وهي ذكرى في شهر الذكريات، وإنّ الجولة التي طاف بها معنا حول الحديث الشّريف الذي اختاره لدروسه نقلتنا إلى عهد كنا نستمع فيه إلى كبار علمائنا الربانيين، وهم يعيدون إلى بلدنا وإلى بلدان الإسلام في مشرقه ومغربه، ذكريات العهد الزّاهر الذي عاشه الإسلام في ظلّ الربّانية، وإنّ الربانية كانت من المنطلق لهذه الرسالة في مستهل الوحي.

إنّ الله ﷻ أوحى إلى عبد ونبيه الخاتم ﷺ هذه الآية بعد:

أعوذ بالله من الشّيطان الرجيم: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1)**﴾ [العلق: 1]، وإن اختيار هذه الصفة الأساسية للألوهية لها مغزى، ولها معنى، ولها مدلول رفيع؛ إنّ الربانية تعني تسليم الأمر لرب العالمين، وتعني

الاستمداد من رب العالمين، وتعني الالتزام بما شرعه الله لنا لحياتنا في الدّنيا انتظارا للقائه في الآخرة.

وإنّه ﷻ دعا الناس إلى أن يعبدوا أنفسهم لربهم باعتبار أنّه الخالق، وباعتبار أنّه الرّازق، وباعتبار أنّه المهيمن على الأمر كلّه، ففي آية المنطلق نجد الدّعوة إلى القراءة، والقراءة هي أوّل باب يدخل منه الإنسان إلى المعرفة، ويخل منه الإنسان إلى الحضارة، ويدخل منه الإنسان إلى التّقدّم، ويدخل إلى الحياة التي يريدها الله ﷻ قائمة على الإيمان﴿**باسم ربك**﴾، وأنّ جميع الأعمال التي لا تنبع من الربانية فهي أعمال باطلة؛ ولذلك لا يدخل الإنسان هذا الإسلام إلاّمن باب الرفض، وإنّ الفئة التي تنادي برفض التّقاليد ورفض المعتقدات ورفض القيم ورفض المثل، إنّها تجهل أنّ المسلم لا يدخل إلاّ من باب الرّفض حين يقول: لا إله إلا الله، فإنّ لا، تعني نفي الجنس.

وهي يقول النحاة: إنّها النّافية للجنس؛ أي أنّ جميع الربوبيات الزّائفة التي تفرض نفسها على قلب الإنسان، وعلى شعوره، وعلى تفكيره، وعلى سلوكه في مبدئه وعيشه ومصيره مرفوضة، وأنّنا لا نتلقى إلاّ من الله ﷻ تشريعا وتقنينا وتنظيما.

فعندما تحدّث عدي بن حاتم إلى رسول الله ﷺ عن آية وردت في كتاب الله: ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (31)**﴾ [التوبة: 31]، فقال له: يا رسول الله إنّنا لم نقل إنّهم أرباب من دون الله فكيف

يقول القرآن هذا؟ فقال له رسول الله ﷺ: «أليسوا يضعون لكم الحلال والحرام فتقبلون منهم؟»، قال: بلى! قال: «فتلك عبادتهم»[1].

إنّ الربانية هي المنطلق، وإنّ كل ما اكتسبه المسلون في عهد رسول الله، وفي عهد الرّاشدين، وفي ما تلاها من العهود الزّاهرة، إنّما أساسها أنّهم ربانيون ﴿**مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (79)**﴾ [آل عمران: 71].

وإنّ دراستنا لكتاب الله ﷻ وإن عكوفنا على فهم كتاب الله ﷻ لابد أن ينشئ فينا أمّة ربّانية، بهذه الربانية انتصرنا، وبهذه الربانية فزنا، وبهذه الرّبانية انطلقنا ننساح في مشارق الأرض ومغاربها، وعندما تراجعنا عن هذه الربانية، وانكمشنا عنها، واستمعنا إلى أصوات الشّياطين التي يوحي بعضها إلى بعض زخرف القول غرورا صارت الأمة الإسلامية إلى ما صارت إليه.

فرفض الربوبيات الزّائفة هي أول منطلق نحو الإسلام؛ وهي تعني الخضوع المطلق لشرع الله، وتعني أنّ حياة الإنسان يعيشها في جبهتين أو يمر بها في قناتين:

القناة الأولى: هو فيها مكره.

والقناة الثانية: هو فيه مختار: ﴿**أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (83)**﴾ [آل عمران: 183]، وإنّا لله لا يثيبنا ولا يعاقبنا إلاّ فيما يخصّ القناة الثانية حين نختار لأنفسنا أن

(1) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، والبيهقي في السنن الكبرى.

نكون مؤمنين، أوّلا نكون مؤمنين، أن نكون مطيعين أو لا نكون مطيعين، وإنّ التّشريع كلّه يتوقّف على القناة الثّانية طوعا أما كرها فكل الخلق مسلمون، سواء اعترفوا بذلك أم لم يعترفوا.

نحن لم نختر آباءنا، لم نختر لوننا، نحن لم نختر وطننا، لا نستطيع أن نعرف كم نعيش، ولا كيف نعيش، متى نموت، أو كيف نموت؟ الأمور كلها هذه الأجفان التي تتحرك في أعيننا إنها تتحرك بقدرة إلاهية، هذه الدماء التي تسير في شرايينا إنها بقدر الله العالم، كل ما نعيش وما نرى نوما ندرك أولا ندرك إنما هو بإرادة الله.

أما التشريع فيتوقف على ما نختار: ﴿**فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** (29)﴾ [الكهف: 29].

والربانيون هم هؤلاء العلماء الذين يرجعون إلى ربهم في كل شيء فيستمدون منه ويعودون إليه، وفي ذلك التشريع الإسلامي.

ومن هنا الجانب العملي، يجب أن نلتزم بالتربية الإسلامية، اقرأ باسم ربك كلّ الناس يقرؤون، ولكن هذا يقرأ باسم فلان، وذلك باسم فلان، وذاك يدعو إلى الإيديولوجية الفلانية، وذاك يلتزم بالخط الفلاني، لكن الذي يريده الله للخلق بما أنه هو الذي خلقهم أن يلتزموا بتربيته، وفي التّربية بلاغ وقدوة.

البلاغ نجده في آيات الله البينات، القرآن الكريم التي تضع لنا قواعد لبناء الإنسان الفرد، وبناء المجتمع في كلّ المجالات، المجالات الأسريّة، المجالات

الاجتماعية، المجالات الوطنية، المجالات الدّاخلية، المجالات الخارجيّة، ومن ثم فهدف الإسلام في التربية هو بناء الإنسان.

إن المناهج التربوية الرضية التي تعيش في الأرض تستهدف أغراضا متعدّدة، هذا يبحث عن المواطن الصالح في بدنه، وهذا يبحث عن المواطن الصالح في علمه، وهذا يبحث عن الرياضي الذي يقهر في ميدان المصارعة، أما الإسلام فيبحث عن الإنسان الصّالح، وهو رسالة عالميّة نادت بها آية الله البينة في منطقها في سورة التكوير.

وهي التي تلقاها رسول الله ﷺ في المراحل الأولى من مراحل الوحي وهو في مكّة، جاء قوله تعالى: ﴿**إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (104)**﴾ [يوسف: 104]، ليس لمكّة وحدها، ولا لقريش وحدها، ولا للعرب وحدهم، ولا للرّوم وحدهم للعالمين، وهو يقاسي وهو يعاني، وهو يعيش في دار الأرقم مضايقا مخنوقا من طواغيت الشرك.

ومع ذلك أنزل الله عليه: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (64)**﴾ [الأنفال: 64]، هذه هي الحقيقة الربانية: ﴿**حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ ومن اتبعه من المؤمنين جماعة قليلة من مسلمي مكة، ثم الجماعة التي انضمت إليها في المدينة، بهذه الفئة القليلة قال له: ﴿**حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾، ثم ماذا قال؟: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (65)**﴾ [الأنفال: 65].

إن رسول الله ﷺ عاش حياة كاملة، وكانت رسالته تقوم على:

أوّلا: البلاغ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (67)﴾ [المائدة: 67].

وثانيها التبيين: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (44)﴾ [النحل: 44].

ثم ألقى علينا التبعة نحن كل من آمن: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (21)﴾ [الأحزاب: 21].

وإن كان واجبي يدعوني إلى أن أقدّم الشّكر لمن كان له الفضل بعد حمد الله وشكره والثناء عليه بما هو أهله، لأمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني –رعاه الله–، حين أـلح لنا هذه الفرصة لنجتمع هنا في شهر القرآن، لنتدارس القرآن، وننظر ماذا فعلنا، وماذا سنفعل، والله المستعان ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (24)﴾ [القصص: 24].

وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

محاضرة ألقيت بالرباط (المغرب) في إطار الدّروس التّحسيسيّة في رمضان 1403هـ أفريل 1989م

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله وسلم على سيدنامحمد وآله وصحبه

درس

للأستاذ محمد الأكحل شرفاء

باحث وداعية إسلامي ومحاضر بنادب الترقي بالجزائر

موضوعه:

جمع الكلمة ووحدة الصف

من خلال التوجيه القرآني

انطلاقا من قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (103) وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (104) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (105) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ

أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (106) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (107) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ (108) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (109)﴾ [آل عمران: 103-109].

الخميس 07 رمضان 1409 (13أبريل 1989م)

جمع الكلمة ووحدة الصف

لفضيلة الأستاذ: محمد الأكحل شرفاء

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق.

وصلى الله وسلم وبارك وأنعم على الخاتم سيدنا محمد بن عبد الله وآله وصحبه ومن دعا بدعوته.

رأيت أن أتحدث في موضوع قرآني ينطلق من قول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (102)﴾ [آل عمران: 102]، حتى نستلهم الهدى من كتاب الله عز وجل الذي سيسدد الله به خطواتنا في هذا الاتجاه الصحيح الذي هو تصحيح لما يجب أن يصحح ، وأن الله سبحانه وتعالى جعل كل شيء بمقدار، وقد حان الوقت أن نصحح.

وإننا إن شاء الله سنعيش هذه اللحظات مع آيات الله البينات في المواضيع التي تناولتها هذه الآيات من الآية الثانية ومائة إلى الآية التاسعة ومائة من سورة آل عمران (102-109).

إن الخطاب الديني يتخذ صيغتين: صيغة توجه إلى عموم البشرية عندما يناديها الله تعالى بقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**﴾، وصيغة توجه إلى الجماعة المؤمنة التي أسلمت لربها وصدقت الرسل والتزمت بمنهجه، فيناديها بقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا**﴾.

وهو شيء يثير الاعتزاز ويشعر هذه الجماعة التي عاشت في جاهليتها تعتز بما تعتز به الجاهلية من القيم الأرضية الهابطة، فنقلها الإسلام إلى مجال أسمى وأرفع فأصبحت لا تعتز إلا بقيمة واحدة هي القيمة الإيمانية، وإنه لإعجاز وتكريم عظيم.

وإنها عندما تسمع رسول الله ﷺ يبلغها هذا النّداء الرباني تتطلّع إلى ما يلقى عليها من توجيه رباني، ها هو التوجيه يأتي: ﴿**اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**﴾.

وإنّ هذا الموضوع موضوع التّقوى هو نفسه الغاية التي أراد الله أن نصل إليها بفريضة الصيام، فعندما جاءت آية الصيام ذكرت الغاية المرتجاة أن يصل إليها الصائمون وهي التقوى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (183)**﴾ [البقرة: 183]، والتقوى هي هذه العلاقة، هذه الصلة، هذه الحساسية، هذه اليقظة التي يحملها المؤمن في أعماق ضميره تصله بالله وتجعله يستشعر أن الله معه فيما

يقول ومعه فيما يفعل يراقبه ويلحظه ويسجل أعماله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (16) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (17) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (18)﴾ [ق: 16-18]، وهي العبادة التي يصل فيها الإنسان إلى درجة التقرب من الله تبارك وتعالى؛ بحيث أن فيها درجتين كما صورها رسول الله ﷺ: درجة يصل فيها الإنسان إلى أنه يرى الله بإيمانه، ليس الرؤية الحسية التي نرى بها الأشياء المحسوسة؛ وإنما أن يصل في درجة القرب إلى الشعور بأنه يقف أمام ربه ويشاهده، وهناك الدّرجة التي هي أدنى من هذه وهي أن يتيقن بأن الله يراه، علما أن الإنسان إذا كان يقف أمام مسؤول من مسؤوليه البشريين فإنه يحرص كل الحرص ويجتهد على أن يأتي بالأعمال متقنة، فكيف بمن يتيقن بأنه يقف أمام الله، والله يشاهده؛ لذلك جاءت الآية الكريمة تقول: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِ﴾؛ تعني كما يحق له أن يتقى، وكما يحق له أن يطاع وكما يحق للألوهية أن يتعامل بها الخالق وأن يتعامل بها المخلوق.

فلم يرسم مقياسا محددا ولا عملا ظاهرا محددا يكون الإنسان إذا فعله يصل إلى حق التقاة، وإنّما ترك القلب المؤمن يجتهد في بلوغ هذه الدرجة من القرب من الله. هذا القلب المؤمن كلما أوغل في هذا الطريق طريق القرب من الله تكشفت له آفاق وجدت له أشواق، وهناك حديث شريف روي عن عبد الله بن مسعود –رضي الله تعالى عنه– عن رسول الله ﷺأنّه فسّر لنا اتقوا الله حق التقاة فقال: «أن يطاع فلا يعصى ويذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر»[1].

(1) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف، والنسائي في السنن الكبرى، والطبري في جامع البيان.

وإن في هذا التفسير النبوي علما بأن رسول الله ﷺ مهمته قائمة على أمرين إلهيين: الأوّل هو البلاغ:

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (67)﴾ [المائدة: 67]، والثاني هو التفسير والبيان ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (44)﴾ [النحل: 44].

ولا تفسير أصح من تفسير رسول الله ﷺ فتقوى الله حق التقاة أن يطاع فلا يعصى، وطاعة الله هي عبادته في كل مجال، وليست مقتصرة على الشعائر كما يرى البعض، وإنّ الاعتصام هو التمسك بما يعصم، بما يمنع، بما يعطينا المنعة، بما يعطينا الحصانة، بما يحصننا ضد الخطر، وضد الشر، وضد ما يتهددنا، وضد ما فيه الهلاك، فالإنسان لابدّ أن يكون له حصن ومنعة، وحبل الله هذا الحيل نعتبر أن الفظ القرآني لفظ معجز، يأتينا بالمعاني الجليلة في صور محسوسة وكأنّه مشهد مرئي، نتصور أن جماعة موشكة على الغرق أو على الهلاك أو شيء من هذا وهي تجأر إلى الله تطلب النجاة أو تطلب الغوث فيلقى إليها حبل ينقذها من الغرق أو ينقذها من الهلاك، سفينة مثلا تمخر عباب البحر تتقاذفها الأمواج الهائجة يمينا وشمالا، وتوشك السفينة أن تغرق، ويجأر سكانها طالبين الإنقاذ فيأتي حبل ممدود من السماء فينقذهم.

حديث نبوي شريف أرى هذا الحديث النبوي الشريف يقول فيه النبي ﷺ: «القرآن هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض»[1]، هذا البيان

(1) أخرجه الطبري في جامع البيان.

النبوي يفسر بنا الوضع الذي كانت عليه البشرية قبيل مجيء الدعوة الإسلامية، كانت هالكة، كانت توشك على الدمار وتوشك على الهلاك، فإذا برسالة الإسلام تنقذها من جاهليتها، ومما أفرزته الجاهلية مما يهدد البشرية بالفناء والدمار، مد لها هذا الحبل الإلهي فأنقدها وذهب بها إلى النجاة. والحبل كما نرى هو وسيلة من الوسائل التي تستعمل للربط أو الشد أو للجمع أوللتّكتيل، فهو إمّا أن يتدلّى من السّماء، وإمّا أن ينزل لينقذ الناس في الأسفل، المهم أنّ هذه صورة تقرب وتصور المشهد، مشهد قوم في حاجة إلى إنقاذ.

أما المعنى الذي يستفاد من هذا؛ فهو أن القرآن الحكيم الذي هو حبل الله، والذي فيه ميثاق الله الذي واثق به البشر، هو حبل النجاة، فإذا اعتصمنا بهذا القرآن الكريم الذي صوره رسول الله ﷺ في حديث آخر رواه الإمام على بن أبي طالب –كرم الله وجهه– يقول فيه: «فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم»[1]، فإذا كان القرآن الكريم يشتمل على كل هذا فماذا نريد أكثر من هذا؟ إننا نلتمس من القصص القرآني، ما فيه الصدق الذي لا ريب فيه، الحق الذي لا ريب فيه لنعرف ماذا نتعظ به، وماذا نستفيد به من أحداث التاريخ! إننا عندما نريد أن نرسم خطة للمستقبل، فعلينا أن نهتدي بتوجيهات القرآن حتى يكون حظنا حظا سليما.

عندما تعرض أمامنا مشكلة حاضرة معاصرة فإن القرآن الكريم عندما نهتدي به، فإنه يلهمنا إلى اتخاذ الحكم العادل و إلى اتخاذ الموقف السّليم، وما

(1) أخرجه الترمذي في السنن، وأحمد في المسند، والدارمي في السنن.

حياة الإنسان إلا الماضي والحاضر والآتي: «فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم»[1].

غير أن هناك كلمة جاءت بعد هذه وهي قوله تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾، والنحويون يقولون إنها حال، وفعلا هذه كلمة الحال هي الصورة التي يكون عليها المجتمع وهو يتمسك بالقرآن، هل القرآن يقبل من المسلمين أن ينعزل كل فرد في ناحيته ويعبد الله في جهته ولا يهتم بما حدث في بقية أمته؟ إنّ الله تعالى لا يقبل منا إلاّ أن نتمسك بدينه، ونحن مجتمعون، ونحن متكافئون ونحن متضامنون، ونحن متلاحمون، وهنا يأتي البيان النبوي فيعطي لنا صورا أخرى «المؤمن للمومن كالبنيان يشد بعضه بعضا»[2]، «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضوا تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[3].

اعتصموا بحبل الله، لكن ليس اعتصما كل فرد بنفسه منفردا عن إخوانه وعن قضايا أمته ومجتمعه، اعتصاما تكتليا تجمعيا تضامنيا تكافليا تعاونيا على البر والتقوى، هذا هو الذي يريده الله، وتوجيهات القرآن الكريم والسنة النبوية هي كلها توجيهات جماعية، فأوامر الله كلّها سواء أوامر بالفعل أو بالنهي، كلّ توجيهات القرآن الكريم توجه إلى الجماعة.

ولا يأتي التوجيه بالمفرد إلى رسول الله ﷺ وهنا حتى إذا جاء التوجيه إلى الرسول؛ إما لأن يكون فيما يخص النبوة، شخصية الرسول، وحتى فيما

(1) أخرجه الترمذي، والدارمي في السنن، وأحمد في المسند.

(2) متفق عليه، أخرجه البخاري ومسلم.

(3) أخرجه مسلم في الصحيح.

يخص النبوة علينا أن نلتمس فيه قدوة؛ لأن حياة رسول الله حتى حياته الشخصية ليست له، وحياته العائلية ليست له وحده؛ إنّما لتكون قدوة لأمته، في الآية الواحدة والعشرين من سورة الأحزاب: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (21)**﴾ [الأحزاب: 21].

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (103)﴾ [آل عمران: 103]، في شعائر الإسلام وشرائع الإسلام وآداب الإسلام دعوة إلى الجماعية ورفض للفردية الانعزالية، فما معنى أن يدعو رسول الله ﷺ إلى صلاة الجماعة ويحث عليها ويجعلها تفضل صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة؟ إنّ ذلك معناه أن يعيش المسلمون في مجتمع، وأن يعيشوا في مجتمع منظم مضبوط، مصلّون يصلون في المسجد متراصي الصّفوف وراء إمامة راشدة، والإمامة في الإسلام ليس فيها انفصام بين إمامة الصلاة وإمامة الحياة، الحجة التي رشحت خلافة أبي بكر ﷺ للخلافة، والحجّة الكبيرة أو أعتقد أنها الحجة الكبرى هي تكليف رسول الله ﷺ للصديق ﷺ في مرض وفاته الذي رفعه الله إلى الملأ الأعلى بعد هذا المرض، عندما عجز رسول الله ﷺ عن أن يؤم المسلمين، قال: «مروا أبا بكر فليصل بالناس»[1].

(1) متفق عليه، أخرجه البخاري ومسلم.

ورغم إلحاح أم المؤمنين عائشة ﵂ على أن يكلف عمر بذلك؛ لأن أبا بكر رجل بكاء أو رجل رقيق القلب، أصر رسول الله ﷺ على أمره فقال: «مروا أبا بكر فليصل بالناس».

فالإمامة في الإسلام لا انفصام فيها بين إمامة الصلاة وإمامة الحياة، فالصلاحية للصلاة هي الصلاحية للحياة ولا عكس في ذلك، فالإنسان المسلم يتعلم كيف يعيش في نظام جماعي، ويتعلّم أفضل نظام للحكم أيضا في الصلاة وحدها لو أديت وأقيمت كما يريد الله بخشوع وإخلاص، فالإمام يمثل القيادة، والإمام قبل أن يشرع في الصلاة يلتفت إلى المأمومين فيقول لهم: «سووا صفوفكم إن الله يكره أن ينظر إلى الصف الأعوج»[1].

والله تعالى جعل سورة ف القرآن الكريم هي سورة الصف، جاء في آيتها الثانية: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ (4)**﴾ [الصف: 4]، والمسلمون في عهد الدولة الإسلامية الواحدة إذا حزبهم أمر نادوا: الصلاة الجامعة، فيأتي الناس إلى المسجد ليلقى إليهم الخبر، فلفظة الجامع نفسها أنها تجمع ولا تفرق.

إنّ كلّ أدواء المسلمين من قديم العهود إلى حديثها إنما نشأت من التفرقة التي أشاعت بين المسلمين الاختلاف والنزاع، ثم جاء الفشل وسقطت هيبة الأمة الإسلامية في العالم، وهذه حقيقة ما ينبغي أن نتجاهلها، جميعا هي كلمة، ولكن مدلولها عظيم، إنّ كلّ عمل إسلامي يجب أن يقام به ويمارس في نطاق المجتمع ومجتمع منظم ومجتمع موحد، ومجتمع ينهج في أسسه

(1) متفق عليه، أخرجه البخاري ومسلم.

الثابتة التي لا تقبل التغيير منهج رسول الله ﷺ: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (137) صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (138)﴾ [البقرة: 138]، صحيح أن هذه الآية نزلت في أهل الكتاب، لكن المسلمين إذا تحولوا إلى ما تحول إليه أهل الكتاب جرت عليهم سنة الله كما جرت على أهل الكتاب كما يقول أمير المؤمنين عمر: "اعلموا أنه ليس لله عند أحد نسب ولا صهر، فسنة الله في الأولين هي سنة الله في الآخرين، ولن تجد لسنة الله تبديلا، ولن تجد لسنة الله تحويلا".

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ هو تأكيد وتثبت لقوله ﴿جَمِيعًا﴾ ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا﴾، ثم جاء قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (103)﴾ [آل عمران: 103]، سبب نزول هذه الآية كما قال المفسرون هو ما كان عليه الوضع في المدينة بين الأوس والخزرج حيان في المدينة المنورة ينسبان إلى أخوين شقيقين، نشأ بينهما نزاع وصراع أدى إلى قتال وحروب متوالية. ففي يوم من الأيام مر يهودي على مجلس فيه الأنصار من الأوس والخزرج يسوده الصفا والوئام والمحبة والسلام فهاله ذلك، فأرسل رجلا آخر إليهم فجلس فيهم وأخذ يذكرهم بالأحقاد الجاهلية والثارات الجاهلية ومنها ما يسمونه بأيام العرب، يوم بعاث، فثارت فيهم الأحقاد ونفخ الشيطان في المجلس فقالوا: لو شئتم لأعدناها، فسمع رسول الله ﷺ وجاء أليهم عاصفا غاضبا وقال: «أبدعوى الجاهلية وأنا بين

أظهركم؟»[1] فتعانقا وتصافحا وعاد إليهم الوئام والسلام، رضي الله تعالى عنهم.

هذا ما ذكر في سبب النزول، لكن العبرة كما يقول العلماء بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، العبرة لأن هذه الآية القرآنية كسائر آيات الله البينات في القرآن الكريم إنما أنزلت لتكون كتاب الله ومعجزته الخالدة في كل زمان و مكان، وهو ينسحب ويمتد على امتداد الزمان والمكان، فكما حول الله مجتمع الجاهلية الذي تسوده الأحقاد والإحن إلى مجتمع الأخوة والتكافل والتضامن والتعاون والمحبة، كانوا أعداء فألف الله بين قلوبهم، وحتى الدقة في التعبير القرآني لم يقل: فألف بينكم قال: فألف بين قلوبكم، لأن كل شيء إذا لم ينبع من القلب فهو إلى الزوال .هذه المظاهر التي تخدع لا يمكن أن يعتمد عليها إلا إذا نبعث من القلب، والقلب كما يقول رسول الله ﷺ: بين أصبعين من أصابع الرحمان يقلبه كما يشاء[2]، يا مقلب القلوب ثبت قلبي على طاعتك، ثبت قلبي على دينك، فالتّأليف بين القلوب هو الذي مكّن هذا المجتمع الذي كان حتى المجتمع الداخلي بين الشقاء، بين الأوس والخزرج اللذين كانت بينهما حروب، حتى أصبحت لحمة الأخوة والمودة والصّفا تسودهم، وأصبحوا أكثر من ذلك يستقبلون إخوانهم المهاجرين من مكة المكرمة بالحب وبالتّسامح، فتقاسموا معهم الأموال، وتقاسموا معهم العروض، وتقاسموا معهم حتى ما لا يقتسم، الشيء الذي أدى إلى أن ينوه الله بهم في آيتين: الآية التاسعة والعاشرة من سورة الحشر: ﴿**وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا**

(1) أخرجه الطبري في جامع البيان.

(2) أخرجه مسلم في الصحيح، وابن ماجة في السنن، وأحمد في المسند.

الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (9)﴾ [الحشر: 9]، هذه هي الآية التاسعة، **﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (10)﴾** [الحشر: 10] الآية العاشرة.

هذا المجتمع لو لم يقع فعلا في التاريخ، لو لم يمر في التاريخ لعد من أحلام الحالمين، من هذا المجتمع انطلق الزّحف، انطلق الفتح، انطلق العمل الإسلام في كلّ مجال، فانبثقت من هذا المجتمع الذي كان في أدنى مستويات الحضارة أمة علمت الدنيا كيف تكون الحضارة ، وكيف تكون العدالة، وكيف يكون المجتمع الأمثل، علمت الدنيا الحضارة المزدهرة التي ما تزال النّفوس الشّريفة الطيبة الإنسانية تتطلع إليها، هذا المجتمع الذي ما يزال في التاريخ البشري مشعلا يضيء الأجيال والعهود، وهو المجتمع المثالي الذي يجب أن نتمسك به.

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا حرير المجامع

طاعة الله إنما تتمثل فقط في الشعائر التّعبدية، إنّ طاعة الله تشمل كل حياة الإنسان. وقد جاء في آيات قاطعة وبصيغة الحصر أن حياة الإنسان كلّها هي الطّاعة، أي رسالة الإنسان في الحياة الدنيا تتمثّل كلها في طاعة الله، وما خلق الإنسان إلاّ لهذا، جاء هذا في سورة الذاريات: **﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (57) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (58)﴾** [الذاريات: 57-58]، وجاء في سورة البينة: **﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ**

مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (5)﴾ [البينة: 5].

فمهمة الإنسان في هذه الحياة هي أن يطيع ربه وأن يطبّق شريعته، وأن يعمل بمنهجه والإنسان في الحياة الدنيا سفير، وسفارته تتمثّل في أن يقوم بواجبات الخلافة عن ربه، فهو ليس إلاها في الأرض ولكنه خليفة لربه في الأرض.

هذه قضية السّفارة نفسها نستطيع أن نلتمسها في آية بينة من سورة البقرة: ﴿**قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38)**﴾ [البقرة: 38].

وليس للسّفير أن يتصرّف في بلد بعث إليه كما يشتهي هو، بلعليه أن يطبّق التّعليمات التي تصدر إليه من الجهة الباعثة، ووجود الإنسان في الحياة الدنيا إنّما هو وجود مؤقت ليقوم بمهمة، ومهمته هي أن يطبّق التّعاليم التي صدرت إليه من ربّه، فالإنسان إذا عاش عاصيا لربّه وهو متعمد أن يخالف أمر ربه، فإذا خالف عن أمر ربّه، وإذا عاش الناس وهو يخالفون عن أمر ربّهم فهي الفتنة إذن، وهي العذاب الأليم.

أن يذكر فلا ينسى، إن الذكر لا يقتصر على مجرد الأذكار التي تعودنا أن نقوم بها في أورادنا، إنّ هذه الأذكار هي التذكير، إنّنا عندما نذكر أسماء الله الحسنى مثلا فإن هذه الأسماء الحسنى لها دلالات، فالعفو يبعث فينا العفو، والغفور يبعث فينا المغفرة، والرّحيم يوحي إلينا بأن نكون رحماء،

«ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»[1]، وهكذا فإن ذكر الله يجب أن يتحول من اللسان إلى الفعل وإلى التطبيق وفي كل المجالات.

مجالات الحياة – فعلينا أن نذكر الله منفردين، ونذكر الله مجتمعين، ونذكر الله ونحن نمارس أي شغل أو نقوم بأي عمل أو نتعامل مع الناس أو مع أنفسنا أو مع أهلنا أو حتى مع الحيوانات، إنّ علينا أن نذكر الله، وذكر الله هو الذي يسدد خطواتنا ويجعل أعمالنا كلها مرضية في سبيل النجاح.

«وأن يشكر فلا يكفر»، وإنّ الله أنعم علينا بنعم كثيرة، نعمة الخلق، ونعمة الرزق، ونعمة الرسالة، ونعمة الهداية، ونعم كثيرة لا تعد ولا تحصى، وكل أعمالنا وكل ما نقوم به من قربات إنما يندرج في إطار الشكر لله.

أمّا الله ﷻ فلا تنفعه طاعتنا ولا تضره معصيتنا، ﴿**إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (7)**﴾ [الزمر: 7]، بل إنّه كتب على نفسه الرحمة، إنّنا إذا شكرنا الله وحمدناه فإنّه يزيدنا توفيقا ويزيدنا نجاحا ويزيدنا يمنا وبركة ﴿**وَلَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُم إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيد**﴾ [إبراهيم: 7].

ولكي لا ننسى نعم الله علينا جعل الله لنتل سورة هي أم الكتاب لا تصحّ الصّلاة إلاّ بها، ولو صلى الإنسان بالقرآن كلّه ولم يصل بالفاتحة فل يصل، هذه السورة تستهل بالحمد والشكر لله رب العالمين حتى لا ننسى نعم الله علينا.

(1) أخرجه الترمذي في السنن، والبيهقي في السنن الكبرى.

«وأن يشكر فلا يكفر»، الكفر كفران: كفر بما أنزل الله وبالعقائد التي يصح بها إيمان الإنسان، وكفر بأنعم الله، كفر بالله هو أعظم جريمة في هذه الأرض ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (6) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (7) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ (8) كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ (9) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (10) كِرَامًا كَاتِبِينَ (11) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (12) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (13) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (14) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ (15) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (16) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (17) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (18) يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (19)﴾ [الانفطار: 6-19].

وهناك كفر بأنعم الله، أنعم الله التي أنعم بها علينا لا تدوم هذه النعمة إلاّ إذا قمنا بأمر الله طاعة لأمره و تنفيذا واجتنابا لنهيه وابتعادا، والتزاما بنهجه وعدم انحراف، فإنّ الله تعالى إذا علم منّا هذا الصّدق وهذا الوفاء يزيدنا من بركاته، وقد وعد هذه الأمّة المسامة أنّها إذا وفت لربها وبعهده، والتزمت بكتابه وسنته نبيه فإنّ خيره وفضله ونصره وتوفيقه يدوم عليها، وقفت مع هذا الحديث الشريف في معانيه هذه الثلاث، أن يطاع فلا يعصى ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر.

ثم قال ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (102)﴾ [آل عمران: 102]، فهو نهي وتحذير من أن يموت الإنسان على غير الإسلام، وهذه أعظم وصيّة وأكرمها، وأغلاها وأثمنها، نوه الله بنبيين أنبيائه أوصيا بها بنبيها: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (132)﴾

[البقرة: 132]، ولكن السّؤال كيف يستطيع الإنسان أن يضمن أنه يموت على الإسلام مع أن الموت أمر غيبي لا ندري متى يجيء ولا كيف يجيء، ولا أين يجيء؟ إنه أمر مغيب، كيف نضمن أن نموت على الإسلام؟ المنطقي هنا هو أننا يجب أن نلتزم بهذا الإسلام منذ اللّحظة الأولى: منذ اللحظة التي يصلنا فيه البلاغ الإلهي، فعلينا أن نعيش الإسلام في كل لحظة حتى نلقى الله على هذا الإسلام في آخر لحظة، هذا كما يقول شيخنا عبد الحميد بن باديس –رحمه الله–: إنّنا عندما نتناول القرآن الكريم فعلينا أن نلتمس فيه حظين: حظ العلم وحظ العمل، أمّا حظ العلم فهو فهمه بقدر ما ييسّر الله لنا، وأمّا حظ العمل أن نحاول تحويل هذا المعنى إلى الواقع المعيش، فنحن نعلم أن الذين يومنون بأي مبدأ من المبادئ، والذين يومنون بأيّ سياسة من السياسات، أوبأي عقيدة من العقائد يومنون بها إيمانا راسخا، فهم يتمسكون بها ويستمرون عليها، والاستمرار هو الذي يضمن النّجاح، وأن لا يكون موقف الإنسان إيمان يوم وكفر يوم، فعليه أن يثبت. ﴿**يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ (27)**﴾ [إبراهيم: 27].

الثّبات على الإسلام في كلّ اللّحظات: في الشدّة والرّخاء، في اليسر والعسر، في الضّائقة والسّعة، في الفقر والغنى في جميع الظّروف، إذا علم الله في الإنسان صدقا وعلم فيه صفاء وعلم فيه وفاء فإنه يثبته بالقول الثابت في الحياة الدنيا إن شاء الله.

بعد ذلك قبل أن أغادر هذا الجزء من القطاع العام في هذه الآيات أقول: إنّ هذه هي الرّكيزة الأولى من ركائز المجتمع الإسلامي، والإسلام يهتم أساسا بالدّاخل، يهتم بالنّفس، ولا يهتم كثيرا بالمظاهر التي تأتي بها يوم

ويذهب بها يوم آخر، كما قال كاتب الإسلام الخالد، الأستاذ مصطفى صادق الرافعي -رحمه الله تعالى-: إنّ الإسلام يهتمّ بداخل النّفس البشرية وبعمقها:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10)﴾ [الشمس: 7-10] الرّكيزة النّفسية الأولى التي ينبع منها بناء هذا المجتمع المسلم، كما يريده الله هي الإيمان والتقوى؛ ولكي لا يكون مجرد كلام طائر في الهوى ليس له وصفة محددة، وليسله وثيقة تبيّن معالمه، وليس له مرجع يحدد خطوات الطّريق جاءت الآية الثّانية لتأكيد مضمون الآية الأولى، ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (103)﴾ [آل عمران: 103] يخصّ بالآخرة، فالآية لن تفصل أن يكون هذا العذاب العظيم، ولكن إذا نظرنا إلى ما أتى بعد ذلك من توضيح علمنا بأن هذا العذاب العظيم ينتظرهم يوم القيامة؛ لأنه خص فقال: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (106)﴾ [آل عمران: 106]، يوم تبيض وجوه من البشر ومن البشاشة، ومن السعادة بنعيم الله، الذي يتلقى به الذين رضي الله عنهم وأرضاهم، والذين تمسكوا بنهجه واعتصموا بحبله، وتجنبوا الفرقة، وقاموا على كتابه وسنة نبيه، فهؤلاء تطفح وجوههم بالبشر وتفيض نورا لما يلقونه من الكرامة.

وتسود وجوه الذين تفرقوا واختلفوا وحادوا عن أمر الله، واتبعوا الشهوات وزاغوا عن الحق وابتغوها عوجا، واستمعوا إلى الشياطين وأعرضوا عن ذكر الله بعد أن جاءهم ذكر الله: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (125) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (126)**﴾ [طه: 124-126]، ﴿**يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (106)**﴾ [آل عمران: 106] لماذا؟ لا يكتفي بتعذيبهم بأن يشعروا ، بأن يعذبوا ويجدوا أنفسهم في وضع من العذاب الأليم الذي يبعث فيهم الحسرة والكمد؟بل يضاف إلى هذا العذاب تبكيتهم وتقريعهم، فيقال لهم: ﴿**أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (106) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (107)**﴾ [آل عمران: 107].

ودائما إنّ القرآن الكريم يذكرنا في جميع المناسبات بصدق الرسالة، وأن هذا الذي نتلقاه في هذه الآيات وأن هذا الذي نستمع إليه من رسوله الكرم ﷺ هو وحي الله الصادق الأمين، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.. ﴿**تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ (108)**﴾ [آل عمران: 108].

وختاما، الملك لله، له الملك وله الحمد، وله الكبرياء في السّماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (8)رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (9)﴾ [آل عمران: 9]، ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (250)﴾ [البقرة: 250].

تدخل الشيخ شرفاء في إطار مناقشة درس

الأستاذ جبران المسفيوري

رئيس المجلس العلمي لإقليم مراكش

في موضوع:

اللسان عنوان عقل الإنسان

رمضان 1410هـ

***تدخل فضيلة الأستاذ محمد الأكحل شرفاء من علماء الجزائر**

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله وسلم على رسوله الأمين وآله وصحبه، ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين.

سيادة الرئيس، صاحبي الفضيلة، أيّها الشيوخ الأجلاء.

تحية من عند الله مباركة طيبة، إنّني ليس عندي ما أضيفه إل ما قاله الإخوة في تقريظ شيخنا هذا، العلامة الجليل، بقية السّلف الصّالح، الشيخ عبد السّلام جبران؛ لأنّ الإجماع انعقد على التّرحيب والثناء والاعتراف بالجميل لهذا العمل الجليل، الذي قدّمه لنا، والذي أعاد إلى أيام الحلقات الكبرى، هذه التي نفتقدها الآن في الوطن الإسلامي، ونرجو الله سبحانه وتعالى أن يعيد فينا تلك الأيام، فيما نستقبل من الأيام.

غير أن هذا الدرس ألهمنا، وكتاب الله وسنة رسوله ﷺ مصدر زاخر للهدى وللعلم لا ينقطع ولا ينفد؛ لأنه يعود أساسا إلى الله: ﴿**مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (96)**﴾ [النحل: 96]، ألهمني أن الهجرة قبل أن تكون هجرة جسدية فردية أو جماعية فهي هجرة نفسية؛ لأنّ الإسلام ينطلق في بناء الإنسان، وفي بناء خير أمّة، أرادها الله أن تكون للناس جميعا، إنّما يبدأ بالنفس البشرية ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (14) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (15)**﴾ [الأعلى: 14-15]، ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10)**﴾ [الشمس: 7-10].

عملية التّغيير، أثبت القرآن أنها تصدر من الإنسان نفسه، فهو الذي يغير ما بنفسه، ولا أقول يغير نفسه ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ** (11)﴾ [الرعد: 11]، تبدأ من تغيير الإنسان ما بنفسه من أن يهجر ما يتصادم وما يتعارض وما يتناقض مع منهج الله، وذلك ما فعله رسول الله، والجماعة المسلمة الأولى في مدة ثلاث عشرة عاما في مكة.

إنّ القرآن المكي كان ينزل في تلك الفترة إنما يستهدف تغيير ما بالأنفس من الجاهلية إلى الإسلام، وحتى تلك النزعة الجاهلية التي كانت معروفة عند العرب نزعة الثأر والانتقام:

ألا لا يجهلن أحد علينا *** فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ملأنا البر حتى ضاق عنا*** ومتن البحر نملؤه سفينا

إذا بلغ الفطام لنا صبي***تخر له الجبابر ساجدينا

من قتل منا واحدا قتلنا العشرة وقتلنا المئات والألوف ولا نشبع.

جاء في كتاب الله سبحانه وتعالى الأمر إلى المسلمين بأن يكفوا أيديهم بأن يتلقوا الضربات من الطاغوت الجاهلي، ضربات موجهة قد تصل إلى القتل والسجن والتعذيب والتّجويع والتّشريد، وما إلى ذلك، ولكنهم يمسكون أيديهم، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى رسوله المصطفى ﷺبعد الهجرة بهذا:

﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ**

خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (77)﴾ [النساء: 77]، هذه الهجرة النّفسية هجرة كلّ ما هو فاسد، كل ما هو جاهلي إلى كل ما هو صلاح، إلى كل ما هو دين الله الحق هذه واحدة.

ثانيا: إنّ الهجرة كثيرا ما تكون تحولا كبيرا من وضع يجد فيه المؤمنون أنفسهم مخنوقين، مسحوقين، لا يستطيعون أن يتنفسوا ولا يمارسوا ولا أن يقوموا بالدعوة، في هذا الوضع بعد أن يصبح للمسلمين دار إسلام، ونظام إسلام، وحكم إسلام، فإنّ الله سبحانه وتعالى أمرهم بأن يهاجروا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (97) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (98) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (99)﴾ [النساء: 97-99].

فالكثير من الجاليات الإسلامية التي تجد نفسها الآن في وضع لا يمكنها من أن تعيش إسلامها، لابدّ أن تكون للمسلين قاعدة يلجؤون إليها، وحصنا يتحصّنون به، وقد سبقني الأستاذ الأخ تميمي عندما ذكر الهجرة الظلمة بالنسبة للذي له وطن يمارس فيه العمل الإسلامي، وتقام ويساعد ويعزز ويدعم الصف المسلم ويتعاون، أما الذي يوجد في حالة اختناق وفي حالة تضييق، وفي حالة اضطهاد وظلم وتعسف ومنع ومصادرة، ويسمح لنفسه بأن يعيش مظلوما محروما مهموما مغموما مضطهدا معذبا ذليلا، يعيش بدعوته بدينه بإسلامه بعقيدته بشرع الله، فهذا نجد القرآن الكريم يقرر

وضعه: إلاّ أن يكون من المستضعفين الذين استثناهم الله سبحانه وتعالى، فأوّل ما يجب أن نهتم به في مجتمعاتنا هو أن نربّي النّفس المسلمة، والعزيمة المسلمة، والإرادة المسلمة، بلوغا إلى تكوين الأمة المسلمة الواحدة، التي أمر الله أن تقوم بقوله تعالى: ﴿**إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (92)**﴾ [الأنبياء: 92].

أمّا الّلسان فهو الأداة الموصلة لكل شيء، موصلة للعقيدة، للفكر، للأدب، للمعرفة، فهو الأداة متى كانت قويمة ومتى كانت سليمة استطاعت أن تبلغ الفكر القويم والمنهج السليم.

أما إذا انحرفت أو اعوجت أو أعوزها البيان فإنها لا تستطيع أن تقوم بمهمة الدعوة للقرآن الكريم ﴿**خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4)**﴾ [الرحمن: 3-4]، واللغة العربية نفسها الأداة التي أرادها الله بلاغا لرسالته سماها اللسان ﴿ **نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (194)**﴾ [الشعراء: 193-194]. رسول الله ﷺ تحدث عن اللسان ببيانه النبوي عندما بلغه أن رجلا عربيا تغنى بجاهليته، أو ببقايا جاهليته، وقد سمعت إلى المجاهد كما سمعنا إلى المجاهد الكبير رجل الجهاد في أفغانستان، الأستاذ نعمة الله، عندما قال: إن هذا الدين جمع الناس على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وأقاليمهم وأقطارهم، نعم هذا الدين جاء من أجل هذا، وهذه الرسالة جاءت من أجل هذا، وقد جمع الله أقطار الأرض كلها في المجتمع الإسلامي الأول، فكلن مع رسول الله سلمان الفارسي، وبلال الحبشي، وأبو بكر القرشي، وصهيب الرومي، فكأن أقطار الأرض كلها اجتمعت وجعلها

رسول الله صلى الله عليه وسلم عربية عندما قال: ليست العروبة بأحدكم من أم وأب، فكل من تكلم العربية فهو عربي، وفي رواية:

وإنها هي اللسان فمن تكلم العربية فهو عربي، هذا اللسان هو اللغة هو الأداة، هو وسيلة البيان، وهو يجمعنا جميعا، فاللغة العريبة، لغة العرب وحدهم، وإنما هي اللغة الإسلامية، التي لا يفهم كتاب الإسلام إلا بها، ومن هنا فهي لغتنا جميعا، العربية هي لغة الأمة الإسلامية، التي حملت الوحي إلى رسول الله صلى الله عيه وسلم، وأي لسان ينقل إليه القرآن الكريم، لا يستطيع أن يبلغ مدلولاته ومعانيه، وهدايته إلى الناس، هذا إعجاز، والإعجاز لا يتم إلا إذا أدي بلغة الإعجاز، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

تدخل الشيخ شرفاء في إطار مناقشة

درس الأستاذ ابراهيم محمود جوب

في موضوع:

القرآن الكريم معجزة المعجزات

رمضان 1415هـ

***تدخل فضيلة الأستاذ محمد الأكحل شرفاء، من علماء الجزائر**

بسم الله الرحمن الرحيم ، نحمد الله عز وجل، حمدا طيبا مباركا، وصلى الله عليه وسلم على رسول الله، سيدنا محمد بن عبد الله وآله، ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين، وسلم تسليما .

الذي أبدأ به، أريد أن أعرفكم باسمي الكامل، لأن جزءا هاما من اسمي أعتز به وهو: محمد، كثيرا ما يحذف فاسمي الكامل هو محمد الأكحل شرفاء، بعد هذا أقول إن الدرس الذي استمعنا إليه من طرف الأستاذ إبراهيم محمود جوب قد أثار في نفسي خواطر عديدة، أهمها: علاقة الأمة الإسلامية بقرآنها.هذا الذي يجب أن يقفز إلى أذهاننا جميعا؛ لأن هذه الأمة ما عزت، وما انتصرت، وما قامت، وما فازت إلا بالقرآن، وإن كلمة شيخنا رئيس جمعية العلماء المسلمين الشيخ محمد الكشاني الإبراهيمي ما تزال دويها في أذني حين رفع صوته قائلا: يا أمة القرآن، لستم على شيء حتى تقيموا القرآن. إن أمة قامت بالكتاب، وجاهدت بالكتاب، ثم تراجعت عن خطها القيادي حين أهملت تعاليم الكتاب، إن أمرا كهذا يجب أن يدرس ويجب أن يناقش، ويجب أن نعرف موقعنا نحن المسلمين الآن من هذا الكتاب.هذا الكتاب الذي أخبر من أنزله الله عليه بأنه: «فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم، لا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه»[1]. أذكر للشيخ محمد عبده رحمه الله كلمة قالها: إنني درست القرآن مدى حياتي، وفي كل مرة أتلوه يتجلى لي من معانيه، ما يلم يتجل في التلاوة السابقة.

(1) أخرجه الترمذي، والدارمي في السنن، وأحمد في المسند.

إننا أيها الإخوة مسؤولون أمام هذا الكتاب، وفي سورة الزخرف جاء قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (44)﴾ [الزخرف: 44]، إن القرآن مسؤولية، وإن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم، كانوا لا يحبون أن يحفظوا كثيرا من القرآن، لماذا؟ لأن كل آية في القرآن مسؤولية.وإن الإنسان المسلم إذا حفظ عشر آيات، فإن عليه عشر مسؤوليات يجب أن ينهض بها، فهل نحن في هذا المستوى؟

إنا قلنا: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (9)﴾ [الإسراء: 9]. فإذا كانت هناك مناهج أو نظم أو تشريعات في الأرض تحمل خيرا للبشرية أو عدالة اجتماعية، أو حقوقا للإنسان. وهذا ما لا يمكن أن ننكره؛ لأن الإنسان خلقه الله، من عنصرين: قبضة من طين، ونفخة روحية.فلا يخلو أي مجتمع من خير، ولا تخلو أي خطبة من خير، ولا تخلو نية الإنسان من الخير للإنسان، غير أن القرآن جاء بما هو أفضل، وجاء بما هو أكمل. فإذا كان في أي تشريع خير، فإن في القرآن خيرا منه، وإذا كان في أي تشريع كمال، ففي القرآن أكمل منه.

إن القرآن جاء ليعطينا الخطة المثلى، والمنهج المثل الأكمل، الذي يغنينا عن جميع المناهج. أذكر لمسؤول عربي قوله عندما قيل له: إن الاشتراكية – قد انتفشت هذه الإيديولوجية في أقذار شاسعة من الأرض الإسلامية، وكادت أن تصبح للجيل دينا جديدا يحل محل دين.

تمضي تنشئة الإنسان من القراءة إلى التربية، إلى تحريك العقل، ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ [العلق: 2] إلى اقتحام ميادين العلوم بالتعلم

بالقلم.ومعجزة المعجزات هذا الرجل الذي تنزل عليه هذا الكلام، لم يكن يقرأ ولم يكن يكتب، ولم يكن مجتمعه الذي نشأ فيه مجتمعا مثقفا. ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ**﴾ [الجمعة: 2]، وللتربويين أن يقولوا:

ربما محمد ﷺ وجد من يعلمه، نشأ في محيط علمي تأثر بالبيئة. فأثبت نص القرآن أنه أمي يعلمهم الكتاب والحكمة ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ**﴾ [الجمعة: 2]،

أمي أصبح يتلو، ماذا يتلو، ليس رسالة، أو مقالة، أو خبرا؛ وإنما يتلو آيات الله. أمي يعلم، من علم؟ لم يعلم الأطفال في المدارس الابتدائية؛ وإنما علم العلماء، وآتى الحكمة للحكماء، وأخرج للدنيا رجالا عظماء.

هذا المنهج تنزلت فيه الآيات الأولى ابتداء من القراءة، وانتهاء باقتحام العلوم على اتساعها، بدليل كلمة"ما" التي قال اللغويون إنها تدل على العموم، عموم كل ما يدخل في باب: علم.

إذن الشكر للأستاذ المحاضر عندما ذكرنا بهذا، والتذكير بما تم بهذا القرآن الكريم، حيث أصبح رجل كعمر بن الخطاب أمير المومنين – رضي الله عنه– رجلا يخشاه كسرى، ويخشاه قيصر، رجلا رآه الناس يوما وقد احتزم حزمة حطب على ما يفعله الحطابون، ومضى في شارع من شوارع المدينة، فقالوا: كيف تفعل هذا بنفسك يا أمير المومنين؟ قال: افعل افعل هذا؛ لأن نفسي في لحظة من اللحظات حدثتني بأن عمر أصبح ذو بال، ويخاف، وقد كان أبي لا يشبعني كسرة شعير، وكانوا يدعونني عميرا، فأردت أن أذل هذه النفس التي أرادت أن تتطاول.

عمر الذي كتب رسالة تعليمية إلى سعد بن أبي وقاص وهو على رأس جيش القادسية، يقول له: اعلم أنت ومن معك من الأجناد، أن الله ينصرنا بطاعة الله، ويهزم عدونا بمعصيته، فإن استوينا في المعصية كانت الغلبة لأقوانا؛ لأن عددنا ليس كعددهم، وعدتنا ليس كعدتهم، ولا تقولوا: إن عدونا شر منا فلن يسلط علينا، فربما سلط على قوم شر منهم، كما سلط على اليهود و الكفار المجوس، فجاسوا خلال الديار، وكان وعد الله مفعولا.

إنني لا أطيل كثيرا من هذا، وأرجو عفوكم إذا كنت قد تجاوزت ما قدر لي من حصة، ولكن حبي للقرآن، وحبي لكم، وتقديري لكم جعلني أتكلم دون احتياط، وبتوجيه رسول الله ﷺ لنا الذي يجب أن يقتدى به، وما الإسلام إلا اقتداء بالقرآن، واقتداء بنبي الله ورسوله سيدنا محمد الأسوة أو الإسوة الحسنة.

اسمحوا لي أن أقدم جزيل الشكر والتقدير لصاحب الجلالة الملك الحسن الثاني أمير المومنين رعاه الله وحفظه، وأطال عمره في الصالحات من الأعمال، والخالدات من المواقف؛ لأنه أتاح لنا هذه الفرصة العزيزة الثمينة، في بيت نتذاكر القرآن في شهر القرآن.

كما لا يعني إلا أن أقدم الشكر لهذه الخلية العملية الصالحة، التي تتناول عسلا وتنتج عسلا؛ وأعني بها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، وعلى رأسها السيد الوزير، النشيط القدير الأستاذ المدغري، وكافة الإخوة الذين يتعاملون معه، ونشطون معه، وكلهم عندما يحين شهر رمضان يصبحون قوى متحركة، يشدون مئزرهم؛ اقتداء برسول الله، لاستقبال هذه

الوفود، وفود القرآن في شهر القرآن، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين.

تدخل الشيخ شرفاء في إطار مناقشة درس

الأستاذ عبد الله رفيدة

في موضوع:

"تيسير القرآن صورة من إعجازه ومنهج لغوي لأتباعه"

رمضان 1415هـ

***تدخل فضيلة الأستاذ محمد الأكحل شرفاء، من علماء الجزائر**

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه.

وبعد، جال بنا صاحب الفضيلة الشيخ إبراهيم عبد الله رفيدة جولة طيبة في رياض القرآن الكريم،

شكر الله له ما أفاد به من مسائل العلم، وإن كان فلا بد أن أقول شيئا، ولم أكن أنوي أن أتحدث، ولكن إشارة من أخي الكريم من مساعدي السيد الوزير، جعلتني ألبي طلبه.

هناك قضية الإعجاز، هذه قضية تناولها كبار العلماء في القديم وفي الحديث، وهي تعالج أن هذا الكلام الذي جاء في كتاب الله معجز، إذا حاول أي من البشر مهما كان مستواه أن يرقى إلى معارضة في هذا الكلام، لكنه لا يستطيع، وقد تحدى القرآن العرب الفصحاء بأن يأتوا بمثل هذا القرآن في عشر سور فعجزوا، وتحداهم بسورة فعجزوا، وتحداهم بآية فعجزوا، فقرر الله هذا الإعجاز إلى يوم القيامة: ﴿**قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (88)**﴾ [الإسراء: 88].

والإعجاز نراه في نسق التركيب، ونراه في معانيه ومدلولاته، ونراه في تشريعاته وتوجيهاته، فمن حيث اللفظ ألفت نظر حضراتكم إلى فواتح

السور من الكتاب المجيد، الفواتح التي جاءت بالحروف المقطعة مثل: ألم، الر، كهيعص، ص إلى آخره ...طس. طسم.

إننا نلاحظ بعد هذه الفواتح الإشارة إلى الكتاب ﴿**ألم ذلك الكتاب**﴾ .﴿**طس تلك آيات الكتاب**﴾ إلى آخره.

وكأنه يقول للعرب الذين كان القرآن معجزة لغوية لهم: انظروا إنه هذا الكلام كلامكم مركب من حروف منسق بالكلمات التي تنطقون بها، غير أنكم إذا حاولتم أن تنظموا مثله، فإنكم عاجزون وعاجزون أبدا.

عتاة الجاهلية الذين وقفوا صخرة عاتية في وجه الدعة الإسلامية كانوا يذهبون ليلا إلى خارج بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فينصتون ويتسمعون إلى رسول الله وهو يتلو كتاب الله، ويسترها بعضهم على بعض، حتى إذا أدرك بعضهم بعضا قال له استرها علي ولا تقل للناس: ﴿ **وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (51)** ﴾ [القلم: 51]. ﴿**فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ (33)**﴾ [الأنعام: 33].

ومن ناحية العلم، فإن القرآن قد سبق في الأبحاث العلمية، مع الأسف، إن الكثير من الذين تناولوا تفسير القرآن يحاولون أن يلبسوا عباءة المحامين ليدافعوا عن الإسلام، وكأنه متهم. والواقع أن النظريات العلمية

ليست لها نهايات محددة.إن القرآن قد جاء بالأشياء الكلية النظرية التي لا تتبدل.فإن العلم اليوم أصبحيلهث وراء ما ارتقى إليه هذا التنزيل، مصداقا لقوله صلى الله عليه وسلم: «لا تنقضي عجائبه».

إننا عندما ننظر إلى الوقاع العملي الذي أحدثه القرآن في العالم، فقد نقل قوما من جاهليتهم وبداوتهم، وعشائريتهم وقبليتهم، وتقاليد عبر عنها شاعرهم: عمرو بن كلثوم الثغلبي عندما قال:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق الجهل الجاهلينا

ملأنا البر حتى ضاق علينا ومثل البحر نملأه سفينا

إذا بلغ الفطام منا صبي تخر له الجبابر ساجدينا

هؤلاء حولهم الإسلام في الفترة التي كان يبني فيه العقل الإسلامي والفكر الإسلامي، والرجل المسلم إلى مسالمين متسامحين، يضربون ولا يضربون، يقتلون ولا يقتلون؛ لأن الله لم يأذن لهم في الوقت الذي قال:

ألا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

إن الإسلام قد حولهم، بماذا حولهم؟ بالقرآن إلى قوم منضبطين، عقديين مؤمنين، ملتزمين ربانيين، متمسكين بهذا الكتاب المعجز، ثلاثة عشر عاما والمسلمون يضطهدون، ولكنهم ساكتون، ولكنهم صامدون، ولكنهم لا يردون؛ لأن الله قال لهم: ﴿**كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ (77)**﴾ [النساء: 77].

فقد ذكر بذلك القرآن عندما انتقلت الدعوة الإسلامية إلى دار الهجرة، فذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ** ﴾

–يوم كانوا بمكة ﴿ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ ﴾.هذه معجزة القرآن، ولا أطيل عليكم كثيرا فالقرآن معجز بلغته، ببيانه بعلمه بتشريعه بآدابه بتوجيهاته. القرآن هو الذي كون دولة الإسلام، وجيش الإسلام، وأمة الإسلام، ومجتمع الإسلام.وحضارة الإنسان في كل زمان، وفي كل مكان، وإنه لا سلام ولا أمن ولا طمأنينة، ولا عدالة ولا إنسانية، ولا حقوق الإنسان إلا بالرجوع إلى القرآن وهو معجزة المعجزات.

وممن كتبوا في إعجاز القرآن من العلماء الأقدمين: أبو بكر الباقلاني وعبد القاهر الجرجاني، وفي عصرنا الحاضر: الأستاذ مصطفى صادق الرافعي –رحمه الله– الذي ألف كتاب إعجاز القرآن، والبلاغة النبوية.

وقد كان هذا الكتاب جزءا من كتابه الزاخر: «تاريخ الأدب العربي»، ثم فصله إلى كتاب مستقل، وفي هذا الكتاب كتب إليه سعد زغلول الزعيم المصري المعروف قائلا: "بيان كأنه تنزيل من التزيل، أوقبس من نور الذكر الحكيم".

وكتب إليه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده يقول: "أرجو الله أن يجعل من قلمك سيفا يمحق الباطل، وأن يقيمك في الأواخر مقام حسان في الأوائل".

وفي عصرنا، ولا بد أن نذكر الناس بأفضالهم، شيخنا الإمام عبد الحميد بن باديس الرئيس الأول لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، فسر القرآن الكريم على منهج السلف، وبين مقاصده وإعجازه في ثمانية وعشرين عاما.

وإنكم لتجدون في كلمات أو في مقالات افتتاحية مجلة الشهاب تفسيرا نموذجيا لتفسير الشيخ عبد الحميد بن باديس بعنوان: مجالس التذكير، من كلام الحكيم الخبير، وحديث: البشير النذير ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (55)﴾ [الذاريات: 55].

أود إذا أمكنكم أن تراجعوا هذا السفر، فقد أخرج وطبع بعنوان: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، في افتتاحيات مجلة الشهاب والتفسير. وأخرج كتاب آخر: مجالس التذكير من حديث البشير النذير، في شرحه لأحاديث نبوية شريفة، والله يتولانا جميعا بالتوفيق ويرعانا جميعا، ويفقنا لما يحبه ويرضاه، والسلام عليكم ورحمة الله.

تدخل الشيخ شرفاء في إطار مناقشة درس

الأستاذ الشيخ محمد رشيد قباني

في موضوع:

القيم والأخلاق في الإسلام وأثرها

في تحقيق المستوى الحضاري للإنسان

رمضان 1415هـ

***تدخل فضيلة الأستاذ محمد الأكحل شرفاء، من علماء الجزائر**

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على أشرف نبي مرسل بأكمل رسالة وأتمها.

جال بنا فضيلة المفتي جولة موفقة، في رياض القرآن الكريم، وتنقل بنا عبر زهراته العاطرة، له الشكر والتقدير.

وإذا كان أي عمل بشري غير معصوم من الخطأ ومن النسيان، أو من الغفلة، وتلك طبيعة البشر، فإن لنا أن نجد في هذا الدرس ما نستطيع أن نعقب عليه.

أولا منهجية الدروس في حد ذاتها، ينبغي أن تعتمد الخطوات الآتية، أن تضع المستمعين للدرس في جو الدرس، وفي جو الموضوع، بمقدمة تجتذب إليه، وتشدهم إلى موضوعه.

ثانيا إذا كن الدرس آية كريمة، أو حديثا شريفا، فإن علينا أن نتناول أولا مدلوله اللغوي، وصولا إلى مدلوله المعنوي، ثم يأتي بأمثلة إلى الموضوع المركزي، أي الآية الكريمة التي اعتمدنها، أو الحديث المركزي الذي اعتمدناه.

إن الموضوع محوري، موضوع الأخلاق في الإسلام، ليس موضوعا هامشيا أو فرعيا، وغنما هو موضوع جوهري ورئيسي، وخاصة ما ورد في الحديث من البعث، «بعثت»إن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يتصرف من عندية نفسه؛ وإنما يتصرف من وحي الرسالة، إن أخلاق رسول الله ﷺ كانت أخلاقا متميزة عظيمة قبل البعثة، تشهد بذلك سيرته قبل البعثة، ولكن ذلك

كله كان إعدادا إلهيا لرجل اختاره الله ليحمل كلمته الأخيرة إلى العالمين، «أدبني ربي فأحسن تأديبي»[1].

مفهوم بعثت، قبل أن يتحدث عن الأخلاق-إن ما تم كله إنما هو من الله، وبإرادته ومشيئته –فهو قبل أن نتحدث عن شخصيته، فإن علينا أن نتحدث عن رسالته، وهذا ما يؤكده لنا الذي يرفع الآذان على أسماعنا خمس مرات بين اليوم والليلة، عندما يعلن: واشهد أن محمدا رسول الله.

إن الكثير من الدارسين الكثيرين الباحثين من الإفرنج خاصة، ومن العالم المعاصر بصفة أخص، حينما يتناولون رسول الله صلى عليه وسلم، فإنما يقدمونه كرجل دولة، أوكحكيم، أو كعبقري، أو كشخصية ممتازة، مبتعدين في ذلك عن الجوهر، فالمؤذن لا يقول محمد قائد الأمة، أو زعيمها، أو عظيمها، وإنما يقول رسول الله، وكل الإنجازات التي تمت في عهده، أو في عهد الراشدين ومن تبعهم من القرون الثلاثة، ما كانت لتتم لولا هذه الرسالة، وما كان عمر بن الخطاب ليكون عمر بن الخطاب لولا الرسالة، ولولا البعثة ، وما كان علي بن أبي طالب يكون عليا لولا الرسالة، وما كان أبو بكر ليكون أبا بكر لولا الرسالة.

علينا أن نركز على قيمة هذه الرسالة التي مسؤول بها محمد ﷺ وبدأ بقوله «بعثت» لنعلم أن كل هذه الأخلاق إنما كانت نتيجة الوحي ﴿**وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (113)**﴾ [النساء: 113].

(1) أورده أبو عبد الرحمن السليمي في آداب الصحبة.

التمام فكما أنما كانت أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم التي جاء بها إنما كانت لتتم البناء، بدأ بنيانه من عهود ومن عصور، ككتاب بدأت أجزاؤه تؤلف جزءا من بعد جزء، إلى أن جاء الجزء المتمم، المكمل الذي حمل إلى الدنيا رسالة الله الكاملة والشاملة، ولا يرضى الله لعباده شرعا، أو نهجا، أو سيكلوجية غير هذا، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا**﴾ [المائدة: 3].

نقطة أخرى، إذا كان السيد الرئيس يسمح لي فأنا أتجاوز الذين يناهضون الفكر الإسلامي الذين تأثروا بالفكر الإفرنجي ، ولا أقول كما نصحنا أحد المحاضرين الذي سبقوا أعداء الإسلام لأقول: المناهضون، والمعارضون، والمنتقدون للتوجه الإسلامي، إنكم تملكون مجموعة من التوجيهات الخلقية، هكذا يكتبون مجموعة من التوجيهات الخلقية الصالحة في عمومها، ولكنكم لا تملكون منهجا مخططا عمليا إن المسلمين يملكون أن يتحدثوا عن الأخلاق، وعن الطيب والخبيث، وعن الحلال والحرام، وعن الصالح والطالح، وعن النافع والضار، وعن الهدى والضلال، بمجموعة من النصوص العامة، ولكنهم لا يملكون منهجا عمليا للمواجهة، بل للمقابلة إن صح التعبير ، لا أقول المواجهة لأنها حادة، فهذا يرد عليه هذا الحديث، إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق، فالذي جاء في الإسلام من عقيدة، من شريعة، من آداب، من سلوكيات، من توجيهات، كان تاما بشهادة الله تعالى: «أتممت» وكان كاملا بشهادة الله تعالى« أكملت» والحديث يندرج في هذا الإطار.

لدى كثير مما أحب أن أقول، ولكن لا أثقل عليكم، ولكن أريد أن أرد على هذا بأن المنهج التربوي الذي اعتمده الإسلام، وقد سبقهم بخمسة عشر قرنا من الزمن، فالمنهج التربوي يعتمد أساسا على إعطاء المسائل النظرية للطالب، والمبادئ الأساسية نظريا، ومثل ذلك في كل مجال، في الطب، في الهندسة، في أي فن، وفي أي فرع من فروع العلم.

المنهج يعتمد على النظريات أولا، ثم إن هذه النظريات لا تثبت فعاليتها إلا إذا تحولت إلى تطبيق، ذلك ما تم في الإسلام في الفترة المكية التي دامت ثلاثة عشرة عاما، فكانت فترة غرس المبادئ والقيم، ثم جاءت مرحلة التطبيق العملي عندما كانت الهجرة، فنشأت الدولة، ونشأ المجتمع، ونشأ نظام عملي، وحتى القرآن نفسه الذي كان ينزل بمكة كان قرآنا عقديا، أما القرآن المدني فهو قرآن تشريعي، وددت لو أن فضيلة المحاضر ذكر بنا من أخلاق الرسول ﷺ حتى ينقلنا من النظر إلى العمل، فالرسول ﷺ كان أبا كيف تصرف مع أبنائه؟ كان زوجا كيف تعامل مع زوجاته؟ كان قاضيا، كيف قضى؟ كان حاكما، كيف حكم؟

كان قائدا، كيف قاد؟ كان داعية، كيف دعا؟ كان بصفة عامة إنسانا ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4)**﴾ [القلم: 4].

﴿ **رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً**﴾ [آل عمران: 8].

وسلام الله عليكم ورحمة الله وبركاته، والحمد لله رب العالمين.

تدخل الشيخ شرفاء في إطار مناقشة درس

الأستاذ محمد بن عبد الله المهدي البدري،

في موضوع:

كيف ندعو إلى الإسلام

رمضان 1415هـ

*** تدخل فضيلة الأستاذ محمد الأكحل شرفاء، من علماء الجزائر**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن ولاه.

سيدي الرئيس، السيدين العضوين الكريمين، المشايخ الأجلاء، تحية من عند الله مباركة طيبة.

من خلال الدرس الذي استمعنا إليه يوم أمس، ليست لدي ملاحظات كثيرة، ولكن بعضها سبقني إليها المشايخ الذين تحدثوا قبلي، ولكن آخذ الكلمة ليس للكلام فقط، وإنما أن يكون هذا الكلام مجديا، فإذا لم نجد الجدوى فلا داعي للتكرار.

أولا: ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ [النحل: 125]، وآداب الدعوة ورجالها وكيفيتها تحملها إلينا آية الله البينة. ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (33) وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (34) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (35)**﴾ [فصلت: 33-35].

فعندما اتبع هذا الخط المستقيم الذي أرادنا الله عز وجل ألا ننحرف عنه لا ذات اليمين ولا ذات الشمال وتلك أمة وسط ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا**﴾ [البقرة: 143]، والذي يقف في الوسط هو شاهد على من على يمينه، وعلى من يساره.فهذا التوجه يجب أن يكون عمليا؛ لأن الدعوة ليست كلاما فقط، ولكن بالسلوك والموقف.

إننا لم نسمع إلى مواقف الدعوة من الدعاة وعلى رأسهم الرسول صلى الله عليه وسلم، ومما يأتي في الخلافة الراشدة تعني القيام بتطبيق منهج الله كما تنزل على رسول الله بدون انحراف، وإن تلك الفترة فترة الخلفاء الأربعة التي شهدتها وأجمعت الأمة على أن فترة الأربعة لم يكن يحكم فيها إلا كتاب الله وسنة رسول الله، بحيث إن امرأة في الجمهور تعترض على أمير المؤمنين عمر في قضية المهر، فيقف ويراجع موقفه، مع أن ذلك الموقف فيه خير للمسلمين من الدعاة الذين انبثقت منهم الدعوة على عهد النبوة وعهد الصحابة، نرى الحوار الذي دار بين الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة والإمام أبي حنيفة النعمان –رحمهما الله ورضي الله عنهما–، عندما خرج الإمام مالك لمحاورة أبي حنيفة –عفوا– عندما خرج أبو حنيفة لمحاورة الإمام مالك سئل عن صاحبه فقال: لم ألق أعلم منه بالسنة، وعندما دخلوا على الإمام مالك فوجدوه يتصبب عرقا من جهد الحوار، فسألوه عن صاحبه فقال: لو أراد أن يستدل لهذه السارية على أنها من ذهب ما أعجزه ذلك.

هذا التواضع لأهل العلم وهذا التواضع للدعاة نلتمسه من قوله عز و جل: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾

ونحن نتحول إلى جدال، لابالتي هي أحسن، وإنما بالتي هي أخشن، ونتحول إلى مصارعة؛ لأن الإنسان عندما يحاور صاحبه كأنه يصارعه في حلبة المصارعة، ويحاول أن يسقطه بالضربة القاضية، في حين أن الهدف من الحوار هو التعاون على الوصول إلى الحقيقة وإلى الحق، سواء كان منك أو منه لايهمني أن أكون المصيب أو ذاك المصيب؛ وإنما المهم أن نتوصل معا إلى الحقيقة.

الدعوة الإسلامية انتشرت عبر أقطار الدنيا بواسطة الدعاة لأن الدعاة كانوا دعاة بالفعل أكثر مما هم دعاة بالقول.الإسلام يرفض الانفصال بين القول والفعل، وبين العقيدة والممارسة والآيات الزاخرة التي تشكل الكثرة العددية الساحقة في القرآن تربط العمل بالعقيدة ﴿**والذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾، فإن العدد الكبير من الذين دخلوا الشام اهتموا بالدعوة الحقيقية، كانوا تجارا أو كانوا حرفيين، كانوا أهل صناعة أوكانوا معلمين رأتهم الأقطار التي وفدوا إليها عن خلق كريم، وعلى موقف سليم، وعلى استقامة في القول والفعل، وعلى معاملة نظيفة أمينة شريفة فسألوهم من أنتم؟ هل أنتم بشرا أم ملائكة؟ قالوا: لا، نحن بشر من البشر، غير أن الله أرسل إلينا رسولا آمنا برسالته والتزمنا بهذه الرسالة في أقوالنا و أعمالنا فرأيتم منا ما رأيتم، فإن أعجبكم أن نعلمكم هذه الرسالة أو نبلغكم إياها فعلنا، وهكذا دخل الناس في دين الله أفواجا.

قضية الخلافة الراشدة نعلق عليها: الرشد هنا يعني الالتزام الصادق الواثق بالمنهج الإلهي دون غيره.

نستطيع أن نتفق من ناحية مع المحاضر على أن هذه الخلافة الراشدة ليست وحيا من الله يوحى، وإنما هو عمل بشري التزم به بشر صادقون مومنون واثقون، ولكن من الناحية التاريخية لم يشهد أبدا أن حكما إسلاما في أي بلد إسلامي كان في مستوى ذلك النظام الذي انبثق عن رسول الله، والذي طبقه الخلفاء الراشدون الذين أوصانا رسول الله عليه الصلاة والسلام وعلى آله أن نقتفي أثرهم ، واقتفاء أثرهم هو اقتفاء أثر النبوة:

«عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ»[1] إلى آخر الحديث الشريف.

كلمة العدو كما سبقني إليها أخ كريم أننا لا يمكن أبدا أن نلغي ألفاظ القرآن ومصطلحات القرآن ومصطلحات النبوة، وقد وردت في غير ما آية من كتاب الله، في سورة فاطر: ﴿**إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (6)**﴾ [فاطر: 6]، وأقف عند قوله تعالى: ﴿**فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا**﴾؛ أي عاملوه معاملة العدو للعدو، إذ كان لا ينبغي لأن نستعمل كلمة عندما نخاطب من يخالفنا في الدين، هذا أمر صحيح لأننا عندما نواجهه بكلمة عدو، فإننا لا نستعمل اللغة التي تجذبه إلى .....

(1) أخرجه أبو داود، الترمذي، وابن ماجة في السنن.

تدخل الشيخ شرفاء في إطار مناقشة درس

الأستاذ حسن عبد الله حسن الشيخ

من علماء السودان

في موضوع:

واقع المسلمين اليوم

رمضان 1415هـ

*** تدخل فضيلة الأستاذ محمد الأكحل شرفاء، من علماء الجزائر**

بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على رسوله، سيدنا محمد ابن عبد الله ، وآله ومن والاه، وسلم تسليما .

معالي وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية الشقيقة ،

معالي وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية بالجمهورية العراقية الشقيقة،

حضرات المشايخ المبجلين، سيدي رئيس الجلسة، أحييكم جميعا بتحية الإسلام، وتحية الإسلام هي السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الدرس الذي استمعنا إليه لصاحب الفضيلة الشيخ، حسن عبد الله حسن الشيخ، أرجو ألا أكون مخطئا في هذا الإسم، فقد حرك مشاعرنا وأعاد إلينا ما نحس به من مرارة لما يجري في وطن أمتنا الإسلامية من مشرقها ومغربها، ويجعلنا في الوقت ذاته أمام مسؤولياتنا جميعا التي لا يعفي الله أحدا منا إذا هو لم يتحسسها، وإذا هو لم يبذل أي جهد في أي موقف يكون فيه من أجل تخليصنا من هذا الواقع المر، ودفعنا إلى حيث يريد الله أن نكون، إن أمتنا مريضة ولا شك في ذلك، وإن علينا في هذه المرحلة ألا نكتفي فقط بتشخيص الداء؛ وإنما علينا أن نفكر في خطة عملية لوصف الدواء، والدواء من حيث الأساس ومن حيث المبدأ موجود وغير مفقود، إنه في كتاب الله عز وجل، وإنه في آية محكمة من قرآننا ، في سورة الإسراء: ﴿**وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا (82)**﴾ [سورة الإسراء: 82]، نستمد من هذا التوجيه القرآني الكريم أن أدواءنا لا يمكن

أن تشفى إلا بمراجعتنا لكتاب الله، ونحن في شهر القرآن، شهر رمضان حيث كان ينزل جبريل عليه السلام إلى الأرض ، فيدارس رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن ، وأنتم من أهل العلم تعرفون ذلك مما عندكم من العلم في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن علينا –كما ذكرت–أن نضع خطة عملية في المجال التربوي لناشئتنا المقبلة حتى لا تذهب طرائق قددا، وحتى لا تقع في المصيدة التي تستهدف أن تسرق أمتنا من إسلامها، وبالدرجة الأولى الجيل القادم ، ووصية القرآن في هذا واضحة، في نصيحة لقمان أو وصية لقمان الدينية القيمة، ﴿**يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** (13)﴾ [لقمان: 13] فالشرك لا ينبغي أن ننظر إليه، كما كان في عهد أبي جهل وعقبة ابن أبي معيط وغيرهم من قادة قريش، حيث علقوا كعادتهم الأصنام في الكعبة، فتطهرت عندما فتحها الله تعالى على رسول الله صلى الله عليه وسلم، الشرك يتطور، هناك الشرك الخفي، وهناك الشرك الظاهر، وهناك حب الهوى، وحب النفس، والتكالب على الدنيا، والوهن الذي أشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، هناك أخ متدخل هنا، قال: إن كلمة الوهن يعرفها العرب ولا فائدة عن مدلول كلمة الوهن، وإنما يسأل عن الوضع الذي يجعل المسلمين واهين، ويجعلهم أذلاء ، إن الشرك هو أن يشرك الإنسان بهدفه وبرسالته وبمهمته في هذه الحياة، أهدافا أخرى خارجة عن الهدف الذي يريد الله أن يسعى عليه، ويريد الله أن نتعاون عليه، وأن نجند كل طاقاتنا لبناء مجتمع قائم على هذه العقيدة التي يراجع فيها كل شخص نفسه أمام الله، فيحدد مواقفه ويحدد أقواله، ويحدد أعماله وفق منهج الله الذي جاء في القرآن الكريم ، هذا المنهج الذي أخرج الأمة العربية من جاهليتها وجهالتها إلى أن أصبحت إماما للعالم ، والإمامة هي أعظم تكريم

من الله للإنسان﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (124)﴾ [البقرة: 124].

فلكي نتجنب ظلم أنفسنا فندفعها في طريق المهالك، وفي طريق معصية الله، ونستمع إلى الشياطين الذين يتآمرون علينا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا.

ونتقرب إلى الله بجعل أعمالنا ومواقفنا كلها تستهدف توحيد هذه الأمة، وجمع صفوفها، وإصلاح ذات بينها، والوقوف مع الحق ضد الظلم ، وإن من مقتضيات الإيمان ومقتضى الإيمان الأول الشرط الأول ليكون هناك مجتمع مؤمن، هو إصلاح ذات البين، والساكت عن الحق شيطان أخرس؛ إنما المؤمنون إخوة، فلا يعترف الله بفوارق الجنسية أو الوطنية أو الإقليمية، وإنما الأخوة التي يقر الله ويعترف بها، هي أخوة الإيمان، بهذه الصيغة التي هي صيغة الحصر، كما يعرفها العلماء إنما المؤمنون إخوة وأول عمل ينزلق من هذا الإيمان، إيمان الإخوة، هو إصلاح ذات البين، هذا الصمت المخيف الذليل، الذي يسود المجتمعات في المشرق والمغرب، يجب أن نتخلص منه، ونقول كلمة الحق، ونعود إلى الله عودا حميدا ليعود لنا مجدنا وعزنا وكرامتنا، ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (8)﴾ [المنافقون: 8]، هذا وعد الله ﴿لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (171) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (172) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (173)﴾ [الصافات: 171-173]، ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (104) وَلَقَدْ

كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (105)﴾ [الأنبياء104-105].

الخاتمة دائما، وإن الضاحك هو من يضحك أخيرا.

﴿ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ (106) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (107)﴾ [الأنبياء:106-107].

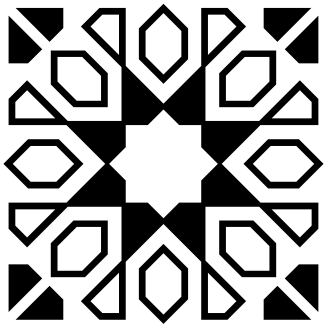

محاضرات ألقيت

بمؤتمر

الفكر الإسلامي

الغزو الثقافي وخطره على العقيدة والشريعة والقيم الإسلامية[1]

النقطة الأولى: في مجال الفكر

أحمد الله ﷻ وصلى الله وسلم على نبيّه المرسل سيّدنا محمد وآله وصحبه، ومن دعا بدعوته.

إنّ مجالات العمل الإسلامي كلّها قائمة على عقيدة يختارها المؤمن طواعية، نتيجة لاطمئنان قلبي واقتناع عقلي وذلك هو الإيمان الذي ارتضاه الله لعباده حين أنزل ﴿**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (256)**﴾ [البقرة: 256]، وبذلك نعلم أنّ كلّ عمل إسلامي بدأ بفكر ودعا إلى القراءة والكتابة والعلم والتربية، في أول آية تلقاها رسول الله ﷺ وهو بحراء وهي قوله تعالى: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1)**﴾ [العلق: 1].

واستمرّ الوحي ينزل في فترتيه: المكيّة والمدنيّة يغذّي الفكر وينيره بهدي الله، ومنه نبع كلّ ما أعطاه الإسلام للبشريّة من عقيدة وعبادة وشريعة وأخلاق... ومنه كلّ المنجزات الحضاريّة التي اشعّت على الدنيا وأشاعت فيها العدل والإحسان وتكريم الإنسان... وما دخول علماء الأرض من مختلف الملل والأصقاع في دين الله اليوم إلاّ شاهد عدل وصدق على ذلك، بالرّغم مما تعرّض له الفكر الإسلامي من عوامل التّشهير والتّدمير

(1) محاضرة ألقيت في الملتقى التاسع عشر للفكر الإسلامي ببجاية

والتّفكير... غير أنّ الحقيقة التي أعلنها الله في قوله تعالى: ﴿**أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (17)**﴾ [الرعد: 17] ظلت ثابتة ثبات الإسلام، راسخة رسخوه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

إنّ الغزو الذي حدث في مجال الفكر قد جاء موازيا للهجوم العسكري على الوطن الإسلامي، مستغلاّ ما صار إليه أمر المسلمين من تفكّك جرّاء الخلاف الذي أفشل الإرادة الدّافعة نحو بلوغ منزلة الرّيادة والقيادة العالميتين، المكانة التي بلغتها فعلا أيّام الاهتداء بالمنهج الإسلامي النّابع من الوحي، والاقتداء برسول الله ﷺ باقتفاء سيرته المطهّرة، بلاغا وأسوة، وذلك قبل أن يتمكّن الكائدون لهذا الدّين عبر العصور، من إصابة المفاهيم الإسلامية الأصلية؛ بما أحدث فيها من ثغرات وفجوات نفذ منها الشّيطان إلى العقول فأحدث خللا، وإلى الأفعال فأوقع فيها زللا، ذلك ما فطن له بعد مضي وقت طويل تمكّن خلاله أعداء الإسلام من إحداث ما أحدثوا، و المنافقون من نكث ما مكثوا، قلت: فطن الرّائدون لما صارت إليه أمور المسلمين من أوضاع تهدّد بالانفضاض والانقراض، فنهضوا يعيدون البناء على الأصول الثّابتة للفكر الإسلامي، ويحذرون ممّا شابه من تزييف جرّاء الغزو الذي تعرّض له، وبما أنّ الصّدوع كثيرة والشّقوق عميقة، وجب التّصدّي للتّرميم والحشد للتّدعيم، غير أنّ طرق وأساليب الدّعاة والمصلحين اختلفت باختلاف الرؤى والتّصورات ومناهج التّكوين

والاستعدادات...الشيء الذي جعل الوقت يمضي في جدال عن أصل الدّاء ونوع الدواء، والأيّام تمرّوالقافلة تسير والدّاء يستشري والذّئاب تسدّ الأبواب فما العمل؟

واجبنا في هذا الوضع أن نعرف مآتي الغزو والأسلحة المستعملة لمهاجمتنا، فنرُدّ على ذلك بما استطعنا، ثم نستعدّ للهجوم المعاكس.

التشكيك في أصول العقيدة:

إنّ الغزو الفكري لأوطان الإسلام استهدف أساسا زعزعة العقيدة؛ حتى يمكّنه الإتيان على البناء من قواعيده، ومن ثمّة التّشكيك في النّبوة والوحي، وصرف النّظر إلى جوانب أخرى في شخصية الرّسول ﷺ قد تبدو في شياب المديح، وتتّخذ من عبارات التّضخيم والتّعظيم للشّخصية النّبويّة به، وما يبرز تلك الكتابات في شكل الاعتراف بالحق والتّسليم به، غير أنّ نقطة هامة، بل أهمّ من كلّ ذلك الإطراء قد تخفي على العديد من حسني النيّة منّا، وهي تبدو من جهتين.

الأوّل: دين في عقيدة الوحي، وإبرازها شكلا من أشكال الالهامات والتّجلّيات الخاصّة التي تحدث لبعض الموهوبين من العباقرة؛ فيخيّل إليهم وكأنّهم يتّصلون بقوّة خارقة توحي إليهم، والأمر ليس إلاّ تخيّلا، وما إلى ذلك مثلما ذهب إليه "توماس كارليل" في كتابه "الأبطال" عندما تعرّض لقضية الوحي إلى رسول الله ﷺ فقال بالحرف الواحد حسب التّرجمة التي عندي: "كان –أي– رسول الله ﷺ في هذه السّنين الثّلاث والعشرين قطبا لرحى حوادث متلاطمات متصادمات، وعالم كلّه هرج ومرج وفتن ومحن وحروب... هكذا وليس جهادا في سبيل الله مع قريش، والكفارة

ومخاصمات بين أصحابه (كذا)، وهيّاج نفسه وثورتها (كذا)، كلّ ذلك جعله في نصب دائم وعناء مستمرّ، فلم تذق نفسه الرّاحة بعد قيامه بالّرسالة قطّ، وقد أتخيّل روح محمد الحانة النّارية (كذا) وهي تتململ طول اللّيل السّاهر يطفو بها الوجد ويرسب، وتدور بها دوّامات الفكر حتى إذا أسفرت لها بارقة رأي حسبته نورا هبط من السماء (كذا للعجب)، وكلّ عزم مقدّس يهتمّ به يخاله جبريل ووحيه (كذا عجبا)؟"، ثم يمضي في الثّناء على شمائل المصطفى ﷺ كما سبق من كلامه ما أوردت من عباراته كلام كلّه مديح للرّسول ﷺ وإشادة بشخصيّته وردّ على الطّاعنين في نبوّته، إنّ كلام (**توماس كارليل**) يبدو إشادة برسول الله عند من لا يفطن إلى الدسّ الفظيع في أقدس جاء به؛ وهو وحي الله إليه واختياره خاتم النّبيّين وإمام المرسلين عليه السلام، فأيّ قيمة لأيّ مدحهما علا شأنه وثقل وزنه، إذا مسّت الرّسالة؟ وهل ذكره الله في كتابه إلاّ بوصف الرسالة؟

وهل هناك فضل يدانيها فضلا عن مساواتها؟ هل هناك تكريم وتشريف لهذا الرّجل أكرم وأعظم من قوله تعالى: ﴿**مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (40)**﴾ [الأحزاب: 40].

رغم كلّ هذا نجد العديد من الإسلاميّين أنفسهم يشيد بما كتبه **كارليل** عن رسول الله ﷺ كلّ ما خلع عليه **كارليل** وغيره من صفات الكمال والجمال وعظيم الخصال، لا يساوي ذرة من شموخ الرّسالة وعظمتها وجمالها وكمالها، إنّ كلّ الكمالات الإنسانية التي اختصّ بها ﷺ ما كانت إلاّ لإعداده من الله عز وجل لحمل ما أنزل من وحي الله؛ ذلك الحمل الذي صوّرته

آية الله البينة بقوله ﷻ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (5)﴾ [المزمل: 5]، فإذا شكك في هذا، وصوّر الوحي على أنّه حالة نفسية تعتري الرّسول ﷺ، فيخيّل إليه أنّه يوحي إليه، وأنّ جبريل يبلّغه الوحي عن ربه، فأيّ رسالة تبقى، وأيّ منهج إلهي جاء به محمد ﷺ إذا أخذ النّاس بهذا المفهوم؟ ألا تعدّ دعوته صادرة عن عبقريّته الشّخصية وحدها؟ ذلك ما يريدون... والبعض الآخر ينكر ذلك جملة وتفصيلا وبجرأة فيقول: "أنّها نقول من التّوراة والإنجيل لفقها"، وضع منها كتابه، مثل ما قصّ علينا القرآن الكريم مقولة المشركين عندما قالوا أساطير الأولين اكتتبها، فهي تملي عليه بكرة وأصيلا، وكلا الاتّجاهين عدوان على أقدس عقيدة في دين الله، إذا شكّ فيها فلا دين ولا إيمان ولا إسلام، وبالتّالي فلا شيء ممّا يتحقّق للمسلمين ثمرة لإسلامهم.

هناك الاتّجاه الثّالث الذي لا نراه إطلاقا منفصلا عن الاتّجاه التّنصيري؛ وهو الذي ينكر الألوهية والرّسالة إطلاقا... إنّ الكلّ يتضافرون على دعم عملية التّشكيك في الأصول الاعتقاديّة لهذا الدّين، ومن ثم سهل عليهم تناول جوانب من حياة النّبوة الشّريفة من منظور مدسوس، هدفه إبراز النبي ﷺ في صورة تنأى به عن كونه رسول الهدى ودين الحق، ثم تقدّموا خطوة ثانية ففصلوا جوانب التّشريع الإسلامي من أصولها، واعتموا مقاصدها فصوّرها بشكل منفر يجعل الشّعوب ترى فيها غولا يهدّد حياتها الحضاريّة، كلّ ذلك يلقي علينا مسؤوليّة ثقيلة لا يعفينا الله منها، إذا نحن أهملنا النّهوض بها بكل قوة؛ عملا بقوله تعالى: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (12)﴾ [مريم: 12]، إنّ العزيمة الرّخوة المرتعشة لا

تصلح لحمل هذا الكتاب وتبليغه إلى النّاس بالأسلوب الذي بلّغه الوحي إليه ومن تبعه بإحسان.

إنّ علينا أن نبني التّربية الإسلامية في كلّ مراحل التّعليم والتّكوين على المنهج القرآني، بعيدا عن اللّاهوتيات المستوردة من الفكر الإغريقي الوثني والإسرائيليات؛ التي نشطت عهودا من تاريخ الإسلام، وهي اليوم أكثر نشاطا مستغلّة ما آلت إليه الأمور في الصّراع الإسلامي الصّهيوني، كلّ ذلك كان حصادا للهجمة اليهوديّة في المجال العقيدي، فلئن كانت من قبل تسوق من الرّوايات ما يجعل العقل رافضا لضمينها؛ باعتبارها منافية للمنطق السّليم، ونسبتها إلى الدّين هي ضرب للدّين؛ ونتيجة ذلك إبعاد النّاس عن هدايته والعمل بشريعته، فإنّ أسلوب العمل اليهودي الآن أكثر خبثا، حين لا يهاجم الدّين مباشرة، ولا يندّد به صارحتا، ولكنه يتّخذ من التّفاسير ما ينأي به عن مقاصده، وينحرف بأهله عن المسار المستقيم، وبذلك يكون الدّين قد ضُرب بأقصى ممّا ضرب به من قبل؛ إذ يبدو مكرّسا للظّلم، مسايرا للغواية متسهّلا مع الانحرافات التي تؤدّي بالإنسان في مهوى الهلاك وذلك أخطر الشّرين.

من هنا وجب عرض الإسلام من جديد، مبرأ ممّا علق به من دسّ وتضليل، مخلصا من الشّوائب التي حاول أعداؤه إلصاقها به عبر العصور، إنّ التربية يجب أن تعتمد كتاب الله وما تم عليه العمل في قرون القدوة من صحيح السنّة... وتقديم الحياة النّبوية في صورة تنقل إلى هذا الجيل مشاهد ومواقف النّبوة، مستقاة من أنقى مصادرها، مدعّمة بالتّوجيه القرآني الذي لا يمكن إطلاقا أن يكون شيء من أقوال رسول الله ﷺ أو أفعاله مناقضا لما جاء

في وحي الله الذي وصف رسوله بقوله: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4)**﴾ [القلم: 4]، وكان خلقه القرآن... ومن هنا وجب ترك العمل بكلّ ما خالف القرآن من آثار السير والأخبار.

إنّ تتبّع مواطن الدّاء ضروري قبل اتّخاذ ما يجب من عدّة للمواجهة، وطبيعي أن لا تكون محاضرتي مستوعبة لهذه المواطن ولوسائل العلاج ولكن "**ما لا يدرك كله لا يترك جلّه**"؛ لذلك أعرض بعض الأفكار الآتية من مصادر الهجوم على الإسلام في أوطانه؛ بغية استشاركم عمّا يجب أن نتذرّع به من أسلحة المقاومة، عارضا وجهة نظري المتواضعة التي إن أصبت فمن فضل الله ﷻ، وإن أخطأت فمن قصوري وعجزي، ورجائي من سماحتكم أن تحملوني على حسن النية، والرّغبة الصّادقة في إصلاح أوضاعنا وتقويم سيرنا؛ حتى نستقيم على النّهج القاصد الذي ارتضاه لنا ربّنا الكريم.

هجمة فيها جذور:

في كتاب: "الغارة على العالم الإسلامي" الذي ألفه الأستاذ: (**ل. شاتلي**) ونقله إلى العربية المرحوم الأستاذ (**محب الدين الخطيب**) جاء في مقدمة الكتاب المترجم ما يأتي: ... في يوم من أيام 1330هـ وكنت أشغل تحرير المؤيد أقبل علي زميلي الأستاذ مساعد اليافي (وكان قد اشترك مع المترجم في تعريب الكتاب) وقال: شيء جديد لم أكن أتوقّعه.

قلت وما هو؟

قال: إنّ مجلّة العالم الإسلامي التي كانت إلى الآن مجلّة أدبيّة، تحوّلت في هذا الشّهر إلى مجلّة تبشيريّة، انظر إنّها أصدرت عددا ضخما، ليس فيه غير

بحث واحد وهو بحث تبشيري يدور حول ما تقوم به إرساليّات التّبشير البروتستنتيّة في العالم الإسلامي، وما قيل في المؤتمرات التي عقدتهاتلك الإرساليّات في أوقات مختلفة، وقد جعلت المجّلة عنوان هذا البحث (الغارة على العالم الإسلامي) أو (فتح العالم الإسلامي).

قلت له: إن المجلّة الفرنسيّة ينشرها هذا العدد الخاص بأعمال المبشّرين البروتستانت، تقول للمبشّرين الكاثوليك: انظروا كيف سبقكم الآخرين إلى الغارة والفتح، فيجب أن تضاعفوا جهودكم وتنظروا في أساليبهم فتستفيدوا منها، ونحن أيّها الأخ بصفتنا مسلمين يجب علينا أن نعلم ما يكيده لنا هؤلاء وأولئك، وأن نجعل أمّتنا على علم بما ينصب لها من شراك، وما يبيت لها من شرّ، فاقترح عليك أن تترجم فصول هذا البحث، فصلا بعد فصل وتنشره في المؤيد تباعا؛ فيقف المسلمون على ما يكاد لهم به من هذه النّاحية.

ثم ختم الأستاذ الخطيب المقدّمة بقوله: وقد جاءت مناسبات ذكرت فيها مقالات "الغارة على العالم الإسلامي" لكثير من أصدقائنا، فكنت أراهم لا علم لهم بها؛ لأنّ هذا شيء مضى عليه نحو عشرين (20) سنة، فاقترحوا عليّ أن أعيد نشر ذلك في الفتح، وأن أضعه بين أيدي الناس في كتاب مستقبل فأجبت سؤلهم.

أمّا ما كتب رئيس تحرير (مجلة العالم الإسلامي) المشار إليها آنفا وهو (**ل شاتلي**) أستاذ المسائل الاجتماعيّة الإسلامية في إحدى جامعات فرنسا، فهو خطير إلى حدّ لا يمكن تصوّره من باحث اجتماعي يحاول أن يبدو موضوعيّا ولكن صدق عليه قول المصطفى ﷺ: «من أسر سريرة ألبسه الله

رداءها»[1] ففيما يتعلّق بالتّعليم الجامعي الذي كانت فرنسا تمارسه في أوطان الإسلام قال الكاتب: "أنا أرجو أن يخرج هذا التّعليم إلى حيّز الفعل ليبث في دين الإسلام التعاليم المستمدّة من المدرسة والجامعة الفرنسيّة"، وفيما يخصّ نتيجة التّعليم الذي تسيّره إرساليات التّنصير في البلاد الإسلامية قال الكاتب: "إنّ لنتيجة ارسالات التّنصير في البلاد الإسلامية مزيتين: مزية تبشير، ومزية هدم، أو بالأحرى مزيتي تحليل وتركيب". والأمر الذي لا مرية فيه هو أنّ حظّ المبشرين من التّغيير الذي أخذ يدخل على عقائد الإسلام ومبادئه الخليقة في البلاد العثمانية، والقطر المصري وجهات أخرى من أكثر بكثير من حظّ الحضارة العربية، ولا ينبغي لنا أن نعتمد على إحصائيات (التعميد) في معرفة عدد الذين تنصّورا رسيمّا من المسلمين؛ لأنّنا هنا واقفون على مجرى الأمور ومتحقّقون من وجود مئات من النّاس انتزعوا الدّين الاسلامي من قلوبهم، واعتنقوا النّصرانية في ظرف خفي)

وفيما يخصّ تخطيطهم كما يرجونه من انهيار شامل للذاتية التي احتفظ بها المجتمع المسلم؛ نتيجة الرّباط الوثيق الذي عمّقه الإسلام في وجدانه، قال الكاتب "لا ينبغي أن نتوقّع من جمهور العالم الإسلامي أن يتّخذ له أوضاعا وخصائص أخرى، إذا هو تناول عن أوضاعه وخصائصه الاجتماعية، إنّ الضّعف التّدريجي في الاعتقاد بالفكرة الإسلامية، وما يتبع هذا الضّعف من الانتفاض والاضمحلال الملازم له سوف يقضي بعد انتشاره في كلّ الجهات إلى إخلال الرّوح الدّينية من أساسها لا إلى نشأتها بشكل آخر".

(1) أخرجه أبو يوسف في الآثار، وزبيد بن الحارث الإيامي في حلية الأولياء.

مؤتمر لتنصير المسلمين:

كان القسيس (**زوبير**) رئيس إرساليّة الّتنصير العربيّة في البحرين، أوّل من ابتكر فكرة عقد مؤتمر عام لجميع إرساليّات التّنصير البروتستانتية للتّفكير في مسألة نشر الإنجيل بين المسلمين، وفي 1906م أذاع اقتراحه وأبان الكيفيّة التي يكون بها، فوضعت هذه الفكرة في (ميسور) من (ولاية أكرا) في الهند؛ لأنّ هذه الولاية ذات أهميّة كبرى من حيث المسائل الإسلامية لوجود جامعة (عليكره) هناك، ثم عرض الاقتراح على مؤتمر التّنصير الذي ينعقد في مدينة (مدراس) الهندية كلّ عشر سنوات فأجاز عقده.

وفي يوم 4 أبريل سنة 1906م، افتتح المؤتمر في منزل (**عرابي باشا**) في باب اللّوق وبلغ عدد مندوبي إرساليات التّنصير 62 بين رجال ونساء، وكان عدد مندوبي إرساليات التّنصير الأمريكية التي في الهند وسوريا والبلاد العثمانية وفارس ومصر واحدا وعشرين، ومندوبو إرساليات التنصير الانكليزية خمسة، واشتركت في المؤتمر الإرساليّات الاسكتلندية، والإنجليزية المنفردة، والألمانية، والهولندية، والسويسرية، والدنمركية، الموجودة في الغرب، وانتخب القسيس (زوبير) رئيسا للمؤتمر، وعيّن معه نائب رئيس وكاتبة، وحدّدت أيّام الجلسات وهذا جدول أعمال المؤتمر:

ـ ملخّص إحصائي عن عدد المسلمين في العالم.

-الإسلام في إفريقية

- الإسلام في السلطنة العثمانية.

- الإسلام في الهند.

- الإسلام في فارس.

- الإسلام في الملايو ـ

-الإسلام في الصين.

-النشرات التي ينبغي إذاعتها بين المسلمين المتنوّرين والمسلمين العوام

-

-التنصر ـ

-الارتداد وسائل إسعاف المتنصّرين المضطهدين ـ

-- شؤون نسائية إسلامية (لاحظوا هذا العنصر بالذّات)، موضوعات تتعلق بتربية المنصّرين والعلاقات بينهم وكيفية التّعليم في الإسلامي.

وهذه الموضوعات جُمعت على حدى في كتاب كبيراسمه (التّبشير بالنصرانية بين المسلمين)، ثم صنف القسيس زوبير كتابا جمع فيه بعض تقارير عن التّنصير وسماه (العالم الاسلامي)، كان هذا المؤتمر انطلاقا للزّحف المتواصل مثاقل الإسلام في عدة جبهات.

ولنستمع إلى الدكتور(**محمد محمد حسين**) أستاذ الأدب العربي الحديث بجامعة الإسكندرية يقول: "وقد أثمرت هذه الجهود التي بذلها المستعمرون في العالم الإسلامي خلال قرن أو أكثر، وكانت ثمرتها مجموعة من علماء المسلمين المتفرنجين، أمثال الدكتور (**فضل الرحمن الهندي**) الذي يقسّم

الإسلام إلى إسلام كلاسيكي وإسلام حديث، ثم جعل في أقسام هذا الإسلام الحديث إسلاما هنديّا نسبة إلى السيد (**أحمد خان**) مؤسس جامعة عليكرة، التي أنشأت باعترافه لنشر الإسلام الحديث المتأثر بالمذاهب الغربيّة، وهي الجامعة التي أنشأت باعترافه لنشر الإسلام الحديث المتأثّر بالمذاهب الغربيّة، وهي الجامعة التي أنشأت في أوّل الأمر باسم (الكلية المحمديّة الإنجليزية)، ثم أضاف يقول:

ومن أمثلة هذه النّماذج لثمار الجهود الاستعمارية، أيضا الدكتور (**آصف علي فيظي**) سفير الهند في مصر فهو يطالب مناقشة (المعتقد اللّاهوتي الذي يقول: إنّ الله هو واضع القانون)، ويقترح طريقة لنقد حديث للّشريعة، ويقرّر أنّ قوانين الشّريعة يجب أن تندثر أو تخضع لأساليب التّقنين الغربي الحديث، ويقول: "إنّ التّصوّر الأساسي للإسلام (لا يمكن المحافظة عليه سليما إلاّ بإعادة تفسيره، وإعادة تقريره في كلّ عصر وفي كلّ مرحلة من المدينة"، ويقسّم تعاليم الإسلام إلى (عناصر دائمة) و(عناصر قابلة للتّغيير)، ويذهب إلى أنّ السّلاح الحديث لما يسمّيه اللاّهوت الإسلامي، يجب أن يستفيد من الدّراسات الحديث في الفلسفة وفي علم النّفس ومن الفكر الأوروبي، والتّفكير البروتستنتي، والّتفكير المدرسي المسيحي والتفكير اليهودي.

كان مثل هذا الاتّجاه في ضرب الإسلام، ثمرة الحملة الثقافية المصرية إلى قلب القيم الإسلاميّة الضّامنة لاستمرار الوجود الإسلامي، وقد اعتمدت الحملة إثارة الشّكوك في كلّ المسلّمات الإسلامية من نبوّة وما انبثق منها من مرتكزات اعتقادية، وما قام عليها من تشريع وخلق من ذلك

التّشكيك في مفاهيم القرآن ذاتها، ومن ثمة بروز تهمة النّحل في الشّعر الجاهلي، والكلّ يعلم الصراع الذي كان قائما بين دعاة التّشكيك في التراث، وعلى رأسهم الدكتور (**طه حسين**) والذّائدين عن قيم الإسلام والعربيّة، وعلى رأسهم أديب الإسلام الخالد الأستاذ العظيم (**مصطفى صادق الرافعي**) -رحمه الله-.

من هذه المطاعن المصرية إلى القيم الثّابتة قول **طه حسين** بالحرف الواحد: "للتّوراة أن تحدّثنا عن وجود إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن فقط لا يكفي لإثبات وجودهما التّاريخي؟ ويرد **الرافعي** مخللا مبرهنا مفنّدا من ذلك قوله: وإذا لم يكف النّص في كتاب سماوي تدين به الأمّة لإثبات وجود المنصوص عليه، فما بقي معنى لتصديقه، ثم يختم ردّه بقوله: " لقد تحدّث طه عن التوراة وتحدّث عن القرآن، أمّا الإنجيل فهو في شفاعة زوجته المسيحية".

إنّ المدرسة الغربيّة الاستشراقية استطاعت أن تجنّد طوائف من المحاربين لتعاليم الإسلام، عملوا بكلّ مثابرة لإحداث صدوع في الصف المسلم فكريا، من هؤلاء كما يقول الكاتب الكبير الأستاذ (**عباس محمود العقاد**) ما يأتي: "هناك طائفة من ذوي النيات السيّئة بين كتّاب الغرب يؤلفون عن المسلمين العرب على التّخصيص، ومعظمهم ممّن يدينون بالمذاهب الفاشية والنازية في السّياسة والاجتماع، و طائفة أخرى هي طائفة الماديّين الملحدين الذين يدّعون إلى هدم المجتمعات القائمة، ويقولون بأنّ الأديان كافة عقبة تعترض "الإصلاح الاجتماعي الذي يلغي الروحيات"

ويستبدل بها الماديات في كلّ مطلب من مطالب الحياة الدنيا ولا حياة غيرها لإنسان، ونصيب الإسلام عند هؤلاء الماديّين الملحدين أوفر الأنصبة وأولاها بالتّقديم في خطة الهدم والّتشويه"؛ لأنّ المسيحيّة لا تزاحم مذهبهم الاجتماعي بمذهب شامل لمسائل التّشريع والنّظم الاجتماعيّة والحكوميّة، ولكن الإسلام يقيم المجتمع على نظامه، ويقرّر الحقوق والواجبات بقسطاسة، ويحيط بشؤون الدّين والّدنيا في حياة الآحاد وحياة الجماعات، ويتقبل البناء الجديد على قواعد أساسه الخالد، دون أن يضطرّ المسلم إلى إنكار قاعدة من قواعد العبادات فيه والمعاملات، ولا يقلّ عن هؤلاء الكفرة في عداوتهم للإسلام جماعة "المؤمنين المحترفين" الذين يتّخذون تشويه الإسلام صناعة يستدرون بها الرّزق، ويتوسّلون بها إلى جاه الرّئاسة، وسمعة الصّلاح والتّقوى بين المتعصّبين والجهلاء في البلاد الأوروبية والأمريكية، ولا يندر أن يكون المبشر ملحدا بالّدين كلّه، ولكنه يعلم أنّه يقطع موارد رزقه إذ كشف عن الجاد، أو قال عن الإسلام قولة حقّ وإنصاف تمحو عداوة الأعداء، وتضعف غيرتهم وحماستهم للحملات التّنصيرية في بلاد المسلمين، فهو كاذب متعمّد منتفع بالكذب، لا يزحزحه عنه علمه بالحقيقة ولا هو يسعى إلى علمها برضاه.

عندما ما أورد هذه الفقرات ممّا كتبه باحثون إثباتا من مفكّري الإسلام، فإنّما أريد الإسهام بجهد متواضع في كشف ما دبّر ويدبّر لمصيرنا؛ من خلال الغزو الفكري لأقدس مقدّساتنا، وإنّ ذلك هو الطّريق الذي سلكته جحافل الغزاة إلى أرض الأقداس، فاغتصبوا القدس وأراضي الإسلام المجاورة فاغتصبوها بدون جهد جهيد وفي زمن قصير؛ نتيجة لما آلت

إليه الأمور عندما أنحلت الحرى ودبّ النزاع واستحفل الدّاء وغاب الدّواء، كلّ ذلك قد فسّر لنا عمليا قول الله ﷻ: ﴿**وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (46)**﴾ [الأنفال: 46]، إنّ الغزو العسكري الذي انجلى عن أغلبيّة البلدان الإسلامية قد خلّف وراءه أوكارا غرس فيها أفكارا هي غذاء العديد من أبناء الإسلام والعربيّة، وهي التي ما تنفكّ تشيع في الأجساد كلّ فساد، وفي الأفكار كلّ دمار وفي العزائم والإرادات ما نشاهد من هوان وصغار، ولا سبيل للعلاج إلاّ بما عولج به الإنسان عندما تلقى وحي الله فآمن به، واستقام عليه ألم يجعل الله من هذا الكتاب شفاء؟ ألم ينزل قوله تعالى: ﴿**وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (82)**﴾ [الإسراء: 82].

لنستعمل هذا التّرياق، وفي مجال العلاج الذي أرتئيه أقترح اعتماد المواضيع الآتية، قواعد لتكوين الإنسان المسلم الحديث في كلّ المستويات التّربية والتّعليم والتّدريب؛ بحيث تعطي بكيفيّات وطرق تناسب كلّ مستوى حسب مراحل الإعداد والتّوجيه:

- أصول الإسلام.
- وحدة الرّسالات الإلهية.
-تسوية الإسلام بين شعوب الأرض.
- لا تفاضل في الإسلام إلاّ بالعمل.
- الإسلام رسالة توحيد لجميع الشّعوب.

- الإسلام يرفض الإفراط والتفريط في مجال التشريع: جلب المصلحة ودرء المفسدة مراعاة ظروف الزّمان والمكان دون مسّ بالثّوابت .

- تكريم المرأة في حدود الشرع.

- توظيف المال في خدمة الصّالح العام دون مسّ بالحقوق الشّرعية للأفراد، ومنع التّعسّف والظّلم من الطّرفين.

- وإزالة الشبه التي يثيرها الطّاعنون في البيت النّبوي الشريف.

- شرح موضوع التعدد والطلاق في الإسلام، وإبانة وجه الحق فيه.

- مسألة الرق: كون الإسلام شرع العتق، ودعا إلى التحرير وفضح من يسترقون الشعوب، ويندد برق الأفراد.

- الجهاد معناه وأهدافه وأنه ليس الحرب.

-دعوة الإسلام إلى السلام العادل الذي تحفظ فيه كرامة الإنسان وحقوقه المشروعة.

- موقف الإسلام من العلم والفلسفة .

- الإسلام لم يضطهد العلماء نتيجة بحثهم.

- بعض الأنبياء جمعوا بين النّبوة والحكمة.

- تخصيص دراسات للتّعريف بمضمون الإيمان بالآخرة، وأثره في إصلاح الحياة الإنسانية وتزكيتها.

- قضيّة التّبني وقول الحق في قّصة زينب أم المؤمنين.

- تسامح الإسلام مع أهل النفاق.

- تصرف النّبي ﷺ كإنسان أمثل.

- إبطال زعم أخذ القرآن من الكتب الأخرى.

- كون القرآن الوثيقة الرّبانية الوحيدة بين أيدي البشر في الأرض.

- عدم وجود أيّ وثيقة دينية إلهية متّفق على صحّتهامن أهل ملتها غير القرآن الكريم.

- الكشوف العلمية التي تثبت صدق القرآن وربانية الإسلام، دين كلّ الرّسل عليهم الصّلاة والسّلام.

-الإسلام عام على العلم منذ انطلاقه، واستمر يدفع الإنسان إلى المعرفة درجات منذ ظهوره إلى أن توقّف المسلمون عن الأخذ منه والاهتداء به.

- لم يتناقض القرآن مع أيّ من الكشوف العلمية الصّحيحة؛ بل ثبت أنّه سبقها، مع ذلك ليس القرآن كتاب نظريّات علميّة، وكأنه كتاب هداية يحثّ الإنسان على استخدام ما وهبة الله من طاقات، ويعدّ ذلك من القربات: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (28)**﴾ [فاطر: 28].

-الإسلام شرع ما يحفظ كرامة الشّخص، ويصون مصلحة المجتمع، ولا يسمح لأحد الطّرفين أن يهضم حقوق الآخر.

- الإسلام منهج يعتمد التّكامل والتّضامن والتّعاون؛ بحيث لا يضيع فيه إنسان ولا تداس كرامته.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (15) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (16)﴾ [المائدة: 15-16].

- كشف ما يتخبّط فيه الغرب من حياة تنذر بسقوط الحضارة التي قطعت صلتها بالله ﷻ، وفي ذلك يقول المفكّر الإسلامي السيّد (**أبو الأعلى المودودي**): "ظهرت الحضارة الغربيّة في أمّة لم يكن عندها معين صاف ولا نبع عذب للكلمة الإلهية، لقد كان فيها قادة الدّين، ولكن لم يكونوا أصحاب حكمة ولا علم ولا شريعة إلهيّة، ولم يكن عندهم إلاّ شبح دين لو حاول أن يسير بالنّوع الإنساني على صراط مستقيم في طرق الفكر والعمل ما استطاع، ولم يكن له إلاّ أن يكون حجر عثرة وسدّا في سبيل ارتقاء العلم والحكمة، وهكذا كان، وكان عاقبة ذلك أنّ الذين كانوا يريدون الرّقي نبذوا الدّين بالعراء، واختاروا طريقا لم يكن دليلهم فيه إلاّ المشاهدة والاختيار والقياس والاستقرار، وثقوا بهذه الدّلائل التي هي في حاجة بنفسها إلى الهداية والنّور، وجاهدوا واجتهدوا باحتذائها في طرق الفكر والنّظر والتّحقيق والاكتشاف والبناء والتّنظيم، ولكن ظلّت خطوتهم الأولى في كلّ

جهة وفي كلّ مجال، وانصرفت فتوحهم في ميادين العلم والتّحقيق، ومحاولاتهم في سبيل الفكر والنّظر إلى غاية لم تكن صحيحة، إنّهم بدؤوا وساروا من نقطة الإلحاد والمادية، نظروا إلى الكون على أنّه ليس له إله، نظروا في الآفاق وفي الأنفس على أنّه لا حقيقة فيها إلاّ المشاهد والمحسوس، وليس وراء هذا السّتار الظاهر شيء، فاختلّ أساس مدينتهم وتهذيبهم، وانحرفوا عن عبادة الله إلى عبادة النّفس، واتّخذوا الهمم هواهم، وفتنتهم عبادة هذا الإله، وسارت بهم هذه العبادة في ميدان من ميادين الفكر، والعمل على طرق رائعة خلاّبة، ولكن مصيرها إلى الهلاك.

"إنّ أهل الغرب الذين غرسوا هذه الشّجرة الخبيثة قد مقتوها؛ لأنّها خلقت في نواحي حياتهم مشاكل وعقدا لا يسعون لحلّها، إلاّ ظهرت مشاكل جديدة، ولا يفصلون منها فرعا إلاّ وطلعت فروع كثيرة، ذات أشواك، فهم في معالجة أدوائهم كناقش الشّوكة بالّشوكة، إنّهم حاربوا الرّأسمالية فنجمت الشّيوعية، إنّهم حاولوا أن يستأصلوا الدّيمقراطية فنبعت الدكتاتورية، أرادوا أن يحلّوا مشاكل الاجتماع فنبتت حركة تذكير النساء".

إنّ الأكثريّة من رجال الحضارة الغربية المادية لا تزال تتوهّم أنّ منبع المصائب في فروع هذه الشّجرة، ويضيّعون أوقاتهم وجهودهم في قطعها، إنّهم لا يعلمون أنّ منبع الفساد في أصل الشّجرة، ومن السّفاهة أن يتقرّب الإنسان أن ينبت فرع صالح من أصل فاسد، وفيهم جماعة قليلة من العقلاء، أدركوا أنّ أصل حضارتهم فاسد ولكنهم لما نشأوا قرونا في ظل هذه الشّجرة وبأثمارها، نبت لحمهم ونشز عظمهم، كلّت أذهانهم عن أن يعتقدوا أصلا آخر غير هذا الأصل، يستطيع أن يخرج فروعا وأوراقا صالحة سليمة، وكلا

الفريقين في النّتيجة سواء، إنّهم يتطلّبون شيئا يعالج سقمهم ويريحهم من كربهم، ولكنهم لا يعلمونه ولا مكانه.

إنّ الوضع الكئيب الذي تحدّث عنه المفكّر الإسلامي **أبو الأعلى المودودي**؛ قد لخصه بمرارة العالم التقي السيد **أبو الحسن الندوي** بقوله: "لا يزال المجتمع العصري يستغني عن الرّوابط المنزلية والأرحام الدّموية والشرائع الخلقية، بتنظيمات شعبيّة على الخطوط السياسيّة والصّناعية والاقتصاديّة، ولا يهمّ المجتمع الآن كيف يعامل الولد والده والزّوجة وجها، إذا كان هؤلاء الأفراد لا يزالون في المدينة، وما دام لا يحدث عملهم هذا اضطرابا في المجتمع ولا يعرقل سير المدينة، فلا بأس إذا كان هناك عقوق من ولد، أو جفاء من زوج أو دعارة من امرأة، أو فسق من رجل، أو خيانة من زوجة".

كلّ هذا يحدّثنا عنه الشيخ **الندوي** وما صوّره **المودودي** من قبله، قد تسرّب إلى الوطن الإسلامي ثم تغلغل فيه، ففي الوقت الذي تتعالى صيحات الاحتجاج ممّا آلت إليه أوروبا وأمريكا من تفكّك الأسرة، وانحلال عرى الخلق الإنساني الكريم، نجد في أبناء البلاد الإسلامية من يتهاتف على هذا الفساد والضّياع وراء السّراب الذي حسبوه تقدّما وعلما، وما هو من ذلك في شيء، إنّما الذي حصلوا عليه في مجالات المعرفة لم يكن أبدا نتيجة الإعراض عن الله؛ وإنّما كان نتيجة العمل والجدّ والمثابرة... ولو أنّنا جمعنا بين هذا الأسلوب في العمل الذي يحثّ عليه الإسلام وأقمناه على القيم الخالدة لديننا، لأفاض الله علينا من نعمه ظاهرة وباطنة، وجعل لنا بعد عسر يسرا، وبعد هزيمة نصرا.

تجربتنا في مجاهدة الغزو:

إنّ للجزائر المجاهدة تاريخا حافلا في مجال جهاد الغزو الثّقافي، بالإضافة إلى جهادها المتواصل عبر عهود الاحتلال الصّليبي، فلقد كان الإسلام ولغته هدفين رئيسيين للاحتلال، إنّه ما إن استتب له الأمر حتى بدأ ينصب الكنائس محلّ المساجد، ويحول الأخيرة إلى كنائس، ومبالغة في إهانة المسلمين وإذلالا لشخصيتهم حوّل بعض المساجد إلى إسطبلات؟ أمّا العربية باعتبارها لسان الإسلام فلقيت من العصف والخنق والمصادرة ما لم ينزل بلغة أخرى في أرض الله، إنّها لا تُعلَّم إلاّ برخصته، وإذا طلبت هذه الرخصة فلا تعطى، وأفضع من ذلك، فإنّ متّعلمها لا يعتبر مثقّفا ولا يُنسب إلى أهل المعرفة؛ بل يوصف بحرفة أخرى فلاح مثلا، وهو يعني عندهم بالنّسبة للأهالي ذلك الخادم المسخّر الحقير، إلى أن أشاعت مقولة: "الفرنسية لغة الخبز، فمن لم يحسنها قطع عيشه"، وعندما قامت في الجزائر نهضة إسلاميّة عربيّة نادت بالعودة إلى الإسلام ولغته اهتداءً وعملا، واعتمد الشّعب على نفسه بعد اتّكاله على ربّه، فأخذ يؤسّس المدارس العربيّة الإسلاميّة الحرّة لقى معلّموها من العسف والاضطهاد ما لم يلقه أهل العلم في أيّ بلد، فمن إغلاق للمدارس إلى سجن وتغريم للمعلّمين إلى تنكيل، بكلّ من أسهم في إنشاء المدرسة إلى ملاحقة مستمرّة من قبل أعوان السّلطات، إلى مالا يعدّ من صفوف المضايقات، كلّ ذلك والعمل مستمرّ فإن لم يتيسّر جهرا فسرّا، ونشطت الصّحافة الإسلامية الوطنيّة في أذكاء روح المقاومة، فإذا صودرت صدرت سرا... وتحرّكت الطّاقات الشّعبية تدعّم ذلك الجهد الذي باركه الله، ودعّمته كلّ الفئات والحركات والأحزاب الوطنية، حتى وإن اختلفت في بعض أوجه العمل وأساليب التّحرّك، فإنّها متّفقة على وجوب الحفاظ على الشّخصيّة الإسلامية الجزائرية، والتّصدي للغزو الاستعماري في كلّ

الميادين، إلى أن كتب الله للجزائر أن تشهر سلاحها الحديدي بعد شحذ عزمها الإرادي، فكانت الثّورة الكبرى التي أتمّ الله بها نعمته على الجزائر والأمة الإسلامية؛ باسترجاع السّيادة وإعادة الأمر إلى أهله، والحمد لله من قبل ومن بعد.

إنّ السيد رئيس الجمهورية الجزائرية عندما زار علماء المسلمين، عند انعقاد الملتقى الثّامن عشر للفكر الإسلامي قال لهم: إنّ ثورة الجزائر ما قامت إلاّ على العقيدة الإسلامية، وما خاض المجاهدون غمارها إلاّ تحت لواء "لا إلا الله"، وفي ذلك شهادة للحقّ والتّاريخ، فلئن كان هناك من يشهد بأنّ الإسلام هو وحده المحرّر من الطاغوت الظّالم وأنّ لا سبيل للمسلمين إلى تحرير الأرض وصون المقدّسات إلاّ بالعودة إلى الإسلام... وأنّ عدو المسلمين والعرب هو عدوّ الإسلام قد يماز وهو العدو إلى يوم الدين ﴿**وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (120)**﴾ [البقرة: 120]، قل إن كان هناك من يشهد على صحّة كلّ هذا بيقين راسخ، فهم الجزائريون الذين عاشوا أيّام الغزو الشّامل، وعاشوا تجربة التّحرير، وذاقوا ثمرة الجهاد لصد الغارة على هذا الجزء العزيز من أرض الإسلام العربيّة.

مسؤوليتنا:

إنّ بيد المسلمين أن الهمهم الله رشدهم إمكانات ضخمة للمواجهة تفوق ما عند أسلافهم، المهمّ أن تصحّ العزائم وتسلم النّيات، وعندئذ سنتمكّن من دحر العدوان، وإقامة مجتمع العدل والإحسان تحت راية

القرآن، وللوصول إلى ذلك علينا أن نعّد مخطّطا عمليّا يعتمد تجميع كلّ ما لدينا من طاقات في المجالات البشرية والمعنوية والعلمية والمالية والاقتصادية وحتى الفنية؛ لردّ الباطل بالحق وإذاعة هذا الحقّ ونشره في أوطننا ثم في العالم أجمع؛ لأنّه الخير الذي أراد الله لأمة الإسلام أن تتّصف به، وتذيعه عندما أنزل: ﴿**وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (104)**﴾ [آل عمران: 104].

وعندما حدّد مهمة هذه الأمّة باعتبارها إمامة خيّرة راشدة فقال: ﴿**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (110)**﴾ [آل عمران: 110].

والله من وراء القصد، وهو مولانا ونعم النّصير.

القضاء على الاستعمار

يجب توحيد الجهود

معروف لدى كلّ عاقل أنّ الشّعوب الضّعيفة المغلوبة على أمرها، والتي لا حول ولا قوة ماديّة لها للدّفاع عن كيانها، ومطاردة الأجنبي القوي عن وطنها تستطيع أن تحدث لنفسها -رغم كذلك- قوّة معنويّة عظيمة، قد تتمكّن بها في يوم من الأيّام من محق الاستعمار وإجلائه عن أراضيها بصفة تامّة نهائية وهو ما يسمّونه (بالتّكتّل الشّعبي)...

فهذه القوة تكون بجمع كلمة الأمّة وتنظيم صفوفها؛ بانضواء جميع هيئاتها ومنظّمتها تحت لواء واحد، ووقوفها صفا واحدا في وجه الدّخيل المعتدي، تناقشه الحساب عمّ يرتكبه من مظالم ومآثم، وتجابهه وجه لوجه من أجل الحوزة وصون الكرامة الشّعبية، والتّعبير عن آلام الأمّة وآمالها؛ بحيث تكون لها لسانا نطاقا وترجمانا صادقا، لا تتنازل على مصلحتها في سبيل المصلحة الشّخصية؛ بل بالعكس تضحّي بكلّ عزيز في سبيل التّحصيل على الرّغائب القوميّة والحقوق الوطنيّة، مع الاستمرار على الكفاح ومواصلة الجهاد، رغم الصّدمات والعقبات إلى أن يقع اكتساح النّظام الاستعماري وتحرير الوطن من بين أظفاره تحريرا تامّا شاملا.

فتكتّل الأحزاب الوطنيّة ضد الاستعمار تمكّن الأمّة من الظفر بمقصودها وبلوغ مناها؛ لأنها -أي الأحزاب -كمضغة القلب في الجسد، إذا صلحت صلح الشّعب وإذا فسدت فسد، فإذا كانت متضامنة متكاثفة

متماسكة استقام أمر الشّعب ونظر إلى مستقبله نظرة أمل واطمئنان والفوز، وإذا كانت عكس ذلك مختلفة متناحرة مشتّتة الشّمل تلعب بها الأهواء، تتحكّم فيها الأعراض، عوض أن تعدّ العدّة لمقارعة الاستعمار ومكافحته ومصارعته في جميع الميادين، تنهمك في جمع القشور، وطرح اللّباب وتبادل الشّتم والتنابز بالألقاب، والتّزاحم على الرّئاسة الزّائفة والشّهرة الواسعة، والتّغافل عم يتطلّبه منهم الواجب القومي وعمّ تنتظر منهم الأمّة من أعمال نافعة، وجهاد كبير في سبيل سيادتها وعزتها آل بها الأمر، طال الزّمان أو قصر، إلى نبذها من طرف الأمّة واستبدالها بهيئة شعبيّة كبرى تملي عليها إرادتها وتصرفها حسب مصلحتها، تتكلم بلسانها، وتسير على وحيها، ولا يكون رجال هذه الهيئة الكبرى إلاّ رجال العلم والعمل، الذين كرّسوا حياتهم لخدمة الأمّة والسّهر على مصالحها، وضحّوا في سبيل ترقيتها بكلّ غنيم ورخيص، وعانوا من الأهوال والأوحال ومعاكسة الرجال، ما لو سقط على أعظم جبل في الدّنيا لدكّه دكّا، ولا تناثرت أجزاؤه وتبدّد نظامه، ولكنهم ثبتوا لذلك كلّه ثبات الرّواسي، ووصلوا العمل غير خائفين ولا وجلين ولا واهنين.

هذا نوع من الرّجال تبرزهم القدرة الإلهية في أوطانهم، عندما تريد إحيائها، فيندفعون لتقويم العوج وإصلاح الفاسد وإرشاد الضّال وتعليم الجاهل، ويدخلون غمار المعركة ضد الخصوم الأقارب والأباعد، سرعان ما ينجلي غبار وينكشف السّتار عن ميدان النّزال، آلا والألسنة تنطلق بالتّهليل والتّكبير: "الله أكبر... الله أكبر... هلكت خير وأتى النصر...".

هذا هو الحال عندنا بالجزائر، كانت تسيطر على الأمة شرذمة، استعمرت العقول بالأوهام فقضت عليها جمعية العلماء القضاء الأخير وانجلت من الميدان، فحمدنا الله على انهيار صرح الباطل ونهائيّا، واستبشرنا بالعهد الجليل، فإذا بأحزابنا السياسيّة فتحت في وجهونا بابا من الخصام جديدا، يقذف بضعها بعضا بأبشع الطّعن وأسوء قول، فيا ليته وقفوا عند هذا الحدّ بل تجاوزوا ذلك إلى التّنقيص من كرامة رجال العلم والعمل المخلصين، الذين بقوا وحدهم رافعين للواء المقاومة، لتعليم اللّغة العربيّة وتربية الأمّة على الهدايا الإسلامية، وترويضها على الأخلاق الفاضلة والآداب الكاملة.

يحاولون بذلك صدّ الأمّة عنهم، ليخلوا لهم الجو فيقودوها إلى الهلاك والدّمار... فهيهات هيهات لما يرمون فبينهم وبين ذلك خرق القتاد. وما عليهم إلاّ أن يعترفوا بالحقّ ويجعلوا (جمعية العلماء) حكما بين الأحزاب ويخضعوا لحكمها العادل عن طوع نفس، ولا يرمونها بالتّحيّز للشّخص أو الهيئة إن هي أشرف وأرفع من ذلك، وهي الهيئة الوحيدة التي آلت على نفسها الدّفاع عن الإسلام والعروبة، وإيجادهما بالجزائر.

ولا زالت تقوم بذلك إلى الآن، فأعمالها شاهدة على كلّ ذلك وهي أشهر من أن تذكر، وما على المناوئين إلاّ أن يكفّوا على الخصام، أمّا مجرد القذف بالزّور واختلاق الأكاذيب والأعاجيب فليس لهم من آثار صالح يعود بأي نفع على الجميع، إلاّ زيادة الطين بلّة وتوزيع جبهة الشقاق في الأمّة، والله يعلم وجميع العقلاء يشهدون أنّهم هم المعتدون، وأنّ مسؤولية ذلك يتحمّلها من بدأ بالهجوم.

نحو مجتمع متكامل أمر به الإسلام وكيف نصل إلى بنائه[1]

الأستاذ محمد الأكحل الشرفاء

السادة الموقرين علماء المسلمين،

أيها الإخوة الملتقون؛

أحيّيكم جميعا تحيّة من عند الله مباركة طيّبة، هذه كلمة متواضعة أسهم بها في ملتقاكم هذا المهيب في موضوع التّكافل بين المسلين، كما دعا إليه الإسلام، وما أرتئيه في مجال الوصول إلى هذا الهدف الأسمى في البناء الاجتماعي الإسلامي، أرجو تقبلها مني على ما فيها، تكرّما منكم وحسن خلق الله وليّ التّوفيق.

إنّكم تعلمون أنّ الإسلام أقام نظامه الاجتماعي، على قاعدة أساسيّة كبرى، هي الاستمداد من الله خالق الكون ورازقه ومدبّره ومالك مصيره، ومن ثمة بثّ في الأرض تلك الأمة الخيّرة التي تقوم على التّكافل بين أعضائها، وبذلك حقّق الإسلام دينه الوهلة الأولى لظهوره، مؤسّسة إنسانيّة اجتماعية كانت نواة ينبثق منها خير مجتمع أحسن للنّاس، شكّل أفراده وحدة متضامنة واجهت مقتضيات الحياة كلّها، بعزيمة راسخة وموقف صامد لا ينكص عند حلول الأزمات أو اشتداد الخطوب.

إنّ مبدأ الأخوّة الذي أقام عليه الإسلام بناءه الاجتماعي، شدّ كلّ الشّرائح الاجتماعية في الأمّة المسلمة حين استطاع تحويل الأفراد إلى كيان

(1) محاضرة ألقيت في الملتقى 12 للفكر الإسلامي ديسمبر 1984م-الجزائر العاصمة-.

متضامن خطا في الحياة خطوات متناسقة، نحو حماية الإنسان من الذّل والهوان، ودفعه إلى حياة العدل والإحسان والتكريم الإنسان تحت راية القرآن.

هذا التّشريع الذي نمت في ظلّه البشريّة بحياة العزّة والكرامة، قرونا بعد أن رسخت عهودا تحت القيود، وأتت تحت قاموس العبوديات، قبل أن يأذن الله بإخراجها من الظّلمات إلي النور بإذن ربهم إلى الصراط العزيز الحميد...

ينبغي الآن -وبكلّ عزم وجلّ الأقطار الإسلامية قد أعيد أمرها إليها- أن يُنظر من جديد في أوضاع شعوبنا ويقرّر ما يجب اتّخاذه من وسائل-على ضوء المنهج الإلهّي- لمواجهة المستجدّات القائمة في المجتمع المعاصر، وخاصة في هذه الفترة، مرحلة الصّحوة الإسلامية المعاصرة، وهم يعيشون بقايا هذه اليقظة، التي شاعت في مجتمع كان يوصي بالنّوم العميق والغفلة المطبقة، ولذلك فإنّ الصّحوة تعني البشر الذين ينامون فيستيقظون، لا المنهج الرّباني الذي ظلّ دائما كما يصفه رسول الله ﷺ حجة بيضاء ليلها كنهارها...

واجبنا إذا مواجبة الوضع المعاصر، قصد إعادة القافلة الشّاردة إلى مسارها المستقيم، والى القيادة الأمينة التي في ظلّها يتنفّس الجميع الهواء النقّي، الذي يملأ الجوانح صحّة ونقاء وزكاء، ويحيي الطّاقات بالعزم القويّ والإرادة المؤمنة؛ لإخراج النّاس إلى الرحيب، حيث يعيش الإنسان عبدا لربّه وحده، مهتديا بهديه، ومقتديا برسوله المصطفى ﷺ ومن ثمة يبدأ الإنسان ممارسة حياته الآدمية العزيزة استمداد ممّا أعطاه الله عندما أنزل:

﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (8)﴾ [المنافقون: 8].

مفهوم التّكافل:

إنّ رجائي أن تصحّحوا مفهومي للتّكافل كما أراده الإسلام، إذا سمعتم منيّما يجانب الصّواب؛ لأني والله يشهده لا أقصد أن أعرض أفكارا أنتم لا تعرفونها، فأنتم أسمى من أن تعاملوا بهذا الأسلوب؛ وإنّما أرغب أن أستشيركم فيما أرى، وأبثّ لكم ما أحسّ به في هذا المجال، باعتباري عضوا عاملا في ميدان الدّعوة الإسلامية منذ نعومة الأظافر، وما أزال ولله الحمد... أعيش في هذا الحقل لا أجدني أحسن التّحرّك أو أطبق التّنفّس في غير هذا الجوّ، إنّما هي نظرتي القاصرة إذن، أضعها بين أيديكم راجيا الصّفح عمّا لا تجدونه مستساغا منها، وحسبي نيّتي التي ما أردت بها إلاّ الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلاّ بالله، عليه توكلّت وإليه أنيب.

إنّ التّكافل يعني اشتراك المسلمين جميعا، في شعور بمسؤولية بعضهم عن بعض؛ أي الإيمان بأنّ الإنسان المسلم كما يسأل عن نفسه، وما قدم من فعل وما كان عليه من موقف، فإنّه بالتّالي يسأل عن غيره.. وإنّ هذا الإيمان لا يعتبر إيمانا صحيحا، إلاّ إذا تحوّل إلى إعلان صريح أي دعوة مبلّغة، وإلى فعل تطبيقي قائم عليها، وبذلك تَنْتَفي الانطوائية الانفرادية والأنانية الانعزاليّة في المجتمع المسلم، وهذا الانتقاء لا يزول من تلقاء نفسه بل لابدّ لنا من خطّة عملية جادّة في كلّ مجالات العمل؛ لإحلال الجماعية الإسلامية محلّ الانعزالية الوافدة علينا من خارج ديار الإسلام، مع الأدواء الغازية لفكر المسلم وخلقه.

جانبان لابّد من رعايتهما معا:

كلّ شيء جاء في الإسلام أو جاء به الإسلام، فإنّ التكافل لابّد أن نراه من ناحيتين: المعنويّة والماديّة، كما نهتمّ برعاية الجسم والروح معا... أي المنهج التّربوي الذي يجب اعتماده في مجتمع مسلم، لابدّ أن يعتمد على بناء هذا المجتمع من الطّفل إلى الراشد، منهجا تربويا إسلاميا يهتّم بالجانبين معًا، ويقدّم تصوّرا سليما يكون قاعدة لكلّ بناء اجتماعي في أي مجال... وكلّ هذا في فهمي يستمدّ من أمر الله لنا في قرآنه ﷻ: ﴿**وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (104)**﴾ [آل عمران: 104]، كما أن القرآن ألبس هذا الأمر ثوب المصلحة العامة والتّكافل بين المؤمنين، وذلك في قوله تعالى: ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (71)**﴾ [التوبة: 71].

وتنفيذا لمقتضى التّوجيه الإسلامي، وحبّ العمل على تغيير البنية الاجتماعية المتخلّفة عن الممارسات الاستعماريّة في شعوب الأمّة الإسلامية، وإحلال التّضامن الإسلامي محلّ التّفكّك؛ بل إنّ هذا التّضامن التّلقائي بدافع العقيدة الإسلامية كان قائما عندنا في هذا البلد الإسلامي والعربي، وذلك -على وجه الخصوص- أيّام الجهاد التّحريري... عندئذ كان شعبنا يضع في خدمة القضيّة كلّ ما تحت يده ومبلغ جهوده، في تلاحم نضاليّ مذهل، وكلّما اشتدّ البلاء وأدلّهم الخطب، وجدته -أي شعبنا- أكثر تلاحما وأوفر عطاءً، لقد شهدنا وشاهد النّاس معنا صورا من التّضحية والإيثار

ذكّرت بالخير الذي أتى به هذا الدّين والذي يؤتي ثماره مديدة على مدار الزّمان والمكان، كان فيما شهدنا وشاهدنا عبرة لنا في تلك الفترة، غير أنّ الأمم من ذلك ألا ننسى دروس التاريخ، وعبرة الأحداث، كما يريدنا القرآن الكريم عندما يقصّ علينا أنباء من سبق وما خلا، أمّا الجانب الثّاني للتّكافل الاجتماعي فهو ماديّ نراه من خلال مديد العون للمحتاج، وإغاثة المستغاث، وتسريح كربة المكروب، وتأمين الخائف، وإشباع الجائع، ورفع مستوى العيشة، حتى يصل الإنسان من الغاية إلى التّمتّع بطيّبات الحياة الدّنيا؛ التي ما خلقت إلاّ للإنسان، يأخذ المسلم منها نصيبه في الحياة الدنيا، وهي له خالصة يوم القيامة كما جاء ذلك في سورة الأعراف من كتاب الله تعالى.

وهنا لابد من مواجهة ظروفنا الجديدة ونحن نستلم زمام الأمور، ونستجيب لحاجات شعوب ذاقت الحرمان وعاشت الهوان، وهنا لابّد أن تكون انطلاقتنا أصيلة ومعاصرة في الوقت ذاته، أصيلة حيث تعود إلى ما فعله رسول الله ﷺ أوّل مقامه في دار الهجرة... ومعاصرة... وذلك باستعمال الوسائل والطّرق الملائمة للعصر، ومواكبة عجلة التّقدّم الحديث، فمن النّاحية الأولى تعلمون أنّ أوّل ما فعله رسول الله ﷺ في مجال التّكافل المعنوي والمادي معا، أنّه أعلن مبدأ الأخوّة بين المهاجرين والأنصار، وآخى بينه وبين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وكانت هذه المؤاخاة قائمة على المبدأ الإسلامي، الذي أعلنته آية الله البينة من سورة الحجرات وهي قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**

(10)﴾ [الحجرات: 10]، وبذلك أقيم أوّل مجتمع إنسانيّ بني على العقيدة، واقتلعت منه جذور العلاقات العصبيّة الجاهلية بين الناس.

وامتدت هذه الأخوة من مبدأ معلن إلى واقع معيش.. ولعل صوّر لنا هذه المؤسسة الإنسانية المتكافلة الآيتان التاسعة والعاشرة من سورة الحشر ومن قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (9) وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (10)﴾ [الحشر: 9-10]، أمّا النّاحية العمليّة، فتتمثّل في الحالات التي واجهناها هنا، وواجهتها شعوب أخرى من أمّتنا، إثر جلاء المستعمرين الغزاة عن الأرض المسلمة، والنّزوح الوافد الحاشد من الرّيف إلى المدن... بعد أن أحرق العدوّ المحاصيل، ودّمر البيوت، وأتلف الأرزاق، بعد يأسه من البقاء... كلّ ذلك أحدث للدّولة عندنا مشكلات، بعضها فوق بعض، مسّت التّربية والتّعليم والإسكان والإغاثة والرّعاية الصّحية وما إلى ذلك، فإنّنا لولا الرّصيد المذخور ممّا تزودنا به من تربية الإسلام لما أمكننا أن نواجه مثل تلك الحالة، التي تبدو بدون حلّ على الإطلاق، لو أنّنا اعتمدنا فقط الحسابات والمقاييس البشرية، بعيدا عن تربية الإسلام وأخلاقه، ولكن بالاستمداد من قيمه الخالدة وجدنا إخوانا يتنازلون عن كثير من حظوظهم لصالح إخوانهم بعقيدة أنّ «المؤمنين إخوة تتكافأ دماؤهم...»[1]، ورد ذلك عن رسول الله

(1) أخرجه أبو داود، والنسائي، وابن ماجة في السنن.

ﷺ، وبذلك مرّت الأزمة بسلام، غير أنّ مشكلات النّمو وتطوّر الواقع المعيش في دنيا النّاس، يتطلّب رعاية في مستوى الظّروف، كلّ ذلك يستدعي استحداث أجهزة ووسائل جديدة؛ لمعالجة الأوضاع باستمرار، وهنا لابدّ من العودة –كمسلمين– إلى ما شرع الحكيم الخبير ليهدينا سبلنا، ويلهمنا معرفة أدوائنا كان سببا للبحث عن علاج لجسمها.

عناصر متناسقة في المجال الاقتصادي:

ولكي نستطيع إقامة مجتمع التكافل ملبي بدعوة الإسلام من جهة، ومستجيبين لحاجات العصور من أخرى لابدّ من مراعاة هذه الخطوط في عملية التّنسيق بين الفكرة والتّطبيق.

1 - ربط الاقتصاد الإسلامي بالعقيدة، التي هي مصدر التّموين الرّوحي للمنهج، فإنّ العقيدة تدفع المسلم إلى التّكيّف وفقا للاتّجاه، بوصفه نابعا عن تلك العقيدة، وتضفي عليه طابعا ايمانيّا، وقيمة ذاتية، بقطع النّظر عن نوعيّة النّتائج الموضوعية، التي يسجّلها في ميدان التّطبيق العملي، وتحدث في نفس المسلم الاطمئنان النّفسي، في ظلّ المنهج باعتباره منبثقا عن تلك العقيدة التي يؤمن بها، فقوة ضمان التّنفيذ والطّابع الإيماني والرّوحي، والاطمئنان النّفسي، كلّ تلك الخصائص يتميّز بها الاقتصاد الإسلامي، وعن طريق العقيد الإسلاميّة التي يرتكز عليها، ويتكوّن ضمن إطارها العام؛ وهي لذلك لا تظهر لدى البعض إلاّ إذا درس الاقتصاد الإسلامي على ضوء العقيدة ومدى تفاعله معها.

2 - ارتباط الاقتصاد الإسلامي بمفاهيم الإسلام، عن الكون والحياة وطريقته الخاصّة في تفسير الأشياء، فالإسلام يرى أنّ ملكيّة حقّ رعاية تتضمّن المسؤوليّة، وليست سلطانا مطلقا، كما يعطي للرّبح مفهوما أرحب وأوسع ممّا يعنيه في الحساب الماديّ الخالص، يدخل في نطاق الرّبح -بمدلوله الإسلامي- كثير من النّشاطات التي تعتبر خسارة بمنظار آخر غير إسلامي...

ومن الطّبيعي أن يكون لمفهوم الإسلام عن الملكيّة أثره في كيفية الاستفادة من حق الملكيّة الخاصة وتحديدها، وفقا لإطارها الإسلامي، كما أنّ من الطبيعي أيضا أن يتأثّر الحقل الاقتصادي بمفهوم الإسلام عن الرّبح أيضا بالدّرجة التي يحدّدها مدى عمق المفهوم وتركيزه، وبالتّالي يؤثّر المفهوم على مجرى الاقتصاد الإسلامي خلال تطبيقه، فلا بدّ أن يدرس من خلال ذلك، ولا يجوز أن يعزل عن تأثير المفاهيم الإسلاميّة خلال التّطبيق.

3 – ارتباط الاقتصاد الإسلامي بما يثبته الإسلام في البنية الإسلاميّة من عواطف وأحاسيس، قائمة على أساس مفاهيمه الخاصّة؛ كعاطفة الأخوّة العامة التي أشرنا إليها في انطلاقة المجتمع الاسلامي على يد بانيه بأمر الله، تلك المشاعر الأخوية استطاعت أن تفجّر في قلب كلّ مسلم ينبوعا من الحبّ للآخرين، ومشاركتهم في آلامهم وآمالهم، هذه المشاعر أنتجت أثرا كبيرا في تكييف الحياة الاقتصادية وساندت المنهج فيما يستهدفه من غايات.

4 - الرّبط بين الاتّجاه الاقتصادي والسّياسة المالية للدّولة إلى مستوى يسمح باعتبار السياسة المالية جزءا من الخطّة الاقتصادية للإسلام؛ لأنّها وضعت بصورة تلتقي مع السياسة الاقتصاديّة العامة، وتعمل لتحقيق

أهداف الاقتصاد الإسلامي، فالسّياسة المالية في الإسلام لا تكتفي بتموين الدّولة بنفقاتها اللاّزمة، وإنّما تستهدف إلى ذلك المساهمة في إقرار التّوازن الاجتماعي والتّكافل العام، ولهذا كان ضروريّا اعتبار السّياسة الماليّة جزءا من السّياسة الاقتصاديّة العامّة، وإدراج الأحكام المتعلّقة بالتّنظيم المالي للدّولة ضمن هيكل التّشريح العام للحياة الاقتصادية.

5 - الرّبط بين الاقتصاد والتّشريع الجنائي في الإسلام، فالتّكافل العام والضّمان الاجتماعي في الاقتصاد الإسلامي يلقيان ضوء على طبيعة العقوبة التي فرضت على بعض الجنايات... إذ تبدو عقوبات قاسية إلى حدّ لا يعقل في بيئة لا تقوم على تعاليم الإسلام، تركت فيها الكثرة الهائلة من النّاس لرحمة القدر، وزحمة الصّراع، وأمّا حيث تكون البيئة إسلامية، وتوجد التّربة الصّالحة، بالتّربية والتّكوين لإعداد الجيل المؤمن والملتزم للاقتصاد الإسلامي، فليس من القسوة في شيء أن يعامل الجاني بما أمر الله تعالى أن يعاقب به، بعد أن وفّر له التّشريع الإلهي كلّ أسباب الطمأنينة ومقتضيات العدل، وشروط الحياة الإنسانية الكريمة، وملخّص القول أنّ العقوبات الإسلامية إنّما تندرج في إطار التّكافل العام حيث؛ يستهدف بها التّشريع الإسلامي حفظ الإنسان ورعايته حياة ومالا وعرضا، وما الوجود الكريم للآدمي خليفة الله في الأرض إلاّ في هذا.

مسألة الضمان الاجتماعي:

إنّ المسلمين جميعا أمة واحدة -كما تعلمون- تستمدّ وحدتها من وحدانية الله تعالى، تلاحما عضويّا بين العقيدة والمضمون الاجتماعي لها، ودليل ذلك في فهمي المتواضع قوله تعالى: ﴿**إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا**

رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (92)﴾ [الأنبياء: 92]، وهذه الوحدة نلمس واقعها العملي في تآلف القلوب وتعاطفها، وتآزر العقول وتظافرها، وما الدّولة إلاّ الأداة العمليّة لتجسيم هذا المفهوم وإبرازه إلى الواقع المتّحرك في دنيا الناس، فهي -أي الدّولة- تبزر هذا الواقع بما توفّره من ضمانات معيشية لأفراد المجتمع الإسلامي، وهي تقوم بهذه المهمة على مرحلتين:

الأولى: بما تعّده للفرد من وسائل العمل وفرص المساهمة الكريمة في النشاط الاقتصادي المثمر؛ ليعيش على أساس عمله وجهده، فإذا كان الفرد عاجزا عن العمل وكسب معيشته بنفسه، كسبا كاملا أو كانت الدّولة تواجه ظروفا استثنائية صعبة تعيقها عن توفير فرص العمل، جاء دور المرحلة الثانية التي تمارس فيها الدّولة تطبيق مبدأ الضّمان عن طريق توفير المال الكافي لسدّ حاجات الفرد وتوفير حدّ أدنى من المعيشة له.

ومبدأ الضمان الاجتماعي يقوم على ركيزتين:

الأولى: التّكافل العام.

الثّانية: حقّ الجماعة في موارد الدّولة العامة، فالأساس الأوّل للضّمان لا يقتضي أكثر من إشباع الحاجات الحياتيّة والملحّة للفرد، بينما يزيد الأساس الثّاني على ذلك ويفرض إشباعا أوسع ومستوى أرفع من الحياة.

والدّولة يمكنها ممارسة الضّمان الاجتماعي في حدود إمكاناتها على مستوى كلتا القاعدتين.

سبل مقترحة للوصول إلى ذلك:

أ - تسخير كلّ أجهزة العمل المتوفّرة لدى الدّولة؛ لإيقاظ الوعي الإسلامي عند كلّ الأفراد في المجال التّربوي.

ب - وضع منهج للتّربية الإسلاميّة يهتمّ بقضايا الكفالة الاجتماعية، روحا ومادة تتدرّج مع مراحل التّعليم كلّها إلى المستوى الذي تكتمل فيه شخصيّة الطّالب؛ بحيث يقوى على الاستنتاج والاستنباط المستقلّين، وذلك من خلال البحث والدّراسة ولدر تصوّر لمحاور ينبغي أن تدرج في المخطّط التكويني، أرجو السّماح بذكرها لحضراتكم على سبيل المثال لا الحصر وهي الآتية:

1 - كفالة ذاتيّة للإنسان المسلم تبدأ بالبناء الذّاتي للشّخصية الإسلامية، دليل ذلك قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (11)**﴾ [الرعد: 11].

2 - كفالة عائلية تنبع من وصايا القرآن والسنة، ودليلها قوله ﷻ: ﴿**وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (23) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (24)**﴾ [الإسراء: 23-24]، وهنا لابدّ أن نركّز على رعاية الأبوة والأمومة بمفهومها الإسلامي، ونطرد التيارات الانحرافية المتنكّرة لذلك.

3 - إحياء فكرة الكفالة العائليّة وتفقيه النّاس في التّوجيه الإسلامي، الوارد في شأن ذلك من مثل قوله تعالى: ﴿**وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى**

بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (6)﴾ [الأحزاب: 6].

4 - رعاية النّبوة واستنقاذها من بين مخالب التّهويد والتنصير، وإعادة بنائها التّربوي على المثل التي نبّه إليها التوجيه النبوي الشريف بقوله ﷺ: «كل مولود إنما يولد على فطرة... إلخ»[1]، الحديث الشريف.

5 - توعية المجتمع بأهميّة التّوريث، وأنّه لا يقتصر على وراثة المال والمتاع؛ وإنّما يندرج ضمن العدالة الإلهية في وراثة الأنبياء ما يتسرّب إليهم من الآباء خلقا وخلقا أيضا.

6 - بعث اليقظة العامة، وإنعاش الرّوح الجماعية المسؤولة عن كلّ ما يجري في المجتمع المسلم، ومقاومة اللاّمبالاة التي تفشو مظاهرها على الحياة العامة المشتركة، الحديث الشريف الذي أخرجه البخاري والترمذي واللّفظ للبخاري: «مثل القائم على حدود الله، والواقع فيها كمثل قوم استهموا في سفينة، فأصحاب بعضهم علاها وبعضهم أسفلها إذا استقوا مروا على من فوقهم قالوا: "لو خرقنا في نصيبنا هذا خرقا فلم نؤت من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا، إن أخذوا على أيديهم، نجوا ونجوا جميعا»[2].

وسائل مقترحة لبثّ الوعي الاجتماعي:

(1) متفق عليه، أخرجه البخاري ومسلم.

(2) أخرجه البخاري في الصحيح، والترمذي، والنسائي في السنن.

1 - خطة إعلامية مستمرة، ولا أقول حملة تشنّ لفترة معينة ثم تنسى، هدفها بثّ فكرة التّكافل المعنوي والمادّي معا، داخل المجتمع الخلص ببلد مسلم، وربط الصّلة بين هذه الأجهزة المقروءة والمسموعة والمرئية، في كلّ البلدان الإسلامية؛ لإعادة فكرة الأخوّة والتّضامن بين المسلمين، والاتّفاق على منع أيّ دعاية تنال من الوحدة الإسلامية، أو تعمل بشكل أو بآخر لإحداث الفرقة والاختلاف بين شعوبنا.

2 - منع إذاعة أو نشر أو عرض ما يختلف فيه المسلمون من أوجه الرّأي ديناً أودنيا؛ حتى نتجنب تمزيق الصفّ والنّيل من التآلف والمحبّة بيننا.

3 - تخصيص حصص توجيهيّة في التّكافل الاجتماعي تعرض فيها صور لذلك الواقع التّاريخي للأمّة الإسلاميّة عهد الرّسالة والخلافة الراشدة، وما تبع ذلك من صور الاهتداء والاقتداء عبر العصور والأجيال.

4 - إسهام كلّ مراكز التّكوين مدنية وعسكرية، رياضية وفنيّة لاعتماد خطّة تربوية لبناء جيل متكافل.

5 - إسهام المسجد -أوّل مؤسّسة في الإسلام- في بث الوعي الإسلامي الاجتماعي، وهو أقرب مؤسّسة لقلوب المسلمين وعقولهم، وبهذا الصّدد ينبغي إعداد دروس جدية في بثّ الفكرة التّضامنية، والقيام بمبادرات ذكيّة من الأئمّة والوعاظ إزالة أسباب الفرقة والانقسام، وإصلاح ذات البين والمسلمين، وتتبع أثر الوعظ والإرشاد في حياة الأفراد والجماعات في البيت والشّارع وأماكن العمل، وفي كلّ مَواطِن النّشاط في المؤسّسات، وهي محبّة كان الإمام ينبض بها وينال بها رضوان الله وثقة النّاس واحترامهم.

مسؤولة الجهة الشرعية في مجتمع مسلم:

هناك حدّان تتحدّد بينهما مسؤوليّة الجهة الشرعيّة في مجتمع مسلم في ضوء ما سبق:

1. تطبيق العناصر الثّابتة في الاقتصاد الإسلامي.
2. ملء العناصر المتحركّة وفقا لظروف الواقع و على ضوء التّوجيهات الإسلامية العامّة التي سبق ذكرها.

وعن هذين الخطّين تتفرّع مسؤوليّات تفصيليّة عديدة؛ منها: الضّمان الاجتماعي والتّوازن الاجتماعي، ورعاية القطاع العام واستثمار بأقصى درجات الإمكان، والإشراف على حركة الإنتاج في مجملها، وإعطاء التّوجيهات الضّرورية بهذا الصّدد، تفاديا لمشاكل الفوضى في الإنتاج؛ بوضع سياسة اقتصادية لتنمية الدّخل الكلّي للمجتمع، ضمن الصّيغ التّشريعية التي تتّسع لها صلاحيات الضّرورية الولاية الشّرعية، ومسؤوليّة الحفاظ على القيم التبادلية للسّلع وإشكال العمل، ومقاومة الاحتكار في كلّ مجالات الحياة الاقتصادية لها مسؤولية الضمان الاجتماعي، فهي أساسا ترتكز على إيمان الإسلام بحقّ الجماعة كلّها في الانتفاع بثروات... وتنشأ من هذا الحقّ المسؤولية المباشرة لولي أمر المسلمين في ضمان مستوى الكفاءة من العيش الكريم لجميع أفراد المجتمع، وذلك بتوفير العمل لمن كان قادرا عليه، وبإعالة الأفراد العاجزين عن العمل، أو الذين لم يمكن توفير فرص الشّغل لهم، والرّصد الذي خصّصه الإسلام لعمليّة الضّمان الاجتماعي، وتمكين الدّولة من أداء مسؤوليتها بهذا الصّدد يتمثل إضافة الى الفرائض الماليّة التي أوجبها

على الأفراد من زكاة وخمس في القطاع العام، الذي أنشأه الاقتصاد الإسلامي، و يأمر ولي الأمر أن يصرف منه على المعوزّين من أفراد المجتمع قال الله ﷻ: ﴿**وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (6) مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (7)**﴾ [الحشر: 6-7].

و أمّا التّوازن الاجتماعي فهو يبني:

1- توفير حدّ أدنى من اليسر والرّفاه لكلّ أفراد المجتمع وذلك – كما ذكرنا – بالارتفاع بمستوى العيش المنخفض إلى ذلك الحدّ الأدنى، والآية الكريم من سورة الأعراف تشير بأنّ لا مانع من وصول الإنسان المسلم إلى الاستمتاع بطيّبات الرّزق وزينة الحياة الدنيا، بل أنّللإنسان المسلم الحقّ في الحصول على نصيبه من ذلك في الدنيا، وهي خالصة ليوم القيامة: قال: ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (32)**﴾ [الأعراف: 32].

2- التّحديد في الإنفاق والمنع من التّجاوز، وتلك صفة المسلم الملتزم بالخطّ الإسلامي عملا وسلوكا: ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (67)**﴾ [الفرقان: 67].

3- اتّخاذ ما ينبغي من إجراءات لمنع الاحتكار وتكدس الأموال في أيدي الاحتكاريّين دون أن تجد لها طريقا للتّداول في المصالح العامة، والصّدى لتوفير إمكانيات العمل و فرص الإنتاج للجميع، ومن الواضح أنّ النّمو الطّبيعي للمجتمع ضمن إطاره الاقتصادي السّليم، لا يسمح بوجود ظاهرة التّكديس والاحتكار التي نشأت في المجتمع الغربي، واستقطبت الحياة الاقتصادية فيه، ومن هنا يكون التّطبيق السّليم لقواعد الاقتصاد من طرف الدّولة خير وقاية من حدوث هذه الظّاهرة والحفاظ على التّوازن الاجتماعي، ولكن في حال ظهور تلك الأعراض فإنّ على الجهة الشّرعية المسؤولة في المجتمع اتّخاذ الإجراءات الضرورية، وفقا لصلاحياتها؛ لإعادة التّوازن الاجتماعي، ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، فقد عمل فور وصوله إلى المدينة المنورة لإجلال التّوازن بين مستوى المال الجيّد نسبيّا للانتصار في مدينتهم، وبين المستوى المنخفض جدّا للمهاجرين فقد قاسمهم الرّسولﷺ في الأموال والمساكن، وبذلك أقام مثالا رائعا لأوّل مجتمع متكافل أخرج للنّاس في الأرض.

- تكافل بين شعوب الأمة الإسلامية:

إذا كانت الصّورة المعروضة كفيلة بإقامة أسس سليمة لمجتمع إسلامي في حدود بلده ومؤسّساته الخاصة، فإنّ تكافلا عاما بين المسلمين عموما يجب أن يقوم، قد عاش شعبنا في الجزائر مثل أشقّائه في بلدان المسلمين عموما، فكرة التّضامن مع إخوته في العقيدة واللّغة والحضارة والتّاريخ المشترك فتعاطف أخويّا ما جرى بالمشرق في محنه المتلاحقة، وهبّ بما أتيح له للنّجاة مع ضيق ذات اليد والعيش تحت كابوس الاحتلال...فلا ننسى تلبية لنداء

علمائه على رأسهم الإمام **عبد الحميد بن باديس** للتّبرع بجلود الأضاحي (أضاحي عيد النحر) إرسال ثمنها إلى المجاهدين بفلسطين، عندما بدأت تظهر مؤشّرات التآمر في القضيّة الفلسطينية، كما لاننسى الجبهة الوطنية التي دعّمها الشّعب كلّه هي جبهة الدفاع عن فلسطين، وعندما أعلن قيام الكيان الصهيوني المغتصب عن للجهاد هبّ شعبنا للمشاركة فيه؛ ولكن كلّ الأبواب صدّت في وجهه فأقدم مجاهدون على الالتحاق بجبهة الجهاد الفلسطيني مشيا على الأقدام إلى الأرض المقدّسة، كما لا ننسى الجزائر هي الأخرى صورة التّضامن الذي تلقّته من أخواتها شرقا وغربا أيّام الجهاد؛ لتحرير الأرض واستعادة السّيادة، أمّا موقفها بعد التّحرير في مجال التّكافل، ونصرة الحق والعدل والحرية، فهو لا يحتاج إلى ذكره ووجود ملتقى إسلامي هنا للنّظر في قضايا الإسلام والمسلمين أحد البراهين على ذلك.

أيها الإخوة...

إنّ حاجتنا اليوم إلى التّكافل أمسّ منها في أيّ ظرف، ووصلتنا الاقتصادية، وذلك بالإضافة إلى مبادلات أخرى هو استفراغ الطّاقة، وبذل أقصى الجهود والسّعي الى بلوغ الاكتشاف الذاتي كمرحلة ملحّة لا يجوز التّهاون في العمل لها، ذلك لا يكون إلاّ باستغلال مواردنا وإمكاناتنا، وهي بحمد الله كثيرة ووفيرة، حلّها في خدمة أمّتنا، وأرى أنّه يمكن اقتراح ما يأتي بهذا الصدد.

1 - تبادل الخبرات بين بلداننا، وذلك بتوفير الاحتياجات الضّرورية لكلّ بلد، فمثلا نوفّر اليد العاملة للبلد الذي يحتاج إليها، بينما نستثمر الثّروة

التي في البلد الآخر؛ إذ كثير من البلدان تتوفّر على جانب بينما تفتقر إلى الجانب الآخر.

2 - التّخلّص من ضغوط الخارج؛ بسبب الاحتياج إلى ما نستورده منها وبذلك تفرض علينا قيودا تعوقنا عن انجاز ما نريد، وتعيق مشروعاتنا عن بلوغ أهدافها في الآجال المحدّدة.

3 - وضع خطّة إحصائية لمواجهة الاحتياجات في ميادين التّخصّص، والتّعاون على موازنة ذلك بين بلداننا حتى نعد ما نحتاجه بطريقة منطقية لا تسمح بإهدار الأموال في غير ما يحتاج إلى ذلك.

4 - إزالة الحواجز التي تعوق الاتّصال والتّبادل بين سكّان بلداننا.

5 - تسيير الحصول على الكتاب الإسلامي الجيد ووصوله إلى كلّ بلد إسلامي.

6 - العمل في نطاق المؤسّسات المسؤولة في البلدان الإسلامية لإنتاج صناعات إسلاميّة، تستفيد من الخبرة المعاصرة في المراحل الأولى، وترق في مراحل متقدّمة لاحقة إلى إنتاج ذي الطّابع المميّز حتى لا يبقى المسلمون عالّة على الإنتاج الخارجي؛ وبذلك نتحرّر من كافّة الضّغوط، ونتمكن من امتلاك إرادتنا الحرّة المستقلّة.

7 - تأسيس منظّمات في مستوى الأمّة الإسلامية تعني بالأيتام والمعوزّين والشّيوخ والعجزة وضحايا النّكبات النّازلة بالشّعوب الإسلامية.

8 - تكوين جهاز إعلامي لبثّ الفكر الإسلامي، تنونه البلدان الإسلامية.

9 - توجيه الضّغط من كافة الطّاقات في الوطن الإسلامي؛ لإيقاف النّزيف الدّموي بين الإخوة الأشقّاء، وإعادة السّلم والسّلام إلى أرض الإسلام.

10 - تأليف موسوعة إسلاميّة يشرف عليها مجمع إسلامي

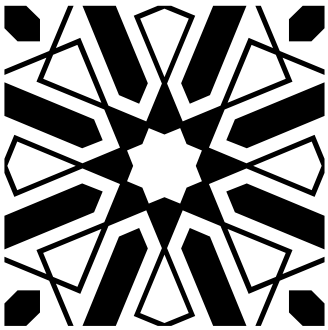

محاضرات ألقيت في أوروبا في الثمانينيات في مجال الدعوة

العناصر الأساسية للتّربية الإسلاميّة[1]

أحييكم بتحية الإسلام، تحيّة من عند الله مباركة طيبة.

وأبلغ تحيّة الأخ الصديق فضيلة الأستـــاذ الشيخ (**عبد الرحمن شيبان**) وزير الشؤون الدينية الذي شرّفني بتمثيله في ملتقاكمهذا، وهو يأمل أن لو تيسّرت له الظّروف ليشهدا هذا اللّقاء المبارك ويسهم فيه، غير أنّ مهامه العديدة حالت دون ذلك وهو يرجو أن يكلّل الله جهودنا بالتّوفيق.

إنّ الموضوع الذي تقرّر إسناده إليّ في هذا الاجتماع من أهمّ ما يجب درسه بكلّ جدّ؛ علما بأنّه لا مجال لبعث أمّة مسلمة تؤدّي ما ألقى الله عليها من مسؤوليات نحو ربّها، ومجتمعها والبشريّة كافة باعتبار شهيدة على الناس: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (143)**﴾ [البقرة: 143]، ولا سبيل لإعادة بناء مجتمع إسلامي إلّا بوضع مخطّط تربوي على الأسس ذاتها التي بنىعليها رسول الله ﷺ وتابع خطّه في ذلك الرّاشدون من خلفائه، ومن أتبعهم من أجيال هذه الأمّة بإحسان، وأنّ أحوال المسلمين في هذه المرحلة الحرجة من تاريخهم تجعلهم أحوج ما يكونون إلى إعداد الفرد المسلم، والبيت المسلم بلوغا إلى إعادة تشكيل المجتمع المسلم، وإمام المدينة **مالك بن**

(1) ألقيت هذه المحاضرة في نورويش-بريطانيا -يوم الأحد 07/ 11/ 1982م.

أنس تربطنا بنهجه في التّشريع الفقهي الإسلامي رابطة خاصة، نحن أبناء المغرب العربي امتدت عبر التّاريخ العريق في القدم، وما تزال أغلبيّة شعوبنا تأخذ باجتهاده، وخاصة في المغرب الأوسط، الجزائر، واعتقادنا أنّ الخط المالكي في مجال التّربية والتّوجيه يعتمد قواعد أصيلة يمكن أن تتجاوب مع الفكر الإسلامي الشّامل، الذي لا تفرّقه الاختلافات المذهبيّة، فهو أساس يعتمد الكتاب والسنّة الصّحيحـــــــةالمقطوع بصحّتها بلا خلاف، ويضيف إلى ذلك عمل أهل المدينة.

أمّا البناء على الكتاب والسنّة فهذا ما لا ينازع فيه أحد كما ذكرت، وأمّا عمل أهل المدينة فهو يمثّل ما أجمعت عليه مناهج التّربية الحديثة، من وجوب دخول الطلاب مرحلة التّنفيذ والتّطبيق، بعد تلقّي المعارف النّظريّة من أساتذتهم في المعاهد، علما بأنّ المنهج الإسلامي في بناء الإنسان المسلم يعتمد أوّلا على البلاغ -أي نقل المعرفة -وهو ما فعله الرسول ﷺ في تبليغ الرّسالة، وأمّا الجانب الثّاني فهو القدوة أو المثال؛ أي أنّه جعل من قوله وفعله وسلوكه الشّخصي ترجمة عمليّة للدّعوة التي بعث لنشرها، وبناء البشر عليها-عليكم بسنتي – كلكم راع-أما عمل أهل المدينة، أنّ الذين عرفوا رسول الله ﷺ وعايشوه واستضاءوا بنور الله الذي أنزل معه، فهم الخليّة الأولى للبناء الإسلامي كلّه... هذا البناء الذي أراده الله راسخ القواعد قوي الأركان، تعلوا طوابقه صاعدة نحو الأعلى، لا ينال منها أيّ كان ولا يقوضها عدوان.

وقد كان لإمام النّهضة الإسلامية العربيّة في الجزائر عبد الحميد بن باديس أثر في تذكيرنا بإمام دار الهجرة، وذلك بتدريسه موطأ مالك درسا

على الطّريقة السّلفية، واحتفاله بذلك احتفالا شاركت فيه وفود من كلّ مناطق البلاد.

كذلك كانت عبارة الإمام **مالك** على غلاف كلّ عدد من مجلّة "الشهاب"الشّهرية ونصّها: "لا يصلح آخر هذه الأمة إلاّ بما صلح به أوّلها" مالك بن أنس.

والتّربية لا يمكن أن تكون عمليّة إلاّ إذا وجد مجتمع يتحلّى بها، ومجتمع المدينـــــة شاهد رسول الله ﷺ في كلّ أطواره ومجالات نشاطه، منذ هجرته إلى وفاته لذلك كان – أي مالك – في اعتماده عمل أهل المدينة له من الوجاهة ما يرفعه إلى مستوى ما بلغته أرقى المناهج التّربوية المعاصرة وأحدثها، يؤيّد هذا ما ذكره **ابن تيمية** في رسالة: " أصول مذاهب أهل السنة عندما قال: "وفي القرون التي أثنى عليها رسول الله ﷺ كان مذهب أهل المدينة أصحّ مذاهب أهل المدائن، فإنّهم كانوا يتأسّون بأثر رسول الله ﷺ أكثر من سائر الأمصار، وكان غيرهم من أهل الأمصار دونهم في العلم بالسنة النّبوية واتباعها، حتى أنهم "يفتقرون إلى نوع من سياسة الملوك، وإنّ افتقار العلماء ومقاصد العباد أكثر من افتقار أهل المدينة، حيث كانوا أغنى من غيرهم عن ذلك كلّه؛ بما كان عندهم من الآثار النّبوية التي يفتقر إلى العلم بها واتباعها كلّ أحد".

ولهذا لم يذهب أحد من علماء المسلمين إلى أنّ إجماع أهل مدينة من المدائن حجة، يجب اتباعها غير المدينة لا في تلك الأمصار ولا فيما بعدها لا إجماع أهل مكة ولا الشّام ولا العراق، ولا غير ذلك من أمصار المسلمين،

وأمّا المدينة فقد تكلّم النّاس في إجماع أهلها، واشتهر عن مالك وأصحابه أنّ إجماع أهلها حجّة، وإن كان بقية الأئمة ينازعونهم في ذلك، والكلام إنّما هو في إجماعهم في تلك الأمصار المفضلة، وأمّا بعد ذلك فقد اتفق النّاس على أنّ إجماع أهلها ليس بحجّة، إذا كان في غيرها من العلماء ما لم يكن فيها.

هذا والأمصار المفضلة التي عناها **"تقي الدّين"** هي الواردة في الحديث الشريف الذي صحّ من وجوه، وهو قول رسول الله ﷺ: «خير القرون الذي بعثت فيه ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»، وفي رواية: «خير القرون قرني...»[1]. هذا ومعلوم أنّ عمل أهل المدينة يعتمد عليه الفقه المالكي، يخصّ الجانب التّشريعي أساسا، إلاّ أنّ البناء التّربوي في الإسلام المجالات كلّها من عقيدة فعبادة فتشريع فآداب، إذلا يمكننا فصل أيّ من هذه الجوانب عن الأخرى؛ لأنّها متداخلة، فالعقيدة هي الأصل والعبادة هي الممارسة العملية لمقتفي العقيدة، والتّشريع هو النّظام الذي يجب اتّباعه لمعرفة علاقة الإنسان بنفسه، ومعرفة وجوده وما يحق له ويجب عليه نحو ذاته ونحو ربه ونحو من يعايشه من بني جنسه ومن غير بني جنسه ونحو الكون من حوله، ثم ماهي الصّفات والمميّزات التي أرادها الله لهذا الإنسان الذي خلقه من طين ونفخ فيه من روحه، حتى إذا استوى بشرا ألقى عليه مسؤوليّة الخلافة في الأرض.

(1) أخرجه الترمذي في السنن، والطيالسي في المسند، والطبراني في الأوسط، ولفظه عند الطبراني: «خير قرن القرن الذي أنا فيه ، ثم الثاني ، ثم الثالث ، ثم الرابع فلا يعبأ الله بهم شيئا».

من خلال هذا المنهج الرّباني يمكن معرفة كلّ الصّفات التي على الإنسان أن يتحلّى بها وفي الوقت ذاته عليه أن يعرف الصّفات المضادة لها حتى ينجو من الهلاك، ويحقّق ما أمرهبّه ربه الذي إليه ينتهي كلّ كدحه عندما يحين أوان اللّقـــاء: ﴿**يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (6)**﴾ [الانشقاق: 6].

أيّها السّادة المحترمون:

لقد كنتم موفّقين حين اخترتم دراسة "العناصر الأساسية للتّربية الإسلاميّة" موضوعا لبحث هذا الملتقى، هذه العناصر التي علينا أن نستنبطها من المنهج التّربوي الشّامل كما جاء به الكتاب المنزّل، وكما نفذه النبي المرسل ﷺ، وكما استمر عليه اقرارا وتطويرا من دعا بدعوة الرّسول واستقام على نهجه من الصّحابة والتابعين ومن سلك النّهج بإحسان إلى يوم النّاس هذا.

إنّ المنهج التربوي في الإسلام – حسب رأي المتواضع -لا بد أن يرتكز على الأسس الآتية:

- التربية في مجال العقيدة.
- تأليف الأسرة.
- غرس الأخوة .

أوّلا: التّربية في مجال العقيدة .

وهذا هو المجال الانطلاقي لكل عمل إسلامي، مهما كان نوعه؛ إذ لا يقبل الله من الإنسان قولا أو فعلا، إلاّ إذا قام أساسا ومبدأ ومنطلقا على الإيمان بهذه المرتكزات الأساسية للحياة كلّها إنسانا وحيوانا وكونا، وحرية الإنسان ووجوده ورسالته ومصيره، كلّ أولئك مرهون بالعقيدة.

والعقيدة الإسلامية قائمة على رفض الرّبوبيات الزّائفة؛ أي رفض الباطل والوهم والخرافة والعدوان على كرامة الإنسان، والدينونة للإله الحق ربّ السّموات والأرض وما بينهما، ومن خلال هذه العقيدة الصّافية السّامية إلى مصدر الحق والخير والقوة والسّعادة الخالدة، فلا تبقى أمامه علامات استفهام تخنق حياته، وتحيطه بالضّيق والكآبة والقلق؛ بل إنّه سيجد من عقيدته الإسلامية دافعا يحفزّه إلى العمل الجاد المستمر راضيا مطمئنا، وكلّما ذكر الله ﷻ ازداد طمأنينة ورضا، فيسعى لإصلاح ما بنفسه، ويعمل بتبليغ رسالة ربّه ويواجه الخرافة والأوهام بمنطق الحق الواضح، الذي جاء به الكتاب المنزل وبينه سلوك النبي المرسل ﷺ، ومن هنا تزول الحيرة والتخبط، وينشأ العمل الجاد والسلوك القويم والطمأنينة النفسيـــة: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (28)**﴾ [الرعد: 28].

إنّ كلّ استقامة سلوكيّة وتعامل عادل بين الناس، أفرادا ومجتمعا وحكاما ومحكومين... لا يمكن أن تحصل عليها بعيدا عن العقيدة الإسلامية؛ لأنّها فيها التّصور الاعتقادي السّليم، الذي يحرّر الإنسان من الخوف والطّمع، ويطلق عقله من قيـــــــود الجهالة والوهم، ويدفعه إلى التّفكير والتأمّل في ملكوت السموات والأرض على نحو مستقيم، مستمدّا منابع الفكر من مصدرها الزّاخر الذي لا تنفذ منابعه: ﴿**مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ**

اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (96)﴾ [النحل: 96]، ﴿**قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (109)﴾** [الكهف: 109].

إنّ أول ما يجب أن نزوّد به الطّفل المسلم، ونتابع تعزيزه في أطوار حياته كلّها بكلّ الوسائل التّربوية، هو العقيدة الصّافية التي صوّرتها سورة الإخلاص بقوله ﷻ: ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (4)﴾** [الإخلاص: 1-4]، وطبيعي أنّ هذه السّورة تقرّر وحدانية الله المطلقة، وهذه الوحدانية هي الضّامنة لوحدة الشّخصية فلا تتمزّق، ووحدة الأسرة فلا تتفرق، ووحدة الأمة فلا تتفرق، ولا شيء كان جامعا جمع السّلف الصّالح إلاّ ما استكن في صميم العقيدة الإسلامية، من وحدانية الله تعالى ومن ثمة جاءت وحدة القيادة والتّوجيه، ابتداء من قيادة البيت وزعامة الأسرة، إلى قيادة الجيش وإمامة الأمّة، وبهذه الوحدانية نعيش في مأمن من كلّ عادية؛ لارتكازنا إلى مصدر القوة والعزّة جميعا ﴿**يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (8)﴾** [المنافقون: 8]، والأمّة الإسلامية وهبها الله من وسائل المناعة والثّراء والنّعمة... ما لو استعملته لأغناها عن مدّ يدها لأحد، والاستعانة بغير الله ﷻ، ولكن ضعف عقيدتها وانحرافها عن خطّ سلفها جعلها في مهب العواصف، تتقاذفها شرقا وغربا بلا خابط ولا استقرار، فلا تملك من أمرها شيئا وليس لكلمتها على كثرة عددها وتوفّر عدّتها وتنوع ثرواتها شأن ولا اعتبار، وهي على ما نراها عليه من نزاع وصراع وذهاب ريح.

هل نعيد أمّتنا إلى مكانتها عبر الجيل القرآني الجديد، الذي علينا أن نبنيه من جديد على عقيدة "أن لا إله إلا الله"، ولا قدوة له في الإيمان والعمل والسّلوك إلاّ من اختاره الله لحمل رسالته وبناء أمته محمد رسول الله ﷺ؟؟.

قال الله ﷻ: ﴿**فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (137)**﴾ [البقرة: 137]، وإن كان هذا النّص إنّما قصد به أهل الكتاب، يوم نزوله فإنّ ذلك لا يمنع أن يعني مسلمي اليوم إذا كان إيمانهم معلولا وإسلامهم مدخولا؛ إذ العبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب كما قرر علماؤنا.

وإقرار فكرة الألوهيّة في النّاشئ المسلم لا يمرّ حتما بالفلسفة اللاّهوتيّة والبحوث المعقّدة التي تجرّ إلى المتاهات؛ بل أن يحرّك في النّفس فطرتها التي فطرها الله عليها، ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (30)**﴾ [الروم: 30].

إنّ النّهج التّربوي في بناء الشّخصية الإسلامية يمر بطريق الفطرة، التي تعرف خالقها وهي إذا سمعت نداءه استجابت، إلاّ من ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون.

سئِل الإمام جعفر الصادق ﷺ عن الله ﷻ فردّ بسؤال السّائل:

"ألم تركب البحر؟ قال: بلى، فقال جعفر: فهل هابت بكم الرّيح عاصفة؟ قال: نعم، فقال جعفر: خطر ببالك أو انقدح في نفسك أن هناك من يستطيع أن ينقذك إن شاء؟ قال: نعم، قال جعفر: فذلك هو الله".

وصدق الله ﷻ إذ يقول: ﴿**هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (22)**﴾ [يونس: 22]، من أجل كلّ ذلك دعا كتاب الله إلى التأمّل في الكون، بلوغا إلى حقيقة أمره ومعرفة مصدره، فلا يكاد النّص القرآني ينهي التّعريف بحقيقة كونيّة إلاّ ويحث الإنسان على استعمال عقله تأمّلا وتدبّرا وتفكرا...

والتّوجه إلى الله وحده يمنح الإنسان كفاية ذاتيّة فلا يفتقر إلى أحد، وهنا يملك زمام أمره ويقرّر بمحض إرادته ما يريد، ولا معنى لوجود الإنسان وحياته إذا لم تكن له إرادة الاختيار وحق القرار، والإسلام يضع هذا الحقّ بيد صاحبه حتى فيما يخص اختيار عقيدته ونظام حياته فيقره على ذلك بقوله ﷻ: ﴿**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (256)**﴾ [البقرة: 256]، وقوله تعالى: ﴿**وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (29)**﴾ [الكهف: 29].

إنّ العقيدة الإسلامية هي التي تنشء لنا الإنسان الحر، الذي يتّخذ بإرادته قراره في اختيار عقيدته، حتى فيما يخصّ الإيمان بخالقه ورازقه ومدبّر أمره كلّه.

أي منهج تربوي يبني الإنسان الحرّ غير المنهج الإسلامي؟ والغريب في أمر من يزهدون في التّوجيه الديني فيزعم أنّه يضع القيود أمام الإنسان، ولا يرع له الحرية في اختيار نمط حياته وأسلوب عيشه، ويقولون ذلك دون أن يكلّفوا أنفسهم دراسة المبادئ الأساسية التي قام عليها المنهج منذ البداية؟

أمّا الجزء الثّاني من العقيدة، فيخص الإيمان بالنّبوّة والتّربية العملية، تقتضي أن يكون المربي مثال يتخّذه مقياسا لما يقول ويفعل، ويتمثّل في المعلّم الذي يقتدي به التّلميذ في بناء شخصيته القويمة، وفي الأبويّن اللذين يتوليان قبل ذلك وضع اللمسات الأولى في تكوين شخصيته، فالإسلام أنشأ مجتمعا عمليّا في مكّة وانطلق عاملا بها في المدينة، ومن هنا يكون مفهوم جلّ اعتماد الإمام على هذا العمل باعتباره ترجمة يقتفي العقيدة، والمعروف أنّ الطّفل في مراحله الأولى يقتدي بمن يراه مثله الأعلى، وأوّل من يلقاه والداه، فهو يتأثّر بهما قبل كلّ أحد، ثم ينتقل من البيت إلى المدرسة، وعندها يلقى المعلّمين فيتأثّر بما يلقّنونه إياه سدادا أو فسادا، أمّا بالنّسبة لأثر الأبوين فإني سأقول بشأنه كلمة عند تناول العنصر الثّاني، وأمّا بالنّسبة لأثر العقيدة في جزئها الثاني فأقول:

إنّ الإسلام شرع الإيمان المبدئي بألوهية الله ﷻ أساسا لكلّ شيء، ثم وضع مثالا حيا يمكن من تلك العقيدة، ويعطيها تفسيرا من جانب

تبليغها، ومن جانب تفسيرها وبتبيين معالمها: «تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها»[1]، ثم من جانب تنفيذها بالعمل فيعرف النّاس كيف تحوّل المبادئ إلى حقائق، وكيف تحوّل الشّريعة إلى واقع يعيشه الإنسان، ويحقق به الحقّ والعدل والخير للجميع، وما تفعله المؤسّسات التّربوية من إخراج الطلاّب من معاهدهم إلى ميادين التّطبيق العملي في الزّراعة والصّناعة والثّقافة، وممارسة الحياة وفق المعارف المكتسبة في المدارس والمعاهد، ما هو إلاّ شيء ممّا تمّ وضعه من معالم التّوجيه التربوي من رسول الله ﷺ وأصحابه الأكرمين ﷺ ومن تبعهم بإحسان، وكلّ ذلك ما فعله رسول الله إلاّ بأمر الله وتعليمه: ﴿**وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (113)**﴾ [النساء: 113]؛ لذلك كان لزاما أن نعرّف هذا الجيل أنّ علاقته برسول الله عضوية، أنّ الرّابط هو الرّسالة، فإنّنا لا نذكر محمدا ﷺ إلاّ مقرونا بالرّسالة، وكلّ الرّوابط الأخرى يجب أن تأتي متأخّرة، فلا يصحّ أيّ انتساب إليه خارج رسالته التي بها جعله الله شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، وبهذه الرّسالة جعل المسلمون شهداء على الناس ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ**

(1) أخرجه ابن ماجة في السنن، وأحمد في المسند بلفظ: «قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك، من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بما عرفتم من سنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وعليكم بالطاعة، وإن عبدا حبشيا، فإنما المؤمن كالجمل الأنف، حيثما قيد انقاد».

يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (143)﴾ [البقرة: 143]، فمن واجبنا أن نرفع أمّتنا إلى هذا المستوى.

تأليف الأسرة:

وحين ننتقل إلى العنصر الثّاني وهو البناء الأسري، فإنّنا نواجه نظريّة الفرد والمجتمع؛ إذ هناك من يرى أنّ الفرد أساس المجتمع، كما أنّ هناك من يرى أنّ الاهتمام يجب أن يركّز على المجتمع، وأنّ الفرد ليس شيئا بجانب المجتمع، إلاّ أنّ الإسلام لا يرى ما يرون؛ بل يقرّر أنّ العلاقة بين الطّرفين تكامليّة، وهي ليست شيئا إذا لم تبن على العقيدة الربّانية، فالفرد وحده لا يكتمل في بنائه الاجتماعي، ولا يستطيع أن يتنفّس الهواء الطّلق ويعيش الآفاق الرّحبة إلاّ إذا تزّوج وبالزواج تبنى الأسرة الصّغيرة التي هي اللّبنة الأولى في بناء المجتمع، عرفنا ذلك السيد الرسول ﷺ بقوله: «من تزوّج فقد كمل نصف دينه»[1].

والزّواج منبثق عن منهج تربوي رباني نستمد معالمه من قوله تعالـــــى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (1)**﴾ [النساء: 1]، وكلمة الرب تعني المربي، وكلمة التّقوى تعني الصّلة المستمرة بالله تلك التي ينشئها الإيمان،

(1) أخرجه أبو يعلى الموصلي في المسند، والطبراني في الأوسط، والحاكم في المستدرك بألفاظ متقاربة، ولفظه عند أبي يعلى: «من تزوج فقد أعطي نصف العبادة».

والنّفس الواحدة تعني التّلاحم والتّناغم بين الزّوجين حتى كأنّهما معا يشكّلان نغما عذبا تحلو به الحياة وتسعد، وتهبّ عليهما نسمات الرّحمة والسّكينة؛ وذلك كلّه يوحي بأنّ الحياة السّلوكية القائمة على المبادئ المستوحاة من التّربية الإلهية هي التي تنشئ جيلا من الصّالحين والصالحات، جيلا يواصل مسيرة الرّسل والصديقين الذين أرادهم الله خير خلف لخير سلف، جيلا يأخذ أحسن ما في عصره من تقدّم وصلاح، وفي الوقت ذاته يتمسّك بما وصل إليه من التّراث الخالد والمجد العظيم الذي بناه رسول الله ﷺ، والذي وصفه ربّه بأنّه على خلق عظيم، ولما سئلت أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها– عن هذا الخلق قالت بصدق: «كان خلقه القرآن»[1].

هذا الجيل الذي يتسلّم الأمانة ويحافظ عليها ثم يسلّمها نقيّة زكية إلى من سيليه وهو يدعو ربه: ﴿**وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (74)**﴾ [الفرقان: 74]، من هذا المنطلق يحثّ الإسلام على الزّواج وينهى عن العزوبة؛ لأنّها تهرّب من المسؤوليّة وإشاعة للتّفسّخ والانحلال وتشجيع للانزلاق في مهاوي الفسوق والغواية، بعيدا عمّا شرع الله لعباده من قيم التّسامي والارتفاع ولا أدلّ على ذلك من هذا التوجيه النبوي الكريم: «يا معشر الشّباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج»[2].

(1) أخرجه أحمد في المسند، والطبراني في الأوسط، والبيهقي في شعب الإيمان.

(2) متفق عليه، أخرجه البخاري، ومسلم.

وإذا كان رسول الله ﷺ قد حثّ على الزّواج، فإنّه قد أضاف إلى ذلك التّحذير الشّديد من العزوف عنه حين قال: «النّكاح سنّتي فمن رغب عن سنتي فليس مني»[1]، غير أنّ الزّواج لم يتركه الإسلام دون تأصيل قواعد يبنى عليها فقد وضع له أسسا هي الآتية:

أوّلا: اختيار الزّوجة، فقد عدّد الرّسول ﷺ صفات مرغوبة في الزّوجة، ثم ركّز على واحدة باعتبارها الوحيدة التي يجب أن تختار؛ لأنّها الضّمانة لأداء الواجب الزّوجي والحفاظ على الرّابطة المطهّرة مبدأ ومصيرا، فقال ﷺ: «تنكح المرأة لأربع، لمالها، جمالها، وحسبها، ودينها فأظفر بذات الدّين تربت يداك»[2]، والتّعبير النّبوي الشّريف "الظفر بذات الدين" يوحي بأنّ الحصول على هذا النّوع من الزّوجات كنز ثمين يجهد الإنسان المسلم نفسه في البحث عنه، حتى إذا وجده لم يفلته أبدا، وإذا أفرط فيه أو تركه بعد وجوده فقد أضاع السّعادة وفقد الطّمأنينة وحرم السّكينة وراحة القلب، ومن فعل هذا بنفسه فهو من السّفاهة والحمق بمكان... وهو بذلك

(1) متفق عليه، أخرجه البخاري، ومسلم بلفظ: «جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم، فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني».

(2) متفق عليه، أخرجه البخاري، ومسلم.

عرضة للدّعاء عليه بالهلاك، والمعنى ذاته يستمد من الحديث الشريف: "تربت يداك"، أي عوض أن يحظى بنعمة اللّقاء وبهجة الحياة وطمأنينة القلب، فها قد أضعت كلّ هذا وأصبحت محروما من هذا كلّه معدما وقد التصقت يداك بالتراب.

ثانيا: اختيار الزّوج والاعتبار ذاته أعطاه السيد ﷺ لاختيار الزّوج حين قال: «إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوّجوه إلاّ تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير»[1]، وبهذا الخط المستقيم تنجو الأسرة من مشكلاتها التي تعكّر صفوها وتشيع الشّقاق بين أفرادها وتفكّك الأواصر بين أفرادها، ويجعل منها قطيعا يسطو ذكوره على إناثه وتسود الفوضى كلّ علاقاته، والإسلام وحده هو الذي يحفظ لكلّ من الرّجل والمرأة حقوقهما ويحدّد واجباتهما؛ لأنه – أي الإسلام –صادر من الخالق الذي يعلم ما خلق ومن خلق، والمنهج الإسلامي لا يعتبر في الإنسان جانيا على حساب الجوانب الأخرى، بل إنّه يوقع على أوتار النّفس البشريّة كلّها مجتمعة، فعندما جاء رجل إلى عمر ﷺيقول له: إنّ حبّه لزوجه قد خبا وأنّه يريد أن يستبدل بها قال له: "ويحك أو كل البيوت تبنى على حب؟ أين تقوى الله وعهده؟ وأين حياؤك منه؟ وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منك ميثاقا غليظا؟".

(1) أخرجه الترمذي، وابن ماجة في السنن، ولفظه عند ابن ماجة: «إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه ، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض».

وسأل رجل الحسن البصري في خاطبين تقدّما لابنته أيّهما يزوّج؟ فقال لـــــــــه: "أرضاهما دينا، فإنّه إن أحبّها أكرمها وإن كرهها لم يظلمها.

واهتمام الإسلام بالطّفولة بارز من اللّحظة التي يرى الطّفل فيها نور الحياة، وقبل ذلك عندما يكون جنينا، حيث يبيح للأمّ الفطر في رمضان إذا خشيت الضّرر على ابنها، وإلى تلقينه كلمة الإسلام لتكون أوّل ما يسمع عندما نؤذنه في أذنه الأولى، أو نتلوا إقامة الصّلاة في أذنه اليسرى عقب خروجه من رحم أمّه مباشرة....

والوليد لم يتركه الإسلام دون رعاية، فقد شرع له من القوانين، ما يكفل له حسن التّربية والرّعاية منذ الطّفولة إلى الرشد، تربية ورعاية تشمل الجسد والعقل والرّوح بكلّ المقومات التي تخدم هذه الجوانب الثّلاثة في الإنسان، وحتى لو فقد العائل فإنّ المسؤولية تتوزّعها الأمّة ويصبح "خير بيت في المسلمين، بيت فيه يتيم يحسن إليه".

ومسؤولية الأبوين عن الأولاد واضحة ومقررة بنص نبوي هو قوله ﷺ: «كلّ مولود إنّما يولد على الفطر فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تولد البهيمة هل تجدون فيها من جدعاء حتى تكونوا تجدعونها؟»[1].

كما روي عنه ﷺ أنّه سمع أما تنادي وليدها، وترغبه ليقبل عليها وتقول له: تعالى أعطيك، وتشير إلى شيء ولم ير ﷺ معها شيئا، فقال لها: «ما

(1) متفق عليه، أخرجه البخاري، ومسلم.

أردت أن تعطيه؟»، قالت تمرة معي فقال ﷺ: «أما أنّك لو لم تفعلي لكتبت عليك كذبة»[1].

إنّها التربية على الصّدق، والعالم اليوم في أمسّ الحاجة إلى الصّدق، وهل يأتي الصدق إلاّ ممّن آمن بالحقّ وصدق به؟ إنّه كلمة تصوّر الحقيقة ولكن هـــــذه الكلمة هي بذرة الخير التي يباركها الله، ويكون مع أهلها دعما وتوفيقا ونصرا، ألم يقل لنا ﷻ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (119)**﴾ [التوبة: 119].

والابن حينما نعلّمه الصّلاة وندرّبه عليها، فإنّنا نعلّمه كذلك رعاية الأبوين من منطق قرآني، يربط الإحسان إليهما بعبادة الله مباشرة: ﴿**وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (23)**﴾ [الإسراء: 23]، وتحذّره من العقوق الذي يعتبر إنكارا لجهود الأبوين وما قدّماه من رعاية أيّام ضعف الطّفل وعجزه عن القيام بشؤونه، وأنّ ذلك العقوق من الكبائر.

أيّها السّادة العلماء: إنّي لا أرجو المعذرة إذا ما تناولت جوانب تربويّة أنتم أدرى بها وأعلم، ولكن التّذكير واجب على كلّ مسلم إذا اجتمع بإخوانه، وهو ينفع المؤمنين مهما علت أقدارهم وارتقت مستوياتهم، لذلك أجدني الآن أمام العنصر الثّالث الذي هو التربية المجتمعية القائمة على الأخوة في الله، التّربية التي يستهدف بها بناء الأمّة الخيرة التي أرادها الله قائدة

(1) أخرجه أبو داود، وأحمد في المسند، وابن أبي شيبة في المصنف.

ورائدة، عند ما أعلن وحيه المنزل هذا القرآن: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (110)﴾ [آل عمران: 110]، هذه الخيرية ما بلغتها الأمّة الإسلامية إلاّ بالتربية الربانية التي أشرف عليها رسول الله ﷺ بلاغا وقدوة، وأعطاها كلّ الجهد والوقت حتى نبتت شجرتها المباركة، وأثمرت وغمرت العالم بالطّيبات، والتّربية المجتمعية ضرورية للمسلم المعاصر إلى الحد الذي أصبحت فيه أهم من احتياجه إلى المال والقوى المادية؛ لأنّ الأمّة لا يمكنها أن تشقّ طريقها نحو العزّة التي أرادها الله لها إلاّ إذا نالت نصيبها الكامل من التّربية القرآنيّة النّبوية؛ لذلك كان اهتمام الكتـــــــاب المجيد بتربية الأمم بالغا يسدّد خطواتها ويقدّم النّموذج الأمثل للتّربية الإنسانية عامة، استمدادا من المثال الفريد الذي برز في مجتمع المدينة المؤلَّف من المهاجرين والأنصار الذين استقاموا على الطّريقة، وقدّموا للعالم صورة مثلى حوّلت المبدأ إلى حقيقة المجتمع الذي قام على قيم مثلى، لم يعرف العالم لها نظيرا فيما مرّ من نظم أرضية ودول سابقة، إنّه -إي المجتمع المدني-ذلك المثال الفريد الذي بنته من الأخوة في الله تلك التي أنتجت التّضامن والمودّة والوحدة والتّعاون والصّفاء والبذل والإيثار:

- ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (9)﴾ [الحشر: 9].

- ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (71)﴾ [التوبة: 71].

-﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (10)﴾ [الحجرات: 10].

-﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (2)﴾ [المائدة: 2].

-﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (46)﴾ [الأنفال: 46].

-﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (103)﴾ [آل عمران: 103].

-﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (159)﴾ [الأنعام: 159].

-﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (12)﴾ [الحجرات: 12].

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (11)﴾ [الحجرات: 11].

هذا المجتمع الأخوي القائم على المحجة، هو الذي يجب أن نبرزه للعالم متكتّلا في العمل وفي العبادة مرتّلا لكتاب الله، متوكّلا عليه مبتهلا إليه، إنّه جهد شاق يستفرغ الطّاقة ويستنزف الجهد، ولكنه الجهد المبارك الذي يؤيّده الله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (69)﴾ [العنكبوت: 69].

ومع نصر الله وتوفيقه في الدنيا، فإنّ ثواب الله في الآخرة مأمول إن شاء الله، بشر بذلك سيدنا رسول الله ﷺ بهذا الحديث الشريف: «إنّ من عباد الله ناسا ما هم أنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشّهداء يوم القيامة لمكانهم من الله تعالى، قالوا يا رسول الله فأخبرنا من هم؟ قال: «هم قوم تحابوا في الله بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال، يتعاطونها فوالله إنّ وجوههم بنور وأنّهم لعلى نور ولا يحزنون إذا حزن الناس»، وقرأ هذه الآية: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62)﴾ [1] [يونس:

(1) أخرجه أحمد في المسند، وعبد الله بن المبارك في المسند، والطبراني في المعجم الكبير بألفاظ متقاربة، ولفظه عند أحمد: «يا أيها الناس اسمعوا واعقلوا ، واعلموا أن لله عبادا ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم ، النبيون والشهداء على مجالسهم وقربهم من الله " . فجثى رجل من الأعراب من قاصية الناس ، وألوى بيده إلى نبي الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا نبي الله ناس من الناس ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء على مجالسهم

.[62

السّادة العلماء:

يبقى أنّ مجتمعنا المعاصر إذا ما تلقى تربية إسلامية على المستويات الفكرية المذكورة.

- مستوى العقيدة.

- مستوى الأسرة.

- مستوى المجتمع ككلّ، فإنّنا سنوفق بحول الله إلى إثبات العقيدة النّقطة التّوقف لمتابعة المسيرة النّبوية الصّحابيّة والتّابعين بإحسان نحو تحقيق الهدف الأسمى، وهو ألا تكون في الأرض فتنة، ويكون الدّين كلّه لله.

وهو إعادة بناء المجتمع الإنساني الذي يستمد نظام حياته كله من شريعة الله التي جاءت لإخراج الناس من الظلمات بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد.

وقربهم من الله انعتهم لنا حلمهم لنا ، يعني صفهم لنا ، شكلهم لنا فسر وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لسؤال الأعرابي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " هم ناس من أفناء الناس ونوازع القبائل لم تصل بينهم أرحام متقاربة تحابوا في الله وتصافوا ، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور فيجلسهم عليها فيجعل وجوههم نورا ، وثيابهم نورا ، يفزع الناس يوم القيامة ولا يفزعون ، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون »

نحن أمّة لنا رسالة(1)

وضع الغير بين ما لهم وما عليهم

قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20)﴾ [العنكبوت: 20].

إنّ أسباب الاغتراب عن الوطن ترجع أساسا إلى:

1- طلب الرّزق: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (15)﴾ [الملك: 15].

2- طلب العلم: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (122)﴾ [التوبة: 122].

3- التخلص من الظلم وطلب الحرية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (97)﴾ [النساء: 97].

4- تبليغ الرسالة و التعريف بالإسلام والقضاء بين الناس بالعدل:

(1) محاضرة ألقيت بشارلوروا- charleroi- بلجيكا في الثمانينيات.

أ- بعثة معاذ والحوار بينه وبين رسول الله الذي انتهى بقول رسول الله ﷺ: «الحمد لله الذي وفّق رسول الله إلى ما يحبه الله ورسوله»[1].

ب - أرسل النبي ﷺ إلى الملوك حاملين رسائله إليهم.

هجرة المسلمين إلى الحبشة مرّتين، فالهجرة الكبرى إلى المدينة تنقل المسلمين في أقطار الأرض داعين إلى الإسلام والأغلبية من مسلمي العالم دخلوا الإسلام بواسطة أولئك التّجار والحرفيين والعمال الذي نزحوا من دار، وكان غرضهم الأسمى نشر دعوة الحقّ، وقد ملكوا دينهم بالقول والعمل وحسن معاملة النّاس الشّيء الذي أقنع سكّان تلك الأقطار بأنّ الإسلام هو الحق المبين فدخلوا فيه أفواجا.

في التّقديم: كان للجزائر هجرات من كلّ الأنواع المذكورة، هناك من هاجروا لطلب الرّزق فعادوا موفورين، ومن هاجروا لطلب العلم في معاهده شرقا وغربا، فعادوا مزوّدين بالمعارف والعلوم التي أضاءت العقول، وهدى الله بها الأنفس، وطهّر الأرواح.

وهناك من أرغمهم التّعسّف الاستعماري على الخروج فكانوا أصواتا مدوية باستنكار الظّلم، والتّشهير بالظّالمين والانتصار لقضايا الحق والعدل في وطنهم أولّا وفي أوطان المسلمين أينما كانوا فكانت أصواتهم تلك انطلاقة لدعوة الجهاد التي آلت إلى جهاد فعلي تكلل بالفوز المبين.

(1) أخرجه أبو داود، والدارمي في السنن، وأحمد في المسند.

وهناك بعثات أرسلت إلى الخارج لبثّ الوعي في الجاليات الجزائرية، خاصة في أكبرها عددا وهي التي توجهت إلى فرنسا فقد بعثت جمعية العلماء المسلمين خيرة رجالها؛ لإيقاظ الوعي الإسلامي وتأجيج جذوة الحماس للّغة والدّين والوطن والتاريخ، حتى يستمرّ النضال لأجل التّحرير قائما في انتظار ساعة الفصل، والآن لنا جاليات في أوروبا وغيرها من أقطار العالم علينا أن نهتمّ بها؛ لإبقاء صلتها بالوطن ومنع ذوبانها في الكيانات الغربية، ومسؤوليتنا جميعا أن نفكّر في مستقبل الشّبيبة المهدّد هناك، إنّ واجبنا أن نرسل إليهم دعاة وبناة من رجال العلم والدّين لتوجيههم وتعليمهم، وأن نزوّدهم بكلّ ما نشر في الوطن، وأن نعرّفهم بما ينجز فيه، وأن نساعدهم على فضح الدّعايات المغرضة التي تستهدف الإساءة إلى سمعة بلادنا في الخارج.

علينا أن نركّز في مجالي التّربية والتّوجيه على التعريف بالقيم الحضاريّة التي ينطوي عليها ديننا؛ حتى نزيل أثر الانبهار بمظاهر الحياة الغربيّة دون تحليل ولا تعليل...

علينا أن ننبّه إلى جذور الحضارة العلميّة في العرب، مستشهدين بعلماء الغرب أنفسهم كـ "تريفوت" في كتابه "بناء الإنسانية" وبالعديد من المفكرين الغربيين الذين اقتنعوا بالإسلام ودخلوا فيه.

وإنّ إقبال الإنكليز على الإسلام ورغبتهم في التّعرف عليه، وإسلام العديد من جنسيات مختلفة خير ما يساعدنا على إقناع من لم يقتنع بعد،

وأعظم من ذلك كلّه سلوك إخواننا وطريقة تعاملهم، وحسن الصّلة بينهم وبين بعضهم البعض وبينهم وبين الغربيين.

إنّ الإعجاب بالإبداع شيء طبعي، غير أنّ هذا الإعجاب يجب أن يتحوّل إلى فكر فعمل جاد؛ للاقتباس ما يمكن اقتباسه وتطويره ليصبح حاملا لطابعنا، ثم الزّحف لنصل إلي التّفوّق والسّبق، ذلك ما فعله أسلافنا منذ أن جهروا بدعوة القرآن إلى الاعتماد على الذّات بعد الاتكال على الله... يقول ﷻ: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (64)**﴾ [الأنفال: 64]، ويقول تعالى: ﴿**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (9)**﴾ [الإسراء: 9]، ويدعونا القرآن إلى الاستماع إلى كلّ شيء دائما، يجب أن نأخذ بالأحسن: ﴿**وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ (17) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ (18)**﴾ [الزمر: 17-18].

ويقول سبنمر: "إنّ التربية إعطاء الإنسان حياة كاملة" كما أنّ الواجب ألاّ نتعجّل في إعطاء رأي قبل التّأمّل والّدراسة، من توجيه القرآن لرسول الله ﷺ: ﴿**فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا (114)**﴾ [طه: 114].

إنّ الدّعوة لمبادئنا ورسالتنا ضرورة، ثم هي فوق ذلك شرف وأي شرف، الدّعوة لبلدك وقومك من صميم تعاليم دينك وإنّه: ﴿**وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (44)**﴾ [الزخرف: 44]، غير أنّ لإخوتنا في الخارج

-وأذكر على سبيل المثال الجالية الجزائرية في بلجيكا -اهتماما بالمحافظة على الشخصية وتعلّقا بالوطن وفخرا بمنجزاته وحماسا في الدّعوة له، يدلّ على ذلك إنشاؤهم للمساجد وإقبالهم على تعليم القرآن، وحرصهم على أن يكون للجزائر دور بارز وحضور إيجابيّ في كلّ نشاط إسلامي تقوم به الجاليات الإسلامية، وقد دشّنوا أخيرا بمناسبة حلول ذكرى المولد النبوي الشريف في شارلوروا- charleroi- يصلح لعدّة مؤسّسات تديره الجزائر، وهم يلحّون على تزويدهم بالطّاقات القادرة على بث الوعي، ونشر الهداية وتعليم النّاشئين، وهم على أتمّ الاستعداد للمساهمة بكلّ جهد مستطاع، وفي أي مكان حللت به في المناطق البلجيكية سمعت من الإخوة المواطنين إلحاحا على طلب المساعدة للحفاظعلى الشريعة، وإنقاذ الشّبيبة ورغبة متأجّجة في وضع خطّة لإعادتهم إلى الوطن.

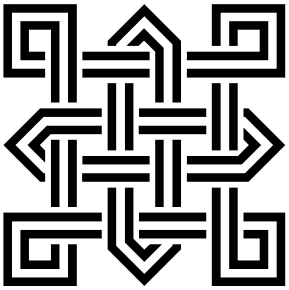

منشورات في جريدة الشّعب

الإسلام ضمن الحرية الإنسانية[1]

فضيلة الأستاذ محمد الأكحل شرفاء لـ "**جريدة الشعب**":

يتّفق كثير من المفكرين على أنّ أكبر انجاز حقّقته الدّعوى الإسلامية يتمثل في تحقيق معني السّمو للإنسان ضمن مبادئ وقيم تلتقي كلّها لتوطيد الكرامة الإنسانية...وبناء المجتمعات على أسس صلبة فتسير في مدارج الحضارة بخطى ثابتة.

اليوم نسافر مع فضيلة الأستاذ محمد الأكحل شرفاء في فسحة طيبة نلمس من خلالها أنوار الرّسالة، ونعيش في كنف المبادىء السمحة، ونحن نرى البعد العالمي والمعنى الإنساني للإسلام، فضيلة الأستاذ شرفاء، استقبلنا في منزله فضمّنا إلى قلبه بحنان الأب الكريم واحتوى انشغالنا ببديهيّة الفكر المنير فكان لنا معه هذا الحوار...حواره محمد كاديك.

الشعب: فضيلة الأستاذ محمد الأكحل شرفاء.... افتقدتكم السّاحة منذ مدة طويلة.. لعلّكم اخترتم الخلوة لعمل ما... أين أنتم فضيلة الأستاذ، محبّوكم الذين طالما اغترفوا من معرفكم في شوق إليكم؟.

محمد الأكحل شرفاء: أنا أعيش في بيتي... ومن ناحية النشاط الاجتماعي الذي عهدتموه، وأعتقد أنّكم تشيرون إلى بعض الأحاديث التي كنت ألقيها بالتّلفزة الجزائرية، أو بعض المقالات التي كنت أكتبها ببعض الصّحف مثل: العصر التي نشرت بها أبحاثا متعدّدة ومسلسلة حول كفالة

(1) جريدة الشعب ليوم 30 ماي 2000م.

الحرية الإنسانية في الإسلام، كتبت تحت هدا العنوان في جريدة البصائر التي كتبت في سلسلتها الثّانية لمدةّ طويلة في موضوع الدعوة الإسلامية حتى سنة 1956م، أين أوقفتها السّلطات الاستعمارية آنذاك، وكان في مقال مصفّف موجود بالعد الأخير الذي أوقف آنذاك حول الاستعمار الغربي للبلدان الإسلامية والفتح الإسلامي، حلّلت موضوع الفتوحات وقلت أنها لم تكن استيطانية ولا استعمارية ولا استبدادية؛ وإنّما هي بمدلول الفتح نفسه فهو يفتح العقل ليفكّر والقلب ليشعر ويُحطّم الأغلال التي تكبّل الشعوب، فلم يأت المسلمون لأيّ بلد من أجل أن يستضعفوا أهله أو يستعبدوه؛ وإنّما جاؤوا ليفتحوا عقولهم وقلوبهم ولينشروا رسالة الله في الأرض...وكتبت في السّلسلة الثّالثة لجريدة البصائر التي أعيدت في الّسنوات الأخيرة وتوقفت لظروف مالية، كنت أكتب الصفحة الثانية دوريّا، وكنت أُعدّها تحت عنوان: "قل هذه سبيلي.." وسرت في هذا على منهاج الشيخ **عبد الحميد بن باديس** -رحمه الله- فقد كان يكتب آيتين على كلّ عدد من أعداد مجلّة الشهاب في الّصفحة الأولى... ولي اليوم وثائق ومحاضرات كثيرة... شاركت في ملتقيات الفكر الإسلامي بإلقاء محاضرات، وكنت أسافر إلى أوروبا للاتّصال بالجالية الإسلامية هناك، وإلقاء محاضرات... وشاركت في عدّة ملتقيات، مثل ملتقى مؤتمر علماء المالكيّة في بريطانيا، النرويج، تونس، غرناطة، وأبو ظبي أين كان آخر ملتقى، فأنا عضو قمة علماء المالكية... إلى جانب كتابات كثيرة ما تزال بين يدي وتنتظر أن يكتب لها الظهور إن شاء الله هذا هو نشاطي بصفة عامة، أمّا النّشاط العام فأنا ألقي درسا بمسجد مالك بن نبي بحي مالكي تطوعا.

الشعب: فضيلة الأستاذ... نريد أن نعود بكم إلى الذّاكرة كان لكم عمل نضالي لنشر الوعي بضرورة التّحرّر تحضيرا لثورة التّحرير المباركة، كيف أمكنكم آنذاك أن تجمعوا كلمة الشّعب على مبدأ واحد رغم ما سُلّط عليه من قساوة الاستعمار؟.

محمد الأكحل شرفاء: هذا انطلاقا من التّكوين الذي تلقّيناه عن الشيخ **عبد الحميد بن باديس** قضيت سنتين معه بالجامع الأخضر حتى توفّاه الله، ومنذ 1947م واصلت دراستي بالزّيتونة بعد ذلك عدتُ وعُيِّنْتُ مديرا لعدّة مدارس حرّة تابعة لجمعية العلماء المسلمين، وكان عملنا في إطار الجمعيّة يهدف أولّا: إلى إيقاظ الشّعب الجزائري وتجميعه حول قيمه ومبادئه وتاريخ حضارته؛ ليتمكن من عناصر شخصيته ويبعث أمجاده، كنّا نواجه هذه القضية مع كلّ الفئات، نلتقي الأطفال في المدارس نكوّنهم ونربّيهم، ونلتقي الشّباب في النوادي؛ ولعلّ أكبر النّوادي وأشهرها وأعظمها نادي الترقي بساحة الشّهداء، ومنذ استقلال الجزائر سنة 1962م وإلى سنة 1992م لم أنقطع عن إلقاء المحاضرات في التّوجيه الإسلامي، وقد لَقِيَتْ هذه المحاضرات إقبالا من طرف الشّباب ورجال الثّقافة من دكاترة وأساتذة ووافدين من المشرق، بلغ نبأ هذه المحاضرات فكانوا يلازمونها؛ ولعلنا مكنا من بث الوعي الإسلامي في العديد من الشّباب الجزائري، أمّا عن سؤالك عن الكيفيّة التي توصلّنا بها إلى جمع وتوحيد كلمة الشعب حول النّهوض والثّورة، فإنّني كما قلت لك اعتمدنا على التّكوين، كنا نضع بين أيديهم كتبا ومنشورات توعيهم، وقد تكوَّن منهم جيل نعتز به، وبالنّسبة للكبار فقد عملنا على تخليصهم من "الخرافة" والأوهام والأضاليل، وبعض المفاهيم التي تجعلهم جامدين لا

يتحرّكون ويعيشون على التقاليد (فجمعية العلماء خلصت العقول من الخرافة والأوهام)، كنا نواجههم في المساجد، وقد فطن لها الحكم الاستعماري؛ لهذا فمنع العلماء الأحرار من التّدريس والإمامة، وقد امتدّ الأمر إلى أن دبّروا مؤامرة اغتيال المفتي الشيخ (**كحول بن داني**) سنة 1936م، كان الشيخ **كحول** من ضمن الأئمّة الرّسميين الذين تعيّنهم الإدارة الفرنسية فدبرت عملية اغتيالـــــــــه، واستغلّت السّلطة هذا الحادث فتوجّهت إلى الدّاعية الكبير الشيخ **الطيب العقبي** فاعتقلوه ونسبوا إليه التّحريض على قتل الشيخ **كحول**، واعتقلوا معه رفيقه السيد **عباس التركي** -رحمه الله-، ثم فرضوا أحكاما قاسية على التعليم العربي بقانون 7 مارس الشهير، ورغم منع التّعليم كنّا نفتح المدارس ونواصل رسالة التّعليم، وقد وقفت شخصيّا أمام المحاكم الاستعمارية من هذا ثلاث مرّات، كنت أُعلّم العربية بدون رخصة وأمتنع وأرفض طلب الرّخصة.

الشعب: هذا يعني فضيلة الأستاذ بأنّ العمل كان يتمّ وفق منهجيّة تربوية محضة، اليوم العالم الإسلامي يعيش شتاتا مريعا، أين المنهجية التربوية اليوم وما سبب هذا الإخفاق الذي نعيشه؟

محمد الأكحل شرفاء: المنهجية التربوية تختلف من بلد إلى آخر، نتحدّث عن بلدان المغرب العربي، الاستعمار بثّ مفاهيم تطعن في التّوجيه الإسلامي، وصوّره بأنّه توجيه قديم ورجعي، ويرفض التّعايش وغير ذلك من الأوصاف، وظلّ الاستعمار يواصل هذه الدّسائس في أوطاننا حتى أصبح هناك تيّار يعادي اللّغة العربية؛ بدعوى أنّها متخلّفة ولا تستجيب لمقتضيات العصر وأنّها لغة يجب تطويرها، وقد حدث ذلك حتى في مصر

منذ مدة طويلة، حين ظهرت فكرة "تمصير اللّغة" أي العودة بها إلى عاميتها؛ بدعوى أنّ هذه العامية هي التي تستطيع أن تتكيّف وهي غير مبنية على قواعد، وهنا ظهرت أيضا دعوات تطعن في العربية، ونحن نعيش هذا "الخليط" من التّعابير لا هو عربي ولا هو فرنسي، وأنا أتأسّف اليوم عند سماع هذا الخليط من الكلام، لماذا لا نتكلّم عربية سليمة أو فرنسيّة سليمة؟ أظنّ أنّ هناك أيادي مخرّبة تعمل على تقويض مقومات وقيم وأسس يقوم عليها مجتمعنا، هذا شيء غريب يؤلمني وأظنّ أن أشقّاءنا في أقطار المغرب العربي أقلّ تضرّرا ممّا يحدث للعربية من تشويه، ومع هذا لم تسلم العربية في الوقت الذي كانت فيه وحدها، كانت عرجاء غير مبنية على قواعد سليمة، أفضّل أن تكون لغة أخرى خيرا من أن تلقى العربية بشكل يشوهها... هل كان ذلك متعمدا؟ هل كان عن جهل؟ الله أعلم.

الشعب: فضيلة الأستاذ... لكم عدة بحوث ومحاضرات تحدثتم فيهاعن مبادئالإسلام وقدرتها على معايشة العصر الحديث، وطرحتم منذ قليل الواقع اللّغوي، نريد الآن أن تقدّموا لنا نظرة دينيّة...ما هي سيرورة الأفكار في المجتمع الحديث داخل القيم والمبادئ الإسلامية؟

محمد الأكحل شرفاء: ليس هناك مصدرا يعطينا لغة سليمة ومعبّرة عن حقيقة العربية غير القرآن، القران كما يقول الدكتور (**يعقوب صروف**): "إن القرآن هو قاموس العربية الأكبر"، ونعرف بأنّ عائلة صروف مسيحيّة الدّيانة، ولكن تمسّكها باللّغة العربية ووفاءها لها، جعل كل فرد من العائلة يحفظ القرآن منذ الصّغر، لم يأخذوه من النّاحية الدّينية وأخذوه من ناحية اللّغة، فلا يستقيم لسان امرئ لغةَ إلاّ إذا رجع إلى القرآن، والقرآن وحده هو

الذي يعطينا المفاهيم السّليمة، سواء في الميدان التّربوي، أو الخلقي، أو في الميدان العقدي مثلا... هناك مفاهيم لا يمكن أن تستوعبها أيّة لغة، ولنأخذ كلمة (سجى) مثلا من سورة – الضحى –هذه الكلمة ترجمت إلى عدة لغات أجنبية فلم تؤدي المعني، قالوا: أظلم. قالوا: خيم، غطى، ولكن لا توجد لفظة استطاعت أن تؤدي معنى (سجى) الذي يحتوي أمورا مادية مظهريّة وأمورا روحيّة معنويّة، فسجى الليل غير أظلم، وكلمة سجى تحمل معنى خيم الليل، وأتى بجو من الهدوء والسّكينة والطّمأنينة؛ حيث يعود الإنسان إلى نفسه؛ على تأمّلاته وأفكاره وماضيه وتطلعاته...العبارات القرآنية غاية في الدّقة من النّاحية العلمية كذلك تأمل قوله تعالى: ﴿**لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (40)**﴾ [يس: 40]، أين لمحمد ﷺ أن يعرف كل هذه الحقائق العلميّة قبل ألف سنة وأربعمائة سنة؟ لا بدّ أنّ القرآن معجزة، وأنّ هذا الإعجاز هو الذي ولد أمّة عجزت القوى البشرية على هزيمتها... الأمم الكبرى عجزت أمام أولئك الذين كانوا يعيشون في بلد غير ذي زرع، غير ذي علم، غير ذي ثقافة... القرآن صنع أمة عجزت أمامها الأمم، أعتقد أنّ مشكلة اللّغة تعود إلى أننا لم نؤسّسها على قاعدتها الرّاسخة، وقد تحدث (**أبو إسحاق الشاطبي**) في الموافقات على أنّه لا يجوز أن يتعلّم الطّفل أي شيء قبل أن يتعلّم القرآن الكريم فتكون انطلاقته اللّغوية من القرآن، هذه الحقائق لم تدرس يجب جعل القرآن قاعدة للّغة، وآباؤنا وأسلافنا كما عرفناهم كان يعلّمون القرآن للطفل أولا ثم ينتقل إلى مبادئ اللّغة، أليس كذلك؟

نواصل رحلتنا في رحاب الكلمة الطّيبة مع فضيلة الأستاذ محمد الأكل شرفاء، عشنا يوم أمس في كنف أنوار العقيدة الإسلاميّة السمحة، واليوم نتوغل أكثر إلى عمق المفاهيم، من أين نبدأ صياغة فكر فعّال قادر على استيعاب التّحديات الجديدة؟ وما هي إمكاناتنا في الرّقي إلى سامي الحضارة الإنسانية، مع ما يتراكم لدينا من رصيد رفيع من القيم والمبادئ التي ظلّت تنشد حرية الإنسانية؟ كيف يمكن أن تصبح هذه المفاهيم حيّة في الواقع لتسير بين النّاس وتصنع المستقبل الكبير؟ فضيلة الأستاذ شرفاء كان قلبا مرهفا وأجاب عن انشغالنا بهدوء المؤمن المطمئن... تابعوا.

يجب أن نعطي لمبادئنا مفاهيم علمية[1]

الشّعب: اللغة العربية هي الوعاء الذي احتوى القيم والمبادئ الإسلامية التي ينبغي أن تسير بالمجتمع إلى كرامة الإنسان، فضيلة الأستاذ ماذا لو تحدّثنا عن الكرامة الإنسانيّة التي تنبع من صميم ديننا الإسلامي الحنيف؟

محمد الأكحل شرفاء: الإسلام ليس له من هدف أسمى ولا أعلى ولا أفضل ولا أكرم من بناء الإنسان... استمع إلى قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (70)**﴾ [الإسراء: 70]. هذاالتّعبير: "كرَّمْنا"؛ يعني أعطيناه كرامة، وأعطيناه عزّة ومكانة...أعطيناه قيادة... الإنسان هو القائد في هذه الأرض، والمسؤوليّة التي كلّف بها الإنسان في قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30)**﴾ [البقرة: 30]، والخليفة هو من لا يتصرّف كمالك، وإنّما يتصرف كمتلقّي ومنفّذ، فالإنسان الذي هو الذي يستخلف، والإنسان أرسل إلى الأرض ليتصرّف حسب أوامر خالق الأرض، وهذا "الخليفة" مكّرم معزّز، ﴿**يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (8)**﴾ [المنافقون: 8]، كرامة الإنسان أنّه يتصرّف في الأرض بمنهج السّماء، تأمل معنى قوله تعالى: ﴿**قُلْنَا**

(1) جريدة الشعب ليوم 31 ماي 2000م.

اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38)﴾ [البقرة: 38]، ها هي الرسالة الإنسانية فالأمر بالنزول إلى الأرض ثم انتظار الرّسالة، وتأمل قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (70)**﴾ [الإسراء: 70]، الله حمّل الإنسان المسؤوليّة في الأرض، حمّله مسؤولية عمارة الأرض واستخراج كنوزها وفلاحتها وصناعتها ومدخّراتها، لا يمكن أن يحمل الإنسان مسؤوليّة في الأرض إلا إذا عرف علوم الأرض، كيف نسبق في العلوم ونحن من حملنا في البر البحر... هذا إذا نظرنا إلى الأرض من مادة، أمّا إذا نظرنا إليها معنى تأتي المؤسّسات الثقّافية والعلميّة لتضاف إلى ما يجب إتقانه لتحمُّل المسؤولية كاملة، وتحضرني في هذه اللّحظات ما كتب الشيخ **محمد البشير الإبراهيمي** -رحمه الله- حول كلمة "الاستعمار" التي بأنّها من الكلمات المظلومة، وكان يقصد معنى الكلمة في قوله تعالى: ﴿**وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ (61)**﴾ [هود: 61]؛ فمعنى "استعمركم" هو التّمكين من تعمير الأرض بالتّطوير والتّحديث، وظلمت هذه الكلمة- يبتسم-فأدرجت في معاني الاستبداد والظّلم، وكان يمكن أن تستعمل في "التّمدين" و"التحضير" و"التثقيف" و"التعليم"و"التربية" و"الرقي"، ولكن أعطي لها معنى التّدمير والتّخريب الذي يقوم الحكم الاحتلالي الظالم.

الشعب: على ذكر الكلمات المظلومة فضيلة الأستاذ، فإنّ بعض القيم والمبادئ الاجتماعيّة في الإسلام ظلمت بدورها حين أعطى لها معاني

مخالفة لما يصبوا إليه المجتمع الحديث... ماذا عن هذه الأفكار المظلومة فضيلة الأستاذ؟ وكيف يجب أن تكون في مجتمع حديث يعيش الألفية الثالثة؟.

محمد الأكحل شرفاء: نعم، ولكن لم أكمل بعد، ما تحمله الآية الكريمة "وحملناهم في البر والبحر"، فهي ذات مدلولات كثيرة.. لنسأل أين علمنا؟ أين صناعتنا؟ أين بحثنا؟ أين مكانتنا في العالم، في هذه المجالات التي هي تعمير الأرض؟ أين نحن؟.

المسلمون جميعا لا يصنعون سيارة، وهي أبسط شيء... الأدوات التي نستعملها... الآلات كلها نستوردها، هل هذا يتطابق مع قوله: ﴿**وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ**﴾، أين نحن من علوم البحر؟ كل شيء يأتي من الغرب.

الشعب: وكيف يمكن فضيلة الأستاذ أن ننبّه المجتمع إلى واجب بلوغ ما بلغه الغرب؟

محمد الأكحل شرفاء: يجب أن نستلهم مبادئنا أوّلا، فالأمور قبل أن تكون عمليّة يجب أن تكون هناك قاعدة نظريّة، فالطّبيب لا يمكن أن يكون طبيبا بمجرّد التّعلّم عن أساتذته، وسيكون طبيبا حين يمارس النّظري... نحن الآن نتعامل مع العالم... لماذا لا نأخذ عن الغرب ما أخذوا عنا... أخذوا عنّا...عن علمائنا في الفيزياء والكيمياء والبصريّات والفلك، هم أخذوا وطوّروا، ونحن الآن تأخّرنا فلماذا لا نأخذ منهم... لماذا لا نتعلّم لغاتهم؟ نأخذ منهم ثم نطوّر، وإذا تمكنا من أخذ علوم البر والبحر، فإنّنا نجد طيّبات، ولكن ينبغي علينا العمل فالإنجازات الكبيرة اكتشافات لحقائق موجودة منذ الأزل، والإنسان عليه أن يطوّر عقله حتى يتوصّل إلى الحقيقة، الغرب يبحث

في كلّ شيء، أما نحن فمازلنا لا نعمل بقوله تعالى: ﴿**قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20)**﴾ [العنكبوت: 20]، النّظر هو البحث والمعرفة والاكتشاف، فالمسلمون تخلّوا عن مسؤوليّتهم في تعمير الأرض.

الشعب: فضيلة الأستاذ، كيف يمكن لهذه المفاهيم السّامية التي تأتي من عقيدتنا السمحة أن تعود وتستتب في المجتمع؟

محمد الأكحل شرفاء: ... بالعودة إليها، بالرجوع إلى المفاهيم الأساسيّة التي لا ينبغي أن نتنكر لها، فلا نرمي هذا التّراث الإسلامي وراء ظهورنا باعتبار أنّه قديم، فواجبنا هو بعث التّراث، علينا أن نحيي هذه المبادئ ونتفهّمها أوّلا... فعل الشّيء ينبثق عن التّصوّر. وواجبنا أن نتصوّر هذه المفاهيم ونتفهّمها، اليوم ما وضعه الإسلام من قيم غير مفهوم، البعض يظن أنّها المظاهر والشّكلية، والبعض يظنّ أنّه الماضي الذي انتهى ولا عودة إليه، فنحن نضيع بين هؤلاء وهؤلاء، بين الذين يظنّون أنّهم يقيمون الإسلام، وهم يجهلونه ويجهلون مفاهيمه ويجهلون بأنّ الإسلام معاملة وتعامل، وسئل الرسول ﷺ عن الدين فقال: «الدين المعاملة»؛ فالدين لا يظهر بمجرّد اتّخاذ زيّ معيّن وشكل معيّن ثم الذهاب إلى المسجد، الدين لا يظهر هكذا وها هو عمر بن الخطاب ﷺ عنه احتاج إلى شهادة في رجل فدعا من يرى بأنّه أمين في شهادته، فشهد له رجل بالتزكية، فقال له عمر: "كيف وثقت به؟ هل تعرفه؟ فقال: "أعرفه" فسأله عمر: هل عاملته بالدّينار والدّرهم؟ قال: لا، فقال عمر: هل جاورته في السّكن؟ فقال: لا، فقال عمر: هل رافقته في

الّسفر؟ قال: لا، فرد عمر إذن رأيته في المسجد يطلق لحيته ويهمهم ويتمتم بآيات، فقلت فيه ما قلت؟ قال: نعم، فقال عمر: "اذهب فلست تعرفه".

الشعب: نعم فضيلة الشيخ، الدين المعاملة، كيف ترون اليوم واقع الإسلام عندنا، وفي البلاد الإسلامية الأخرى؟ وهل يمكن من ناحية الاجتهاد والفتوى، وهي مسائل تعرف جدلا كبيرا على السّاحة الإسلامية؟ هل يمكن للسّاحة الإسلامية أن تتحرّك مستقبلا؟.

محمد الأكحل شرفاء، نحن نؤمن بأنّ الإسلام رسالة الله إلى الإنسان، تصلح لأيّ مرحلة من مراحل تاريخيه... هي رسالة عالميّة خاتمة، ولقد كان الله ﷻ يرسل الرّسل رسولا بعد رسول بحسب ما تقتضيه فترة معيّنة، أو بلد معيّن أو وضعية معيّنة، لكن الرّسالة الخاتمة التي أنزلت على محمد ﷺ هي للعالم أجمع، ولكلّ زمان، وبّما أنّ هذه الرسالة جاءت لكلّ زمان وكلّ مكان، فلا ينبغي أن يبقى هذا مجرّد كلام أو نظريّات تُرَدَّد وتقال، ويجب أن يكون لها مفهوماعمليّا، فالقرآن نفسه يرفض ويندّد بما نعلن من مبادئ ولا نطبقه ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (2) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (3)**﴾ [الصف: 2-3]، هل يعبد الإنسان ربّه من أجل أن يمقته الله؟ إنّما يقصد بالعبادة رضوان الله، فإذا كنّا نعلن مبادئ ولا نطبّقها ولا نعطيها مفهوما عمليا في الحياة، فإنّ ذلك مجلبة لغضب الله ومقته، فلا بدّ أن نراجع أنفسنا، نراجع ما كنّا عليه، وقد شرع الإسلام التّوبة، والتّوبة تعني المراجعة، فالإنسان يراجع نفسه فإن كان على حقّ استمر، وإن كان على

باطل تراجع، فليس هناك كمال مطلق، فالإنسان خطّاء «كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون»[1]...

ونحن الآن في واقعنا نعيش مرحلة جديدة بالنّسبة للجزائر التي عاشت أكثر من قرن تحت الحكم الاستيطاني، ولم تكن فرنسا تظن أنّ للجزائر مكانة دولة، فقد كانت تعتبرها جزءًا منها، وكذلك تصرّفت فيها، ونفّذت عليها سياسة الإلحاق مع اعتبار أنّ فيها شعب مختلف عن شعبها في دينه ولغته ومقوماته، فوضعت له نظاما خاصّا؛ بتركه تحت العبوديّة، ولقد ذهب الاحتلال حتى إلى الانتخابات فجعلها قسمين: أوّل وثاني وقبل ذلك وضع مكتب الأهالي، وهو ما يعني أنّه يختص بناس من الدرجة الدنيا، وغير ذلك من صـــــور الاستبداد، ولكي تستعيد الكرامة التي ضمنها الإسلام، وهذا ما هدفت إليه جمعيّة العلماء بقيادة الشيخ **عبد الحميد بن باديس**؛ لإعادة كرامة الإنسان الجزائري، ولا شيء يعيد للإنسان كرامته إلاّ ما كرّمه الله به.

الله كرمه بهذا بالدّين وأعزّه به، ويقول **عمر بن الخطاب** ﷺ: "نحن قوم أعزّنا الله بالإسلام، فلو أردنا أن نعتز بغيره أذلنا الله".

ولقد وعدنا الله أنّنا إن اعترفنا بدينه أعزّنا، وإن رجعنا عنه كانت لنا الذلة، وأنا كمسلم أدعو إلى أن نبعث في أبنائنا وبناتنا وفي جيلنا هذا الاعتزاز عندئذ سنرى عجبا، سنرى أنّ الجزائر بما تملك من طاقات بشريّة ومعنويّة وعلميّة لعلّها لا تظهر، ولكنّها إن أخلصت لربّها وعادت إلى قيمها ومجدها

(1) أخرجه الترمذي، وابن ماجة في السنن، وأحمد في المسند.

وتراثها وتاريخها وعظمائها، فإنّ الله سيعيد إليها عزّها وسيجعل من الجزائر زهرة الشّمال الإفريقي، وسيعطيها حتى الإمامة إن شاء الله.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (55)﴾ [النور: 55].

اللهم ألهمنا رشدنا وأعنا على القيام بواجبنا وبصّرنا بعيوبنا واهدينا إلى إصلاحها. وشكرا لك.

البعد التربوي الاجتماعي في العبادات الإسلامية[1]

العقيدة الإسلامية ايجابية فاعلة، لا تكتفي بالإعلان المجرّد للتّطبيق فآيات الكتاب، وأحاديث النبوة، كلّها شاهدة على ذلك، والصّيغة القرآنية المكرّرة في كثير من آيات الله البينة تأتي هكذا: ﴿**الذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾، وما الإيمان إلاّ العقيدة الرّاسخة الثّابتة التي اطمأنّ بها القلب واقتنع العقل، وما العمل الصّالح إلاّ تطبيق الشّريعة المنبثقة عن تلك العقيدة في كلّ مجالاتها.

ومن هنا لا يعقل أو لا يقبل ذلك الانفصام بين الإيمان والعمل، أو بين العقيدة وحياة النّاس الذين آمنوا بها، وعندما يعلن الإنسان إقراره بالشّهادة وإيمانه بما تقوم عليه من مرتكزات إيمانيّة، ثم يتجاهل مقتضيات الالتزام المرتبط بها، فإنّه يعرّض نفسه قطعيّا لهذا الإنذار المفزع، الذي حملته الآية الكريمة: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124)**﴾ [طه: 124].

علاقة الشعيرة بالشريعة:

يعرف علماء الفقه الإسلامي في مجال الدّراسات الفقهية الإسلام بأنّه يشتمل على العقائد والعبادات والشّرائع والآداب السّلوكية، وهم يعنون بالعقائد المبادئ الاعتقادية التي لا يصحّ إيمان المؤمن إذا رفض أيًّا منها، وهي

(1) جريدة الشعب ـ ركن في رياض الإسلام، يوم الاثنين 14 شعبان 1407ه/ 13 أفريل 1987م.

الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقضاء والقدر، ويعنون بالعبادات ما شرع الله من أفعال يومية كالصّلاة، وموسمية كالزّكاة والصّوم والحجّ.

ويعنون بالشّرائع ما جاء في الإسلام من نظم حياته تغطي الحياتية كلّها، وهي تعني العلاقات جميعها، ما كان منها بين الإنسان وربّه، وما كان بين الإنسان ونفسه، وما كان بين الإنسان والإنسان، أو بينه وبيمن من يعايش من حيوان وأكوان، ومن ثم هي نظام للحياة يضع المبادئ الأساسيّة لقيام المجتمع الأمثل الذي تجد البشرية كلّها داخل إطاره ما يحقّق الكرامة، ويثبت العزّة، ويقيم العدل، ويمنع الظّلم، ويربط الإنسان بربّه، ولذلك نجد التّنصيص في الشّرع الإسلامي على قواعد في المعاملات بين الفرد والمجتمع، وبين المجتمع المسلم وغيره، في حالتي السّلم والحرب معا ممّا يذهل العقل، وما يجعله يسجد لله منزّل هذا التّشريع.

أمّا الآداب السلوكية فتعني الأخلاق التي يجب على المسلم أن يتحلّى بها في نفسه، وأن يتعامل وفقها مع غيره، ثم عليه ألاّ يكتفي بهذا التّحلي لشخصه، بل أن يثبتها في النّاس، أينما كان وحيثما وجد، وذلك داخل في صميم رسالته كعضو في مجتمع مسلم، أمر الله أن لا يعيش متقوقعا انعزاليا، ولكنه يعيش للنّاس، آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر، وذلك كلّه ناتج عن عقيدة الإسلام الايجابية الفاعلة: ﴿**وَلْتَكُنْ مِنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**(104)﴾ [آل عمران: 104].

غير أنّ هذه الشّعائر المذكورة كلّها عند تمعّنها لا نجدها قابلة للانفصال والتّجزئة، بل إنّنا نراها نسيجا متلاحما إلى حد أنّنا لو حاولنا أن نفصل جانبا منها عن البقية لفقد حيويّته، وصار عضوا مبتورا من جسده، لا يغني عنا شيئا... وكذلك في الوقت الذي يترك الجسم عاطلا عن أداء وظيفته، وللتّدليل على صحّة ما ذهبت إليه من كون الإسلام عقيدة ونظاما كلّ متلاحم، فإنّ علينا أن ننظر في الشّعائر ثم في بعض مبادئ البناء الاجتماعي في ضوء الكتاب والسنّة.

الأثر التربوي لأكبر العبادات:

أولى شعائر الإسلام التي تبدو عند الرّؤية السّطحية علاقة فرديّة بين الإنسان وخالقه: لا صلة لها بما دون ذلك من شؤون الدّنيا، ومعايش النّاس، هي فريضة الصّلاة.

غير أنّ التّعريف الذي جاء في القرآن الكريم والحديث الشريف لهذه الشّعيرة الإسلامية الكبرى، يجعلها تربيّة فرديّة اجتماعية حيويّة، شاملة لكلّ مقومات البناء الإسلامي للشّخصية الإسلامية المتميّزة في شتى الميادين، ولو حاولنا تلمس الجوانب التّربوية الكثيرة في الصّلاة لأدركنا ذلك من خلال النّصوص الصّريحة التي لا تدحض، إنّها أوّلا تعوّد الإنسان احترام الوقت، وتقدير عامل الزّمن في انجاز الأعمال والقيام بالمهام: ﴿**فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا** (103)﴾ [النساء: 103].

ثم إنّها تربية تطهيرية لخلق المسلم وسلوكه؛ حين يقف ليؤدّي حساب أعماله أمام ربه، ويجدّد العهد على التزام الخطّ المستقيم في ﴿**اتْلُ مَا أُوحِيَ**

إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (45)﴾ [العنكبوت: 45].

ثم إنّ العيش في حياة جماعيّة تضامنيّة مسؤولة في ظلّ قيادة رشيدة مأمونة، وموثوق بها من الجميع، كلّ ذلك خدمة اجتماعية فريدة... هذه القيادة يمثّلها الإمام الذي تتحرك الصّفوف بحركته وتستمع إليه حين ينطق... ولكنها في الوقت ذاته إذا رأت خللا يهدّد النّظام العام، نبّهت الإمام، وهذه اليقظة واجب الجميع، فإنّ أي واحد منهم لاحظ خللها عليه أن يعلن الإمام قائلا: "سبحان الله".

عندئذ على الإمام يصلح المسار ويعالج الخطأ.

وفي هذا بناء للمجتمع يقوم على الشّورى والرّقابة لكلّ ما يجري في المجال الاجتماعي.

وحرصا على رعاية الحياة الجماعية ورفض الانفرادية التّقوقعية، حثّ رسول الله ﷺ على صلاة الجماعة حين قال: «صلاة الجماعة تفضل صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة»[1].

وبالإضافة إلى صلاة الجماعة يوميّا، هناك صلاة الجمعة التي تعرض فيها الحياة الاجتماعية في مدى أسبوع، ليعالج الإمام حين يخطب القضايا التي تحدث في المجتمع، حتى يكون المسلم على علم بكل المستجدات في حياة مجتمعه، وعلى استعداد مستمرّ لعلاج الأدواء، وإصلاح الأخطاء وفق ما

(1) متفق عليه، أخرجه البخاري ومسلم.

شرعه الله في وحيه المنزل، على نبيه المرسل: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (82)﴾ [الإسراء: 82].

هكذا وفي الأزمات والأحداث كانت الصّلاة علاجا ومنهاجا، وبالجملة فإنّ المصلي يستمد من الله في صلاته الطّاقة التي تمدّه بالقوة المعنوية، التي يواجه بها أحداث الحياة، وهي موزعة على أجزاء النّهار في أوقات حسّاسة يتوقّف المسلم في محطّاتها ليستريح من وعثاء السّفر وليتزود بما يجب للمراحل القادمة، هذا المعنى ذاته يحمله إلينا حديث رسول الله ﷺ الذي كان ينتظر الصّلاة بعد الصّلاة، وكان إذا حضر وقتها نادي بلالا قال: «أرحنا بها يا بلال»[1]، كما كان المسلمون في أيّام عزهم إذا حز بهم أمر، بعثوا من ينادي في النّاس: الصلاة جامعة، فيهب الجميع إلى المسجد الجامع ليلقي إليهم الخبر... وتلك هي رسالة الصّلاة في أمة الصلاة...

(1) أخرجه أبو داود في السنن، وأحمد في المسند، ولفظه عند أبي داود: «يا بلال أقم الصلاة، أرحنا بها».

الشّخصية الإسلاميّة في ضوء الكتاب والسنة[1]

تمهيد:

الإسلام هو دين الله الذي ختم به كلّ الرّسالات إلى الخلق، وأنزله بتعاليمه في أصوله وشرائعه إلى النبي محمد ﷺ وكلّفه بتبليغه إلى النّاس كافّة، ودعوتهم إليه، وقد تلقّى فيه ﷺ عن ربه القرآن الكريم فبلغه كما تلقاه، وبيّن بأمر الله وإرشاده مجمله، وطبّق بالعمل نصوصه، ثمّ تلقّاه عنه النّاس جيلا بعد جيل كما تلقّاه هو عن ربّه حتى وصل إلينا -كما نزل- متواترا لا ريب فيه.

القرآن كتاب الله:

وقد قامت الحجّة القاطعة عند من نظر في القرآن وعرف أسلوبه، وتدبّر معناه ومحتوياته ثم أحاط بنشأة محمّد والبيئة التي نبت منها على أنه لا يمكن أن يكون من صنع البشر، تلقّاه عنه مهما علا شأنه وارتفع مستواه فكيف يكون من صنعه هو؟ وقد عاش أميّا ونشأ في مجتمع الأميّين؟

وقد سجّل القرآن نفسه عجز البشر من الإتيان بمثله، وقد فشلت كلّ المحاولات المبذولة لمعارضته، فقال تعالى: ﴿**وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (23) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (24)**﴾ [البقرة: 23-24].

(1) جريدة الشّعب 21 جوان 2000م.

كلمة الشّهادة:

لقد جعل الإسلام مفتاح الدخول للإسلام الشّهادة وهي: "لا إله إلا الله محمد رسول الله" فالشهادة بوحدانية الله تتضمّن كمال العقيدة في الله من جهتي الربوبيـــة "الخلق والتّربية"، والألوهية "العبادة"، والشهادة برسالة محمد تتضمن التصديق بكمال العقيدة في الملائكة، والرسل، واليوم الآخر، وأصول الشريعة، والأحكـــــــام، ﴿**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (285)**﴾ [البقرة: 285]، ﴿**لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (177)**﴾ [البقرة: 177].

رسالة عالمية:

وكما قرّر القرآن أنّ الرّسالات الإلهية ختمت برسالة محمد ﷺ، وأنّه خاتم الأنبياء، قرّر أيضا أنّ رسالته عامّة بمعنى أنّها موجّهة إلى جميع النّاس في جميع أجناسهم ولغاتهم، الموجودين منهم زمن حياته والذين سيوجدون منهم بعد موته إلى يوم الدين ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**

(158)﴾ [الأعراف: 158]، ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (19)﴾ [الأنعام: 19].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (107)﴾ [الأنبياء: 107].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (28)﴾ [سبأ: 28].

وقد حكى القرآن رسالات غيره من تقدم بعنوان القومية خاصة:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (59)﴾ [الأعراف: 59].

﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (65)﴾ [الأعراف: 65].

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (73)﴾ [الأعراف: 73].

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (80)﴾ [الأعراف: 80].

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ

وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (85)﴾ [الأعراف: 85].

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (103)﴾ [الأعراف: 103].

وقال في شأن عيسى:

﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (49)﴾ [آل عمران: 49].

أمة رسالة:

لذلك تعتبر أمة محمد ﷺأمة رسالة عالمية تلقتها من نبيها، وهي مكلفة بتبليغها، وقد أمرها الرسول في حجة الوداع فقال: «فليبلغ الشاهد منكم الغائب».

رسالة الإنسان[1]

في نداء الآذان لأوقات الصّلوات الخمس تذكير برسالة الإنسان المسلم في الأرض، ففي إعلان أنّ الألوهية ومقتضياتها جميعا وكلّ صفاتها المميزة؛ إنّما يختصّ بها الله ﷻ، وفي إعلان أنّ الرّسالة العامة الخاتمة الموجهة إلى الخلق جميعا، إنّما جاء بها نبي مرسل هو محمد ﷺ ترسيخ متكرّر لمفهوم رسالة الإنسان في الأرض، إنّنا عندما نسلم بأن حاكمنا الأعلى، ومدبّر أمرنا ومالك حياتنا وقاضي مصيرنا... هو الله فإنّ كل دوافع العبوديّة والخنوع تختفي من حياتنا، وتحلّ محلّها قيم الحرية والعزّة، تلك القيم المتوفّرة في رسالة خالدة حملها إلى النّاس رسول العزّة والكرامة، المبعوث إلى الخلق كافة، من لدن ربّ العالمين، يحمل إليهم البشرى أنّ لا عبودية ولا استذلال في ظلّ دولة الإيمان، بشرى تصرح بها آية الله البينة ﴿**وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (8)**﴾ [المنافقون: 8] هذا من جهة، ومن جهة أخرى جعل العلاقة في مجتمع الاستخلاف الذي أراده الله منذ خلق الإنسان الأوّل، علاقة العقيدة التي منها تنطلق كلّ الأفعال، وعليها تعتمد المواقف كركيزة كبرى تشدّ البناء الإنساني أن يميد، وهذه العقيدة أنقذت الإنسان قديما من طواغيت الأرض، وجعلت منه شعلة نورها هادية وقوة حق غالبة، رغم افتقاره إلى وسائل ذلك بالمفهوم العادي، يتبيّن ذلك عندما نلقي نظرة على الوضع السّائد في المنطقة التي بدأ منها انتشار الإسلام على الكرة الأرضيّة، إنّ تلك النظرة ترينا بشرا غير مؤهّلين في أغلبهم حتى لحكم

(1) جريدة الشعب ـ ركن في رحاب رمضان، الأحد 8 رمضان 1407ه/ 10 ماي 1987م.

أنفسهم، وتطوير مستوى عيشهم لما يسودهم من أهميّة، وما يعوقهم من عادات وتقاليد، وما يحوطهم من فياف قاحلة لا تنبت زرعا ولا تنتج ضرعا، فأنّى لهم أن يبنوا كيانا دوليّا ذا شأن، فضلا عن التّقليد إن يصبحوا أصحاب رسالة عالميّة، غير أنّ أكثر من هذا قد حدث، فما أن استطاعت دعوة الإسلام أن تصل إلى دار الهجرة، حتى نبرى الدّاعية الأوّل لمنهج الله ببناء أمّة وينظّم دولة ويتّصل بقادة الدّول، لا لطلب مساعدة لبناء الدّولة الناشئة والمجتمع الوليد، ولكن ليدعوهم إلى الدّخول في هذا المنهج الذي أراده الله نظاما يسود العالم كلّه.

وعندما نتدبّر الآية الكريمة: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30)**﴾ [البقرة: 30]، نتبيّن أنّ الإنسان مبعوث أساسا إلى الأرض برسالة التّعمير والتّنوير، الهادي إلى الحقّ وإلى صراط مستقيم، فأمّا أن يهتدي بهذه الرّسالة ويذيع هذا الهدى في النّاس، فتكون له حياة الطّيبة والمصير السّعيد، وأما أن يزيغ وينحرف فينتهي إلى شرّ المنقلب وسوء المصير.

وهذا قوله تعالى في أمر رسالة الإنسان الذي أنزله الله الأرض: ﴿**قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (39)**﴾ [البقرة: 38-39].

وبهذا التّحديد نعرف أنّ الإنسان رسالة، وأنّ وجوده في الأرض يتحدّد في ضوء هذه الرّسالة التي عليه أن يعيش العمر كلّه في خدمتها،

والدّعوة لها والالتزام بمضامينها، وإنّ مفهوم الدّين نفسه هو ترويض النّفس وقيادتها وفق ما وضع لها من تشريع الخالق الرزّاق، المدبّر الذي له الأمر في الأولى والآخرة ربّ العالمين والمسلم حين يلتزم برسالته في الحياة، يملك أمر نفسه فلا تلعب به الأهواء ولا تؤدّي به الأنواء، ولا يغشو بصره أمام الأضواء، به يملك ذلك البصر الحديد الذي يرى الأشياء في حجمها، فلا يزيغ البصر؛ لأنّ الله ﷻ هو الذي يريه الحق حقا فيتبعه والباطل باطلا فيبعد عنه.

﴿**مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (11)**﴾ [التغابن: 11]، وهداية القلب الذي كثيرا ما يأتي في كتاب الله بمعنى العقل؛ تعني ألاّ يزيغ ولا ينحرف عن جادة الحقّ، ولا يضلّ سواء السّبيل، وقد جعل الله للإنسان المسلم محطّات يقف عندها ليستريح من وعثاء السّفر في مراحل الحياة، وليتزوّد في الوقت ذاته من الطّاقة التي تدفعه فيما بقي من مراحل عمره، وهو في ذلك كلّ يتابع المسار المستقيم الذي يدعوا الله في كلّ صلاة، وأن يثبته عليه، وذلك حين يقرأ سورة الفاتحة التي لا تصحّ صلاة بدونها، ففي آياتها الأخيرة قوله تعالى: ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (7)**﴾ [الفاتحة: 6-7].

هنا يعلن المسلم التزامه بالخطّ المستقيم، الذي هو منهج الله لحياة البشر، ويسأل ربّه أن يثبته عليه، ويعرفه بمعالمه؛ حتى لا يخطئه، كما يعلن رفضه لكلّ اتّجاه غيره؛ لأنّه إمّا اتّجاه من غضب الله عليهم، ممّن عرفوا الحق وجانبوه وعاثوا في الأرض فسادا.

واقترفوا من الإثم والعدوان ما اقترفوا، نتيجة الإعراض عن هداية الله، وابتغاء الفتنة في الأرض؛ كاليهود الذين ضلوا الطّريق فلم يهتدوا إلى الحق، وتمادوا في الغواية والضّلال البعيد؛ كالنّصارى أو غيرهم ممّن لم يهتد بهدى الله ولم يستجب لدعوة الرّسل الكرام عليهم السلام.

وخلاصة القول أنّ الإنسان رسالة، وأنّ واجبه الأوّل، والأكيد في هذه العاجلة هو أن يعيش للرّسالة، ويدعو إليها وبذلك يتحقّق له وجود كريم في الدّنيا، ونعيم مقيم في الآخرة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

ماذا يعني تغيير ما بالأنفس[1]

عندما يقرّر كتاب الله أنّ أيّ تحوّل في أوضاع النّاس مرتبط بالجهد الذّاتيمنهم، فإنّ ذلك لا يترك أيّ مجال لانتظار التّحوّلات الايجابيّة من تصاريف القدر، وإن كانت هذه التّصاريف تجري مجراها حسب النّظام الكوني الذي يدبّره العليم الخبير ونحن جزء من هذا النّظام، لا نملك أن نفلت من مقتضى ما يخصّنا من سيره، غير أنّ المحيط الذي ترك لنا العمل في دائرته، حسب اختياراتنا يمكننا أن نعمل فيه، حسب التّوجيه الذي رسمت خطوطه في منهج أمرنا بتطبيقه، وفي نطاق هذا النّظام وعلينا أن نتحرّك، غير أنّ هذا التّحرّك لا يكون فاعلا ما لم ينبثق من قناعاتنا بما تمليه علينا قيمنا الإيمانية، أو أبعادها العمليّة التي ينبغي أن تظهر فيما نعلن، وتستقر فيما نبطن، وعندئذ يمكننا انتظار النّتائج الايجابية التي بشّر بها الوحي المنزل على لسان النبي المرسل ﷺ، وذلك ما تمّ فعلا أيّام الدّعوة الأولى، وما تلاها من عهود التآسي والاقتداء، وعندما حدث الانحراف ووقع الانجراف نحو المزالق ظلّ الوضع الإسلامي يتدحرج فيها، عصرا بعد عصر، وهو تغيير في اتّجاه معاكس، ما تزال بلدان المسلمين تعيش أسوأ أوضاعه وتقاسي أفظع أهواله، والأمر كلّه يبقى كما حدّده التّوجيه القرآني قاعدة صلبة لا تقدر التّحوّل، فأمّا أن نعمل وفق عقيدتنا لتحويل ما بالأنفس، من تصوّرات ومفاهيم إلى قيم سامية، تكون لها القيادة في العمل والسّلوك والمواقف، وبذلك تحصل على النّتائج ذاتها، التي حصل عليها الصّدر الأوّل من هذه الأمّة... إنّهم

(1) جريدة الشعب، الخميس 9 رمضان 1407ه/ 7 ماي 1987م.

كانوا في جاهلية جهلا، تغلب عليها العصبيّة وتقودها الموروثات، التي منها ما هو صالح ومنها ما هو غير ذلك؛ لأنّ الإنسان بطبعه مزيج من الخير والشّر، غير أن تغليب الجانب الأوّل على الثّاني لا يتمّ إلاّ بالعمل الجاد والمحاولات الدّائبة للتّقوى والتّزكية، وفي هذا تبرز المسؤوليّة الفرديّة لكلّ شخص في نطاق ما اقتنع به من معتقد؛ لأنّ المسلم الأوّل الذي استجاب لدعوة ربّه وآمن بدينه قد بذل أقصى الجهد لتحويل ما بنفسه، من مفاهيم وقناعات إلى القيم الجديدة التي جاء بها الإسلام... وكانت المرحلة المكيّة التي دامت ثلاثة عشر عاما من البعث إلى الهجرة، مهيّأة لبناء الإنسان المسلم نفسيّا قبل التّحول به إلى جعله عضوا في بناء اجتماعي، وهكذا استطاع أولئك الذين صهرهم الصّبر على الشدّة واحتمال الأذى، أن يواجهوا بعد ذلك جبالا من الأهوال بقلوب صامدة وبعزائم حاشدة، وكأنّهم ما كانوا أهل عصبيّة جاهليّة وموروثات بدائيّة؛ فانساحوا في أرجاء الأرض يدعون الخير ويعلمون الهدى، ويقيّمون مسار البشريّة، ويركّزون قيم العدالة والحريّة، ويبنون قواعد الحياة الإنسانية على العلم والإيمان والعدل والإحسان، ويبشّرون باستهلاك عهد التّحرير والّتنوير كلّ ذلك إنّما تمّ.

أولا: بإرادته تعالى الذي قضى أنّ لكلّ ليل نهارا ولكلّ ظلم دمارا...

وثانيا: حين يوجد من يؤمن بآيات ربّه ويتمسك بحقّه ويعزم على تغيير ما بنفسه، وبالمناسبة أحب أن نقف قليلا عند قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (11)**﴾ [الرعد: 11].

حتى يكون هذا الذي قتله مستمدا ممّا أوحى الله إلى الرسول ﷺ فعبارة: ﴿مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾: تحدّد يقينا مسؤولية الإنسان عن عادته وموروثاته وقيمه ومفاهيمه ومجموع قناعته، فإنّ الذي على الإنسان أن يجدّ ويكدّ لتغيّره، هو ما علق بنفسه من ضلالات ومعوقات؛ لأنّ ذلك كلّه إن ظلّ عالقا بنفسه، حال بينها وبين النّور ينبغي أن يسري في أرجائها لتهتدي به إلى الحقّ وإلى السّلوك القويم.

أمّا إذا ظل الران عالقا بالنفس البشرية، فإنّ ذلك يحول بينها وبين النور الهادي: نور الله كما يحول الحامض بين مركز التّوليد في البطارية والتيار الكهربائي؛ ولذلك تبرز المسؤولية الفردية، والإعجاز الذي أراه مدلول الآية الكريمة هو إنّها لم تقل أنّ الإنسان يجب أن يغيّر نفسه؛ لأنّ النّفس خلق الله ولا سبيل لتغيرها من مخلوق، ولكن الذي على الإنسان تغييره هو ما اعتراها؛ لأنّه ليس جزء منها لا يتجزأ.

وإنّما علق بها نتيجة (الوراثة) والاحتكاك أو التّأثّر أو التّلقين... وأنّ الله ﷻ لم يترك الإنسان عبثا، بل وجّه إليه منذ نزل الأرض رسلا مبشرين ومنذرين؛ لئلا يكون للنّاس على الله حجّة بعد الرّسل.

وبهذا كلّه نعلم يقينا أنّ الذي هدى الإنسان لإصلاح وضعه، وتطييب عيشه وإعزاز وجوده، هو الذي شرع له ما اهتدى به من تقّدم دون نكوص نحو الفلاح العاجل والآجل